2267
.07
.374

2267.07.374
'Awwād
Al-raghīf

MAY 16 '42 Bindery

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

a32101 004696611b

2267
.07
.374

١

كانت وردة كسار عابسة لم تفتر عن سن طول ذلك النهار . فقد جاء الدرك في الصباح وفتشوا البيت مرة أخرى ، فقلبوا الاثاث وازاحوا الخزائن والمقاعد ورموا الفرش واللحف الى الارض ، ونزلوا الى المراح فبعثروا اشياءه العتيقة، واقاموا لها الحانوت واقعدوه فلم يدعوا صندوقا الا كفأوه ولا طبقاً ولا اناء ، كأن من يطلبونه يستطيع ان يواريه طبق أو يغطيه صحن ! وزادوا فكانوا غلاظاً ، فشتمها احدهم وهددها الآخر بعقب بندقيته ، واستهزأ بها الثالث وهي فلانة التي تستهزيء بالناس اجمعين . وكان كبيرهم اشدهم تجنياً وابلغهم نكاية بها ، لم يعرها التفاتة ولم يقل لها خيراً ولا شراً ، ظنته فاضلهم فاذا به يمد يده ، وهو خارج ، ويأخذ من البرتقالات اكبرها لا اذن ولا حياء .

ولم تكن وردة لتحفل بالحادث كثيراً لولا انها تتشاءم منه وتخشى أن ينال من سمعتها لدى العسكر التركي . فقد تكرر منذ شهر فتكرر به النحس وانحبس عنها الرزق طول اليوم الذي يطأ فيه

الرغيف

« ليس بالخبز وحده يحيا الانسان »

2267
.07
.374

مؤلفات توفيق يوسف عواد

صدر :

الصبي الاعرج وقصص اخرى (نفد)

قميص الصوف وقصص اخرى

الرغيف (رواية)

●

قريباً :

روائح الجنة (رواية)

صديقتي سوسن وقصص اخرى

2

توفيق يوسف عواد

Tawfiq Yusuf 'Awwad

الرغيف

(رواية)

al-Raghif

منشورات دار المكشوف

الطبعة الاولى

Beirut 1939

طبع من هذا الكتاب ثلاثة آلاف نسخة على ورق عادي
وخمسون نسخة على ورق «برشمان» مرقومة من ١ الى ٥٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

3

اليك يا ابي اقدم هذا « الرغيف » .

واذا كنت سكبت له الحبر وراء مكتبي الوثير فقد قدمت أنت الي في ايام الحرب الكبرى ، والى اخوتي واخواتي ارغفة سكبت لها عرق جبينك ودم قلبك ، عهد تخلى الآباء عن ابنائهم وأنكر الاخ اخاه .

وكنت يا ابي من الذين يقولون مع الناصري: « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » فاذا كان في هذا « الرغيف » نفَس للحرية والكرامة فمن انفاسك على تلك الارغفة الغالية .

ترى انني لا اقدم اليك الا منك. واعذر قصوري عن بلوغ ما بلغت ، فانت ابي وانا ابنك ما ازال صغيراً .

نوفل

4-13-42 Samy Swaid

224
3/19 N Raabe
924525

4

مدخل

اذكر ذلك جيداً .

قال ابي « قم انظر الى العسكر» فقمت ، وقام اخوتي واخواتي ولحقت بنا امي . المساء ... ونحن على الشرفة نتزاحم شادين بحديدها، والجنود يمرون على الطريق ، ثيابهم رثة مبلولة ، تنوء اكتافهم بالبنادق وظهورهم بالاحمال ، بعضهم في جزمات مقطعة بالية ، والاكثرون حفاة تغرق اقدامهم في الوحل .

خافت امي فدعتنا الى الدخول فلم ندخل ، فحاولت ان تحملني فامتنعت واعتصمت بابي ، فبسط كفيه فوق رأسي واتكأ علي لم يحفل بغضبها . اما كان الجيران كلهم قد خرجوا مثلنا فملأوا حافتي الطريق ؟

الفرقة اولها رأيناه ، واما آخرها فلا يناله الطرف. وانا ارفع انثني حيناً بسؤال الى والدي ، واشير باصبعي حيناً ، واصفق مسروراً حيناً آخر . اشيح بوجهي عن المشاة وامد برأسي الى الفرسان ، ارافق واحدهم الى ان يغيب وراء كتف اختي ، فانحيها فلا تحس ،

فادور على التالي . حتى لم يبق الا البغال الهزيلة العرجاء ، والمقصرون من الجنود ، المقتولون تعباً وبرداً وجوعاً .

ووقع احدهم على وجهه فتدار كته جارة ارملة وادخلته الى بيتها . لم ادر ما حل به ولكني سمعت في غد نساء يتوشوشن بان ام حنا اخذت بندقيته واحرامه برغيفين وصحن عدس .

وجاء المختار في السهرة فخلا بابي هنيهة . ثم رأيت ابي وامي يخرجان ما في معجننا من خبز واكثر ما في الخزانة من بيض ، وحضن بطاطة ، وبصلا وسكراً واشياء ، وجعلا كل ذلك في كيس خيش ، فحمله فلاح كان بالباب ينتظر المختار ، وسار معه الى البيوت الاخرى .

وعاد والدي يخبرنا ان العسكر جائعون ، فالمختارون يجمعون لهم من بحرصاف وساقية المسك وبكفيا والمحيدثة ما يمسكون به انفسهم . ثم اقبل على والدتي يحادثها عن الحرب وتركيا وفرنسا والنمسا وانكلترا والمانيا ، فوقفت اصغي واقاطعهما بالسؤال تلو السؤال لعلي افهم ، فما دار لي من كلامهما شيء .

*

كنت طفلا لا عهد لي بالروزنامة . ولكني علمت فيما بعد ان الجيش التركي دخل وطني الصغير لبنان ، ووصل الى قريتي الجميلة في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ ، وادركت انه لم يدخل دخول الفاتحين الا في البلاغات الرسمية التي اذيعت في اسطنبول وغيرها من العواصم

5

والمدن ، وان قواده كانوا يخشون قيام اللبنانيين بوجههم ويحسبون لهم حسابا ، لما اشتهروا به في سالف الزمان من الرجولة والمروءة ، ولما تمتعت به جبالهم من مناعة وشموخ واستكبار .

مشت الحملة فلم يقف في طريقها الا العواصف والثلوج ، فافنت فريقاً واهلك الجوع فريقاً آخر ، وحامت الغربان فوق بلادي ووقعت على الاودية تقتات لاول مرة من جثث الاتراك ...

اجل ، لم يقف في طريق تلك الحملة انسان من لبنان ، لان لبنان تبدل منذ ١٨٦٠ غير لبنان . اذ كيت فيه الفتن الطائفية فتوزع شيعاً وتشتت فرقا . وسعت الدول الاوربية اليه بمطامعها ، والى سواه من اجزاء السلطنة العثمانية المفككة ، فاصطنعت العطف عليه وتكلفت حمايته ، فاجتمعت سبع منها ووضعت له نظاما خاصاً ، واجبرت « الرجل المريض » على ضمان امتيازات له ، اهمها اعفاء ابنائه من الخدمة في الجيش الهمايوني ومنع هذا الجيش من احتلال اراضيه .

ومنذ ذلك الوقت ادار لبنان وجهه نحو الغرب ، وحسه وفكره جميعاً ، وامسى في مجموعه متواكلا ، رخو الاعصاب ، قليل الهمة ، شأن كل شعب يفقد اتحاده وايمانه بنفسه . فلما نشبت الحرب الكبرى وخرقت تركيا امتيازات لبنان لم تجد فيه ابناءه ، فاستوت على صدره استواء المستبد ، فلم تدع ظلماً الا اتته ولا حراما الا ارتكبته ، وسجل لها التاريخ ، في هذا الوطن الصغير الجميل ، صفحة لم يعرف في حياته اشد اسوداداً منها ، والظن كله انه لن يعرف الى الابد .

غير ان بقية من الدم الكريم ابت الا ان تفور في صدور النابهين المتعلمين من الشبان ، فتعاونوا مع اخوانهم وابناء عمومتهم وخؤولتهم في كل شعب من الشعوب العربية ، على خلع نير الاتراك ، وكانوا في طليعة الداعين الى الانفصال عن الدولة العثمانية التي حكمت العرب قروناً خمسة هجعوا سحابتها هجعة هي من اغرب الاسرار وارهبها في سيرة الامم . من هؤلاء الشبان من ادى الامانة الكبرى فمات على المشانق التي نصبها الحاكم العسكري جمال باشا في بيروت ودمشق وسواهما ، ومنهم من لبى نداء الصحراء فاشترك في ثورة الشريف حسين في ١٩١٦ ودخل ظافراً مع من دخل بهم نجله فيصل الى عاصمة الامويين في ١٩١٨ ، يحاولون اعادة ذلك الملك العربي العظيم ، وبعث جاهه العريض ، ومنهم من لا يزال حياً الى اليوم يتعهد النبتة التي سقاها الشهداء بدمائهم ، فيعلو ساقها ويشتد ، وتذهب فروعها في السماء .

*

كل هذه الاشياء تفتحت عليها عيناي حينما كبرت . ولو كان ذلك الطفل يدركها في وقفته على الشرفة بين ذراعي ابيه لما صفقت كفاه الصغيرتان للعسكر التركي يطأ قريته ووطنه ... وحينما كبرت استيقظ في نفسي ابن ١٩١٤ واحتج بسذاجته ، ولعن الف مرة ومرة لقمات طيبات اطلعتها ارضنا الندية ، ورعتها سماؤنا الطاهرة الوفية ، يقطعها الآباء والامهات عن افواه اولادهم وفلذ اكبادهم ، ليسد بها الاجنبي

المحتل جوفه ويرد غائلة الجوع عن نفسه ، حتى اذا تمكن من البلاد،
اطعم الآباء والامهات والشيوخ والصبايا والاولاد شعيراً وكرسنة
وزواناً ، اكل الدواب والكلاب أطعمهم ، ثم حرمهم فقتلهم ...
ولكن ، مالي استرسل في الحديث واستبق الحوادث من روايتي.

ش٠ع

الغربة

هؤلاء الدرك عتبتها بجزماتهم المسمرة الطقاقة . وها ان الدنيا تدغش ولم يزرها من زبائنها الا همشريان عند الظهر ببشلك واربعة مثاليث . وشأن الحانوت وشأنهـا لا يصلح بمثل هذين و كيسهما المزيل ، ولولا ذوو الشرائط اللـاعة ومجيدياتهم المرنة لمانت وردة جوعا ومات من وراءها ، كما تموت الناس في ساقية المسك وغيرها بالعشرات والمئات .

— قدح واحد بعد ! قدح واحد !

لم تجب ، وبقيت مستنـدة الى عارضة البـاب مديرة ظهرهـا . فالسكران يردد هـذا الطلب منذ ساعة بالحاح السـكران . وهي تأنف من مجاراته خصوصاً في هذه الازمة تأخذ بنفسها و كيسها معاً ، فتجعل الحياة كلها تبرما وحقداً . ولو ادرك السكران شيئاً من ذلك لامسك ، ولكن هيهات !

— قدم اخير ! اقوم واصبه بيدي .

— اكسرها لك !

وتحولت ترمي الجـالس في الزاوية بنظرة تحـدٍ . بدين ينطوي كرشه على حافة الخوان ، ويتدلى تحت عينيه الحمراوين شاربان قذران على فم رخو مبتل . لم يسمع تهديدهـا وحاول القيام بكأسه فوقعت على الارض وذهبت شظايا . فانحنى يلمها ويبوسها متباكياً :

— يا حرام . . . يا حرام !

— كلها ، كلها ، عسى ان تموت !

وجرته الى الباب لتطرده ، فاذا رجـل قد صار الى العتبة بطقم

9

افرنجي ومظلة على ذراعه ونظارتين يسويها ويشمخ كالمتسائل أيدخل ام لا يدخل . غريب لم تر له وردة وجهاً من قبل ، فاستوت ترحب به وتتكلف الضحك ، وتراجعت الى اقرب مائدة فسحتها بطرف ازارها :

ــ تفضل ، تفضل ... لا تؤاخذه ، سكران ! دخل الى هنا سكران . انا لا اسقي عرقا في دكاني . ممنوع ! من اجل العسكر... هل انت آت من بعيد ؟ اعطني طربوشك لانفضه . هات عنك . البرد شديد اليوم . ساوقد لك النار حالا .

وفركت كفيها ونادت :

ــ ابو سعيد ... ابو سعيد !

ولما تأخر الجواب ذهبت الى باب في الحائط فانفرج ، قبل ان تصل ، عن ولد في التاسعة من عمره .

ــ اين جدك ؟... ها ! ... هل طرشت ؟

فلم يبال الشيخ بها ، ورفع عينيه من فوق الصغير الى الزائر الجديد فتلاقت عيون الاثنين هنيهة ، ثم نقلها الى السكران وهز برأسه وأغلق الباب .

ــ قدح واحد بعد ... يدفعه عني الخواجه .

ــ من اين لي العرق ؟ هل انت مجنون ؟ (وصرّت باسنانها) رح اكمل سكرتك حيث بدأتها . يللا من هنا ! ... هل ترى عندي عرقا يا خواجه ؟

ولم يجد ورده غضبها شيئاً ، وما احس السكران بتفريكها اصابعها ولا بغمزة حاجبها ، وظل مقبلا بقمبازه المشقوق على الصدر ، حاملا حطامة كأسه مصبوغة بالدم .

— اهذا عرق ام لا ؟ شم . شم يا خواجه . عرق وردة كسار رائحته كالمسك . سترى انها تصب لي قدحا آخر ... وحياتك ! (ولوى عنقه) وحياة طام . ها ! ها ! انظر ، انظر يا خواجه (واطلق لسانه) حلقي ناشف مثل الحطبة .

فاجفل الرجل من انفاس السكران .

— ألا تريدين ان تعطيني ! طيب . انا ابو زيد ! انت لا تعرفين ابو زيد بعد ... والله العظيم اطلع على السطح وانادي ...

— اخرج من هنا !

وصفعته ، فضحك للصفعة ضحكة بلهاء ، ورفع اصبعه وهو يتهادى :

— اشهد يا خواجه ! انا انذرها منذ الان ، ساطلع على السطح وانادي : يا ناس ياناس ! كذا و كذا ... لانني انا وحدي ياخواجه (و-لق بوقار) وحدي انا اعرف السر .

ارتعش الغريب عند هذه الكلمة وركز نظارتيه على انفه المجدور واخذ يحدج السكران . اما وردة فقد كان ذلك فوق طاقتها فوثبت على ابو زيد تريد ان تقضمه باسنانها ، فوضع الغريب يده بينها وبينه،

١٥

فارتدت وقالت :

ــ كرامتك يا خواجه ، والا ... وحياتك لا تؤاخذني .

ــ العفو . اعطني برتقالة ، وصبي لابو زيد قدحا .

ووضع مجيديا على الخوان . فترددت ، فاردف :

ــ ومتى شرب به قولي لي لافتح له حسابا على ريال ثان .

ــ ولكن انا لا ...

ــ وثالث ورابع ، اذا احب .

فبلعت بريقها وهرولت خلف الستارة .

٢

لما جاء ابو سعيد بالموقد كان ابو زيد قد حظي بكأسه واطمأن الى حظه . والغريب يتناول قطع البرتقالة بطرفي سبابته وابهامه قطعة فقطعة متمهلا ، متأنقاً ، متشاغلا بها عن ابو زيد وهذيانه ، ووردة ومجاملاتها ، حتى اذا احس بحرارة النار التفت الى الشيخ ليشكره ، ولكن ابو سعيد كان قد ادار ظهره وسأل وردة :

ــ الم تأت بعد ؟

فنكصت برأسها ان لا . فدنا من عتبة الحانوت ، وارسل بصره في الطريق حتى طرفها البعيد فلم ير الا الامطار تتلاعب بها الرياح ،

فتنهد من اعماق قلبه ، فغشت لهبة انفاسه الدنيا في عينيه فوق ما فيها من ضباب وظلام ، فاطبق اجفانه عليها جميعا ، وانقلب عائداً ، فلما حاذى ابو زيد رفع السكران طربوشه ولوح بقدح كان تحته وقال :

ـــ السر بيننا نحن الثلاثة: انا وانت ووردة (وجرع جرعة كبيرة) من هو الحمار ... اف ... اف ... من هو الحمار الذي قال ان السر اذا جاوز الاثنين شاع ؟ انا واحد ، ووردة اثنان ... عد معي يا خواجه . وابو سعيد ثلاثة ... وطام (ونفخ ايضاً بين شاربيه) اين صرنا في العدد ؟ وزينة اربعة ... هذا انفك وهذا فمك . وهذا ... تعال ، تعال ، اقترب مني . هل انا سكران ؟ صحيح انني سكران . لو كنت صاحياً لكان لك شاربان ! قه قه ! السكر بطير شوارب الاخرين !

فلم تتمالك وردة ، على ما بها ، من الابتسام ، لان الجدري كان قد احفى كل شعر في وجه الغريب . ولكنه لم يبد للنكتة انزعاجا ، وشارك السكران في الضحك ، والسكران يتنقل في ثرثرته :

ـــ أترى هذه المرأة ؟ هذه ست النساء ... بف ... واخت الرجال ! هل تظنين يا ست وردة انني سافشي السر ؟ يا عيب ! انت لا تعرفين ابو زيد . لو شنقوا ابو زيد لا يقول كلمة . افضل ان اموت الف مرة (وضغط رقبته بكلتا يديه)... وردة مثل امي وأحن منها علي . اسمح لي يا خواجه ان اشرب كاس وردة. تصور... بف بوف... تصور ما كان يحل بابو سعيد وزينة وطام لولا وردة ! .

كلهم، حتى الصبحا كانت تموت جوعا . هل تعرف الصبحا؟ تسمعين مني ياوردة ، اذبحيها ، اذبحيها قبل ان تموت جوعا. انا ابو زيد بطولي وعرضي، انا ابو زيد ... اف... اف ... الجوع ما عليه ابو زيد ، كنت اموت انا ايضاً لولا وردة . كاسك يا وردة ، يا أم الجميع ! أن اقولها على السطح امام كل الناس : ابو زيد يعيش من فضل الست وردة!

ــ هل تريد ان تسكت !

ــ هاه هاه ! سددت في . الله يقصف عمري ! هل بحت بالسر؟ قلت لك سدي لي فمي . ولكن لا . ماذا قلت انا ؟ اتظنين انني ازلق بلساني ؟ ابداً ابداً . صبي لي كأسا .

ــ لم يبق عندي عرق .

ــ صبي لي كأساً. انا افهم ما اقول. لا تخافي. بوف ... بوف... أعبثاً تضعين ثقتك بي ؟ ابو زيد سيد من حفظ السر . اسمع ياخواجه لا تظن انني سابوح لك بالسر ، العرق وحده والشرف وحده .

ــ وانا واياك معاً .

ــ طبعاً . انت مثلي شريف ، والشريف يفهم الشريف . اليس كذلك ؟

ــ صبي له يا ست وردة .

ــ القدح الاخير على شرط .

ــ انا لا اشرب الا الاخير دائماً ... ما لك تقوم يا خواجه ؟

بل تقعد . وحياتي تقعد ... ما هذا ؟ لا تأخذي منه متايكا ، يا ست وردة ، الحساب كله علي ، أسمعت ؟

وكان الرجل قد اخرج من جيبه حفنة بشالك وترك منها على الطاولة بشلكا فقالت وردة ان له بذمتها من المجيدي بشلكا فعليها اذن ان تعطيه ما له لا ان يزيدها ، ولكنه ابى ان يقاضيها حقه ، ونظر فاذا الصبي يشق الباب في الحائط ويتلصص من خصاصه ، فمد اليه بالبشلك :

ـــ خذه ، تشتري به حلوى .

وقام ، فتبعته:

ـــ لا تؤاخذني . لا تؤاخذني . (وخفضت صوتها) تأتينا المرة الثانية في السهرة ان شاء الله . فتكون بنتنا هنا . . اعني ليست بنتي بل بنت زوجي . هل تعدني ؟ ما الاسم الكريم ؟

ـــ خليل المعلا .

ـــ تشرفنا . تشرفنا ... ولا يكون هذا السكران هنا . لقد ازعجك كثيراً .

ـــ بالعكس ، الا اذا كان ازعجك انت . هٔ هٔ هٔ .

وضحك خليل المعلا ضحكته الاولى في ساقية المسك ، وضرب عقب مظلته في الارض .

٣

ركض طام الى جده فضم يديه وراء ظهره ورفع انفه :

ــ احزر يا جدي .

ــ كلتــان .

ــ ما حزرت .

ــ اربع كلل !

فشال الصبي بحاجبيه ، فعبس الشيخ وتناول عصاه :

ــ ها ها ! حزرت . برتقالة اخرى سرقتها من عند امك !

ــ لاُ . لاُ . انظر يا جدي .

ــ هوه هوه ! من اين لك هذا ؟

ــ اعطني اجتي ، وتعال نحسب ، كم متليكا في البشلك ؟

ــ هل نسيت ؟

ــ عندي في الاجتة واحد وعشرون متليكا .

ــ الخواجه أعطاك البشلك ؟

ــ اي ، اي . واذا رجع غداً واعطاني بشلكا ايضاً ، فكم يصير معي ؟

ــ ...

ــ كم يصير معي يا جدي ؟

ــ كثير ، كثير !

ـ يعني كم متليكا ؟

ـ ماذا اعلمك انا طول النهار ؟

ـ تعلمني الحساب .

ـ احسب لارى .

ـ جدي، جدي ! اريد ان اصرف البشلك بمتاليك . البشلك لا ينزل في الاجّة ها ! ها ! لا ينزل فيها .

وكان الصغير قد تناول حقه الفخاري يعالج باهتمام دس القطعة في شقه فما يفلح .

ـ جدي ، جدي ! اشتر لي غداً اجة كبيرة ، كبيرة ! (وكبر عينيه) تدخل فيها البشالك . وسأقول لراسم بك ان يعطيني بشلكا .

ـ لا ، لا تقل له .

ـ ساقول للخواجه سامي .

ـ كم مرة أوصيتك لا تقل الخواجه سامي .

ـ قلتها بيني وبينك . ولكن لماذا صار اسمه الاخ حنانيا ؟

ـ هذا لا يعنيك .

ـ انت يا جدي ، ماذا كان اسمك قبل ان تكون جدي ؟

ـ ابو سعيد . الا تعرف ؟ انا اسمي جدو وابو سعيد .

ـ وانا ، لماذا ليس لي الا اسم واحد ؟

ـ انت ؟ . . . لانك صغير .

فلم يفهم طام كثيراً . فبلع بريقه وعاد يحاول ادخال البشلك في

الاجة .

ـــ وانت، الا تعطيني بشلكا يا جدي ؟

ـــ بلى ، بلى ، ساعطيك .

ـــ اعطني .

ـــ ساعطيك في المستقبل يا جدي .

ـــ اعطني الآن !

ـــ الا يكفيك ما معك ؟

ـــ لماذا لا تعطيني انت الا متاليك ؟

ـــ المتليك يا جـدو حـلو ، ابيض ، ويلمع . الا ترى البشلك : اسود ، وسخ !

ـــ ولكنه يساوي عشرة متاليك . اما انت قات لي ؟

ـــ ...

وكان الشيخ يريد ان يجاوب لولا شعوره بان حفيـده افحمه ، فما يدري ما يقول ، فاخذ ينكت النـار بالملقط وعيناه تحـترقان مثل هذه الجمرات الحمر التي ينكشف عنهـا الرماد . وما ادرك الولد شيئاً من مأسـاة جده ، وكل ما فهم انه اغضبـه فهو لا يصرف وجهه عنه مثل هذا الصرف الا لامر . فترك الاجـة والبشلك على البساط ودنا منه فاذا وردة تدخل صائحة :

ـــ طام ! طام !

وتهجم :

— اين البشلك ؟ هاته الى هنا .

— هذا لي ! هذا لي !

وارتمى طام على الحضيض حامياً ثروته الكبيرة بجسمه الصغير . فشرعت امه تشده ليزيح فلم يتحرك ، فضربته فما لان ، فشدته من شعره ، فدس كفه تحت ابطه وضغط القطعة . واقترب ابو سعيد يرد كنته فشتمته ، ويقنع الولد فلم يقتنع . وما زالت ورده بابنها حتى تمكنت من كفه ، ففركت اصابعه واستولت على البشلك ، وتركته فريسة البكاء .

لبث ابو سعيد دقيقة طويلة جامداً يحدق الى الباب الذي دفعته وردة وراءها بغضب ... ثم اقبل على طام يؤاسيه حتى امسك عن جهشته وقال :

— تعطيني في المستقبل بدلا منه ؟

— وعدتك . هل اكذب انا يا جدو ؟

— واحسن منه . بشلك ابيض ، نظيف ، يلمع ... هل يوجد بشالك هكذا ؟

— مؤكد ، مؤكد يا جدو .

ورفع الشيخ حاجبيه الكثيفين ونظر طويلا الى جبين الصغير ... ثم تنهد وقال :

— رح يا ابني تفقد اختك هل وصلت ، و الحقني الى المراح .

ونزل ابوسعيد الى الطبقة السفلى من البيت يضع للبقرة عشاءها .

وبعد قليل جاء طام فاخبره ان زينه لم تصل بعد ، ثم جعل يقص عليه ان جنديين اقبلا وعاونا امه على طرد ابو زيد .

ــ لو تراه يا جدي ، ذهب الى القناة ووقع على وجهه . طوب !

وضحك طام من كل قلبه .

*

كان الجنديان طليعة السمار . ثم توافد بعدهما زبائن كل ليلة . فحفل جو الحانوت بالقلابق ودخان السيكارات وخليط الفكات والعربدات تركية وعربية ، ووردة تبسم لهذا ، وتجيب ذاك ، وتلبي طلب الآخر ، لا تكل لها يد ولا يمل لسان . واذا تصدى لها ساذج منهم بكلمة تركية ساخرة فليس اسرع منها الى الرد ، على دهشة البعض وقهقهة الاخرين ، لان وردة قد ضربت من لغة السلطان بسهم تفخر به ، الى فخرها بالانكليزية التي لا يفهمها العسكر ولا يستطيعون ــ ويا للاسف ! ــ ان يقدروا براعتها فيها .

ولكن جهود المرأة لتسلية الجماعة ذهبت سدى . فقد مضت ساعة ثم ساعة ، وبات الانتظار ثقيلاً جداً . وكان أشدهم تذمراً جندي يدخل الدكان لاول مرة ، لم يرض ان يأكل مجدرة وردة وبصلاتها العفنة الا طمعاً بما مناه به رفاقه من لقاء فتاة سمراء ، مربوعة القامة ، مفتولة الاعصاب لها عينان تذبحان ذبحاً ، وفم كالفستقة .

ــ يا وردة ، اين زينه ؟

ـــ بالقبر ان شاء الله !

ـــ حرام عليك .

ـــ سأريها حينما تصل الى هنا ؟ الا تقع بين يدي ؟

ورفعت قبضتها في الهواء صوب الطريق ، ثم اطلت من الباب ، فضاق ذرع صاحبنا الجديد فخرج ، ولم ينفع في استبقائه رجاء وردة ولا دلالها ، وخرج بعده آخرون ، وبعدهم آخرون . ولم يلبث ان استوحش احد الخمسة الباقين ، وكان منتحياً زاوية ، فخرج ايضاً . وما ادار ظهره حتى تنفس الاربعة الصعداء ، وهتفوا بوردة ان تعجل بتلبيتهم . فنظرت يميناً ثم نظرت شمالا ثم اعادت الكرة ، فرأت شبحاً على رأسه مظلة ، ورأته يدير ظهره ، فخيل اليها انها تعرف هذا الشخص ، ولكنه لا يمكن ان يكون خليل المعلا ، لانه ذهب من الجهة الاخرى . ولم تشأ ان تشغل فكرها به طويلا ، وكان الزبائن ينادونها بفروغ صبر ، فاغلقت الباب برفق وحيلة ، ولم تنس ان توجه الى ابو زيد شتيمة كبرى لسكره وتخليه عن وظيفته هذه الليلة .

واستوى الاربعة على مائدة العرق والقمار .

٤

لم تكن وردة كسار في ماضيها صاحبة حانوت ، ولم يكن من تقاليد اهل ساقية المسك ان تفتح النساء الدكاكين ويتعاطين

البيع والشراء .

كانت ساقية المسك تعيش ، قبل الحرب الكبرى ، على مواردها المحلية من زراعة الكرمة وتربية دود الحرير ، عيشة متواضعة كسائر قرى الجبل اللبناني ، وفي فترة من الزمان على حياكة الديما التي اكسبتها شهرة امتدت حتى البلقان واطراف اوربا . وشأن ساقية المسك في ذلك شأن جارتيها بحرصاف وبكفيا ، وهي وسط بين الاولى والثانية ، تنخفض الارض بها على سفح يظل ينحدر ببيوتها حتى الوادي حيث يهجع طاحونها القديم هجوعه الابدي ، وينتثر ذنبها بدير تاريخي وبضعة اكواخ للفلاحين .

على ان مورد ساقية المسك الاعظم كان من مهاجري ابنائها الى اميركا . فقلما يخلو بيت فيها من اب او اخ او عم او خال نزح عن الديار وركب البحار وراء الرزق ، ببقى على بعد الشقة براً باهله ، وفياً لقريته .

وبيت كسار لا يشذ عن القاعدة ، بل هو نموذج حي لكثير من بيوت القرية . حجارته واقسامه وسطحه صفحات مفتوحة للناظر يقرأ فيها تاريخه وتاريخ العائلة وتاريخ ساقية المسك كلها .

رأى الجد النور في المراح الذي تحتله البقرة اليوم . وكان هذا المراح في زمانه موضع فخر . يقال « حارة بعمودين » وكفى ! يشغل اصحابه قسما منه لقعودهم ومنامهم ، والقسم الثاني لاطباق القز ، والثالث للبقر والخروف والدجاج . لا يفصل بين هذه الاقسام الا

العمودان الثخينان اللذان سلخت السنون طينهما على الاهمال ، فهما اليوم عظمان مجردان كالحسان ، وخربت الايام الرفوف فيها وذهبت باوتاد المناجل والفؤوس ، وافسدت الرطوبة ، شتاء بعد شتاء ، دهان الحيطان ، فغيبت اثار الدخان على الحائط الشمالي ، وضاع في الذكريات مكان الموقد ومتكأ كل مساء .

وتزوج الشيخ ، اذ تزوج ، في هذه الحارة ، ورزق فيها ابنه سعيد . وكبر سعيد بين البقر والكرم والحقل ، وتزوج بدوره ورزق زينة . حتى كان ذات يوم التقى بعض رفاقه في روعه السفر الى اميركا ، فابى عليه والده بادىء ذي بدء لانه كان وحيده ، فاصر فنزل على رغبته ، فغادر ساقية المسك مخلفاً زوجته زاهية بعد سنتين لزواجه ، وبنته زينة وهي تحبو من العتبة الى التوتة ومن التوتة الى العتبة . وماتت زاهية في غيابه فكتب له ابوه انها اصيبت بحمى خبيثة ولكنه علم فيما بعد انها وقعت عن صنوبرة وهي تقطف رؤوسها ، مع انه اوصاها قبل ان يضع رجله في السفر وفي رسائله من اميركا « لا تتسلقي صنوبرة ابداً ! » .

وكان يحب زاهية لوداعتها ونظافتها ورعايتها لابيه . فبكاها بين انواب الجوخ في المعمل الذي كان ملتحقاً به في نيويورك ، وعلى مخدته في منزله الحقير من حي اولاد العرب ، وقص اخبار فضائلها على جيرانه وجاراته ، فاستمع الرجال وترحموا ، واستمعت النساء فتشاورن في عروس له ... فتزوج للمرة الثانية من وردة ، ووردة

16/

ابنه مهاجر من ساقية المسك نفسها ، مضى عليه دهر في اميركا دون ان يرسل الى اهله المتخلفين درهما او يكتب كلمة، فلما ضاقت الزوجة به ذرعا الحقته بابنته عساها تعيده او تحمله على الاقل على التفكير بها وببناته الثلاث .

وافته وردة فوجدته منصرفا لملذاته الرخيصة من اكل وسكر وكسل ، فبقيت الى جانبه . ولو ارادت الرجوع لما استطاعت لعجزه عن دفع اجرة السفر . واخذت تشاطره حياته الشقية وتقاسي منه السب والضرب والعذاب الوانا . وانكمشت في عزلتها مدة ، ثم دخلت المعمل حيث تعرفت الى سعيد وسواه من الشبان ، وانبسطت لها حرية المعاشرة في نيويورك بعد سجن الحفر في وطنها الاول ، فاكتسبت مرحا في مزاجها لا تعرفه القرويات ، وجرأة في الحديث ينكرنها ، وغرورا كثيراً .

وقد رغب سعيد فيها انها تشتغل ، فلا بد ان لديها مالا ، وكان ابوه يلح عليه بالعودة ، فليعد اذن بما جمعته هي من الريالات الى ما جمعه هو . وتم الامر على هذه النية . ولم يجرؤ سعيد على اخبار ابيه به ، حتى اذا وصل الى ساقية المسك وصل بامرأة جديدة وطفل له على صدرها اعظم ما غاظ الشيخ منها ومنه تسميتها اياه باسم ناظر المعمل الذي مكث فيه سنتين متواليتين ، اسم غريب لم تعرفه العيلة قط ولا يتبرك بشفيع من القديسين ابداً .

حينذاك بنى سعيد الطبقة الثانية من البيت على هندسة وردة

وبماله وحده ، لان وردة اعطت امها ما جمعتـه في اميركا ، وسقفه بالقرميد وحمل اباه على بيع البقرات والاشتغال بالديما ، فانتقل بيت كسار بذلك الى الدور الثـاني من تاريخه مرتقيـاً الى صف البيوت المرموقة في ساقية المسك . على ان ابو سعيد عز عليه الانفصال عن بقراته كلهـا ، فاحتفظ بواحدة ، الصبحا من نسلهـا الطيب ، وقسم الحارة قسمين : الاول لهـا وللقز ، والثانية له ولامرأته ولاجران الصباغ ، وجعلت وردة غرفة من الطبقة الجديدة للانوال ، وغرفة لها ولزوجها وولدها ، وفرشت الثالثة صالوناً ، وبقيت زينة مع جديها في المراح .

كان هـذا العهد عهد الرخاء المـادي والاتصال ببيروت . تعرف سعيد الى تاجر الديما وديع عاصم ، واستمر ثلاث سنين ونيفاً يركب العربة فجر كل احد ناقلا اليه منتجات الاسبوع ، ويصعد كل اثنين بكمر عامر بالمجيـديات ، ويصعد معه في بعض ايام الصيف الخواجه سامي نجـل التاجر فينزله في خيمة الكرم ، يبقى فيها نهاره وليله ، وتقوم زينة على حاجته حاملة اليه مأكله ومشربه كل صباح .

ولكن ذلك العهد كان ايضاً عهد الشقاء والنكبات . فقد ماتت فيه ام سعيد من كيد كنتها الجديدة ، وتبعها سعيد على الاثر بمرض عز دواؤه حتى على الطبيب الذي اوفـده وديع عاصم من بيروت ، فكان حزن الشيخ على امرأته وولده عظيما وضاعفته النفرة بينه وبين وردة ، ولولا حبه لحفيـده وعطفه عليه لانقصف عمره كشجرة

تحت العاصفة .

ثم كان ان نشبت الحـرب ، فانقطعت النساء والصبايا في ساقية المسك عن اغاني كن يوقعنها على طقطقة المكوك ذاهباً آيباً ، وعلى دوران دولاب اعرج بقطع الخيط بين الدقيقة واختها . ونفض ابو سعيد يده من الديما ، وانزلت وردة الانوال الى المراح بنخرها السوس وتنسج عليها العنكبوت ، وجثمت الاجران في مطارحها يأسن فيها الماء ويثقلها يأس البطالة .

واستقبل البيت دوره الثالث : فتحت وردة حانوتاً ! اختارت الصالون لبابه المواجه الطريق وجعلت منه دكاناً بمطعم بحانة بمقمرة بكل شيء : اربع طاولات غليظة عرجاء ، وبضعة كراسي من كل شكل ولون ، ودكة من خشب لها من الوراء ستارة تخبيء العرق واقداحه ، ومن الامام رفوف عليها صحون واصناف من المملحات والكبوسات والمخللات في اوعية زجاجية بعضها مكسور تلحمه بورقة والبعض مفقود غطاؤه فتسده بخرقة ... وصناديق محطمة ، واكياس هزيلة ، واطباق فوق اطباق تحتوي من الاشياء ما لا عد له ولا وصف .

وازدهرت تجارة وردة بفضل العسكر التركي الذي احتل المنطقة منذ اوائل الحرب ، فاصبحت في يسير من الوقت محط انظارهم وامسى حانوتها مجمع ضباطهم وملتقى الباذخين منهم . ولو جارتها زينة فيما تشاء لكانت الآن من الاغنياء ولاستطاعت ان تسترهن

البيوت والارزاق كما يفعل ابراهيم بك فاخر في بكفيا ، ولتضاعف لله حمدها من اجل هذه الحرب يشقى بها الناس وتسعد ، ويهلكون وتحيا ... ولكن زينة فتاة حرون تتقذر وتتكبر ، وكان ينقصها — على تعبير خالتها — ان يأتي سامي عاصم الى ساقية المسك ، ولا ديما ولا من يحزنون ، وان تسعى وراءه وتحبه ، كأن المجال ينفسح للعشق والغرام !

غير ان المخلوق الذي يغلب وردة لم يلده بطن بعد ! لذلك وضعت وأسها لرأس زينة تعالجها بالمكر حيناً ، وترهقها بالعمل احياناً . وها هي منذ اول الموسم تحملها سلة كبيرة وتجبرها على النزول كل صباح الى الساحل والصعود بها في المساء مملوءة خضاراً ، مسافة خمسة عشر كيلومتراً وخمسة عشر ... ثلاثين كل يوم تحت الشمس والمطر ، حافية ، نصف عارية ، والزاد فتات المعجن ، والكلمة الحلوة : اللعنة والدعوة بالموت .

٥

وصلت زينة متأخرة جداً تلك الليلة . كانت تعلم ما يجري في الدكان في مثل هذه الساعة ، فلم تشأ ان تدخل منه . ودارت حول البيت الى درج يرتقي من جانب المراح الى السطيحة الغربية . ولما أطلت على الزاوية لمحت شعاعا يشق باب المراح فعلمت ان جدها عند

الصبحا . فخالجها ، لوقوعها عليه سهران ، سرور كبير . فقد كانت محتاجة الى الافضاء اليه بشيء لو حبست عليه الى الصباح لما استطاعت الى الرقاد سبيلا .

وكأن الصبحا استروحت بانسان يقبل ، فارسلت خواراً ومالت بعنقها ، فلمعت عيناها . ومال الشيخ هو الاخر مقدما السراج ليرى من القادم .

ــ سعيدة يا جدي .

ــ قلقت عليك يا بنتي . ساوقد لك النار حالا لتتدفئي وتنشفي ثيابك . حطي عنك ، حطي عنك !

ووضع السراج على حافة المعلف وحط عنها السلة . كانت في ثيابها المبلولة كالدجاجة الطالعة من حوض القيت فيها . الا ان خديها المدورين كانا ينبضان بدم حار فيخلعان على سمرتها جاذبية نادرة ، وعلى فتوتها جمالا فوق جمال النساء وفوق النساء .

واخرجت البقرة لسانها صوب زينة ، وكررت خوارها موجهاً هذه المرة ، فمسح ابو سعيد على ظهرها وهز رأسه مكتئباً :

ــ انت ايضاً يا صبحا تجوعين !

ــ جدي ، جدي !

ــ احمل عنك السلة وتأخذين ممك حطبتين (وخفض صوته) هل كنت عنده طول هذا الوقت ؟ (واختلج شارباه واردف عند الاخ حنانيا ؟

ـــ جدي ، سامي يريد ان يروح • جئته اليوم ايضاً بمكتوب احسست منذ تناولته في انطلياس بخفقان في قلبي • قلبي دليلي • قيل لي هذا مكتوب خطير ، وأوصيت بالمحافظة عليه . حياة سامي تتعلق به ، هكذا انذرني من سلمه الي . كنت خائفة طول الطريق ، كلما لمحت مكاريا او عربة تمر ظننت ان السر افتضح وانهم سيهجمون علي ويسلبونني المكتوب . هل تعلم يا جدي اين خبأته ؟ كان في صدري ابرة وخيط ففتقت ثنية فسطاني وحشوتها به ، ورددت الثنية كما كانت . حتى وصلت الى المغارة واعطيته اياه فرأيت على وجهه وهو يقرأه اهتماما ، ورأيت ذقنه ترقص . سألته ان يأذن لي بقراءته فرفض ، فمددت يدي لاختطفه فعبس • فقلت له : اذن تفهمني ما فيه • فلم يسمع وقال : ماذا عمل جدك مع كامل افندي ! اذهبي حالا وقولي له « سامي في حاجة قصوى الى ما اوصاك به » • الح علي كثيراً ، قال « لا يخف جدك من كامل افندي ، يجب ان يفاتحه بالامر » وامسكني بيده يدفعني الى الخروج • فامتنعت الا ان يطلعني على ما في الرسالة . وحينئذ قبل ان يقرأ لي شيئاً ، فوضع كفه على قسم منها وسمح لي بقراءة القسم الآخر • لقد قبضوا على ثلاثة من رفاقه يا جدي ، وساقوهم الى الديوان العرفي في عاليه . قرأت اسماءهم ولكنني لم احفظ منها اسماً . كنت افكر فيه هو ، وكل ما حفظته ان صديقه يخشى عليه ان يفشي احد المقبوض عليهم سره تحت الضغط ، ويدل الاتراك على مخبأه في ساقية المسك ... جدي ، جدي ،

أصحيح ما يقول لي سامي ؟

ـــ عن اي شيء ؟

ـــ خوفني كثيراً . انا وحدي خفت . اما هو فكأنه لا يبالي. لا اقدر ان اسمع هذه الكلمة « الديوان العرفي » الا ويقشعر بدني.

ـــ لا تخافي يا بنتي ، لن يطالوه .

قالها بقوة المؤمن فسرى الايمان اليها .

ـــ من يظنه في تلك المغارة المهجورة ! أليس كذلك ؟

ـــ . . .

ـــ قال لي انه يريد ان يذهب الى كسروان ويحتمي بدير فيها . ألا تعرف ديراً اقرب يا جدي ؟

ولكن ابو سعيد كان مستغرقا في التفكير .

ـــ قل ، ألا تعرف ديراً اقرب ؟

فلم يشأ مضاعفة قلقها فداعبها :

ـــ ألا تخافين ان يترهب فعلا ؟

وابتسم كالعابس ، فقالت :

ـــ دعني انا اكاشف كامل افندي بالامر . سامي لا يغادر ساقية المسك قبل ان يعرف نتيجة المسعى معه . وكان يقول لي « يجب ان اراه انا . يجب ! يجب ! » ويشد .

ـــ لا انت ولا هو .

ـــ كامل افندي رجل طيب يا جدي .

ــ اجـل طيب . وهـو عربي . ولكنني اخاف ثوبه . امـا هو عسكري ؟ العسكري لا يؤمن يا ابنتي .

ــ هل سمعته يسب الاتراك ؟ يسبهم ويسب راسم بك والدولة .

ــ سمعته . له كلمات يخيل الي وانا اسمعها منه انني اسمع سامي . كنت اود لو يسمعها سامي باذنيه ... ترى لماذا لم يأت اليوم مع انه معتاد ان يجيء كل يوم فيغافل رفاقه ويدخل ويقص علي نكاته . سأكلمه غداً ، سأكلمه !

ــ خلني احضر الحديث يا جدي .

ــ اطلعي نامي .

٦

افاق ابو زيد وفي رأسه خمار داو . وكانت الشمس قد تكبدت السماء ، فتدحرج على الدرج ولف زناره في الطريق ودلف صوب دكان وردة غاضباً نافخاً بين شاربيه ، وطرفا قمبازه يضربان على ساقيه . فقد ضاع عليه رغيف الصباح ولن ترضى وردة ــ هو يعرفها ــ ان تضيف الى الغداء ما فاته من الفطور ... فلا بد اذن من رثاء رغيف !

ولم يمش في النـور غير قليـل حتى تفتحت مغالق مخه ، فتذكر انه لم يقم بوظيفته الليلة البارحة ، فبدأ خفق قمبازه رويداً رويداً ،

ووقف يفتل شاربيه . ثم انفرجت اساريره وتغضنت على الأثر . اي شيء قاله البارحة لصاحب النظارتين والبنطلون الافرنجي ؟ وهم ابو زيد بالبكاء ، فطلع البكاء ضحكا على وجهه يعزي به نفسه ويشجعها، وانفلتت يداه في الفضاء خطيباً ، واشتد وقع خطواته وتوازن ... ثم وقف ثانية لا يدري من اي جهة يمشي ، يدور يميناً ثم يدور شمالا ... ثم رأى خليل العلا صاحبه امس مقبلا نحوه فخفق قلبه — لماذا ؟ لا يدري — وكان لا بد ان يختار جهة سير فادار له ظهره. ولكن الآخر ادركه وقال :

— حظي كبير يا ابو زيد.

— العفو ، العفو !

— الى اين تذهب ؟

— انا مشغول . مشغول جداً عند الست وردة .

— وانا قاصد اليها .

— اليها !؟ ... لا لا . اريد ان اقول ان علي موعداً مع صديق لي بالقرب من دكانها .

— اذن ارافقك ... كنت افتش عمن اتناول غدائي معه ، وبظهر ...

— صحيح ؟

وجد ابو زيد مرتبكا . كان يريد في الحقيقة الهرب من وردة وخليل العلا معاً. فوردة ستستقبله بالعياط لحادثة امس ، وهذا الغريب

يريد ان يجره اليها ، ولكن الغداء مغر ، فما العمل ؟ واخيراً فتقت له الحيلة فقال :

ــ اذا كان لا بد فانا ادلك على دكان احسن من دكان وردة .

ــ كنت اعتقد ان وردة هي احسن امرأة عندكم وان دكانها احسن دكان !

بعد دقيقتين كان الاثنان متكئين الى قدحي عرق في حانوت منعزل . وكان ابو زيد صامتاً لا تطلع الكلمة من شفتيه . ينازعه امران هامان جداً يحار باي واحد يفكر ، فيابيان الا ان يزحم الاول الثاني ثم يزحم الثاني الاول بسرعة عجيبة ، وهو بينهما يصغي ولا يسمع وينظر فلا يرى ، ويريد التملص من هذه الورطة فلا يستطيع ، كالكرة بين لاعبين لا يدعان لها مستقراً ولا هي تتنفس فتستريح !

ــ اراك يا ابو زيد ضجراً . هل لك في دق ورق ؟

جاء الانقاذ باعجوبة ! فقد كان ابو زيد في الواقع متهاديا بين هذين : اللعب وحديث البارحة . وما كاد خليل الملا يعرض عليه اللعب حتى قال في نفسه انه لو استمر في مصارعته للامرين لانتهى حتما الى هذا ! لان خليل رجل غريب ما همه من السر ، ولا شك انه عدها ثرثرة سكران لا يعي ما يقول . وآية ذلك انه لم يذكر له عن السر كثيراً ولا قليلا ، وما يبدو على وجهه سؤال من هذا الباب البتة . فالى اللعب اذن . وتراقصت عيناه طربا وطمعاً . اجل

لان ابو زيد يزعم انه خبير من امسك ورقا وان له في اللعب براعات تخفى على امهر اللاعبين ، تعتقد وردة انها تفهمها كلها فيستهزىء بها بينه وبين نفسه ، فهو لا يطلعها الا على الساذج منها كجرح الورقة بالظفر، والغش بجمع النقاط وما الى ذلك. بقيت هنالك الخفة في التوزيع من تحت او من فوق عند الحاجة ، وسرعة الرمي على الركبة ، والخطف عند الفرصة ، والمغاضبة لتشويش المائدة ، والملاطفة في اوقاتها ، مع ضروب من رشاقات اليد، وزلاقات اللسان، واختلاف الطبع كان ابو زيد سيدها وضابط اسرارها .

— على بشلك .

— هذا كثير يا ابو زيد . الدقان ببشلك . لا تنس ان القصد ان نسليك .

ومضيا في اللعب . ربح ابو زيد الدق الاول ، فالثاني ، فتناول خليل بشلكا ودفعه اليه فتمانع ابو زيد — وهي من اصول اللعب ايضاً — فقال الآخر :

— هذا حقك . كانك ورثت من ابيك . الآن الدق الواحد ببشلك .

— كما تريد .

— على سيرة الارث لقد مات لي عم غني كنت عنده بمنزلة الولد وكنت انا احبه كثيراً ...

— مسكين !

ـــ قلت لك انه كان غنياً ؟

ـــ آه ! الله يرحمه .

ـــ الم تفهم ؟

ففتح ابو زيد فمه ، فاطلقها خليل المعلا ضحكة من ضحكاته :

ـــ هٔ . هٔ .

ـــ قه قه قه قه .

وربح ابو زيد فقال خليل :

ـــ ببشلكين .

ـــ امرك .

فربح ابو زيد البشلكين فصار امامه اربعة ، وحان الوقت أن يفتل شاربيه .

ـــ بالاربعة !

فاراد ابو زيد ان يجيبه « بل بثلاثة » ليبقى البشلك الرابع رأسماله اذا خسر ولكنه كان واثقاً من الغلبة ، كان واثقاً بها منذ رأى خليل المعلا يفت الورق . فابن المهنة يفهم لعب اللاعب من فته . وصدق فأله فظفر هذه المرة ايضاً ووضع اربعة بشالك في جيبه وطلب من الحانوتي كاساً اخرى ولماظة جيدة ، وغضب عليه ـ اصول اللعب كذلك !

ثم اعتدل في جلسته فقال خليل :

ـــ أنزيد .

ـــ خلنا على الاربعة .

ـــ الدق بخمسة بشالك .

ـــ بخمسة .

وربح ابو زيد ، فصفق وطلب لخصمه ـ اداب اللعب لا اصوله ـ كاساً على حسابه هو . ولم يرفض خليل التقدمة ولكنه سوى نظارتيه ولمعت عيناه لمعاناً لم يخف على ابو زيد . ورفع خليل قدحه وشرب نخب صاحبه . ثم استؤنف اللعب وظل ابو زيد يربح ، يربح ، يربح حتى تكدست البشالك امامه وعمرت بها جيوبه ، واطلت المجيديات من ذلك الكيس الذي لا يعرف الفراغ .

ـــ الدق بمجيدي !

وكرت الخسارة على ابو زيد كراً . فجعل يتململ على كرسيه حيناً ، وينتف شاربيه حيناً ، ويستنجد ببراعاته واحابيله ، ويصلي لسيدة المعونات التي يؤمن بها كثيراً ، ويكفر ليعود الى الاستغفار والصلاة ... ولكن عبثاً ! حتى اذا استرد خليل خسارته كلها انطلق في ضحكته :

ـــ هٔ هٔ هٔ .

فصر ابو زيد باسنانه وقال :

ـــ مالك ؟ نحن صلح الآن . العب .

ـــ هٔ هٔ .

وقطع خليل المملاها هاته وتهيأ للقيام . فحار ابو زيد بين الابتسام والعبوس ، وخانته اصول المناضبة في اوقاتها والملاطفة في

اوقاتها . واستوت على وجهه فضائح قهره وصاح :

ــ لا ادعك تخرج !

فعاد خليل كالمتذكر :

ــ صحيح . كدت انسى انني دعوتك الى الغداء .

ــ لا احس بالجوع .

ــ مع ان الجوع كافر . . . خذها مني نصيحة يا ابو زيد : البطن قبل كل شيء .

ورأى ابو زيد ان الواجب هنا ان يبتسم ، ففعل وقال :

ــ اللعب بنسي الجوع وخصوصاً مع لطيف مثلك .

ــ ايهما افظع : الموت جوعا ام على المشنقة ؟

ــ ها ها !

ــ اسألك رأيك بكل جد : ماذا تفضل ؟

ــ انا ؟.. تعني ... المشنقة شيء فظيع (واردف حالا) والجوع ايضاً شيء فظيع .

ــ انت ليس لك رأي . كنت احب ان اعرف رأي وردة كسار .

ــ لماذا ؟

ــ وردة سيأخذونها الى المشنقة !

ــ ما تقول ؟ وردة ؟ !

ــ ويخربون بيتها الى الابد .

ــ هل انت مجنون ؟

ـــ وانت ايضاً ...

ـــ انا ؟ !

ـــ العفو ، لا اريد ان اقول انك انت مجنـون . بل انت ايضاً سيأخذونك الى الديوان العرفي في عاليه ... الا ...

ورفع خليل اصبعه في الهواء .

ـــ عاليه ؟

ـــ ... الا ... دعني اكمل ... الا اذا اردت ان لا تذهب. فبعث ابو زيد حيا .

ـــ اقول لك الحقيقـة انا لا احب المـزاح . غلبتني وتريـد ان تمازحني فامزح على غير هذا الشكل .

ـــ وانا لا احب المزاح . عجيب توافق الطبع بيننا !

ـــ انا ذاهب .

ـــ اقعد .

ـــ اتركني .

ـــ اقعد ، انا وحدي اخلصك من المشنقة .

ـــ لماذا تنظر الي هكذا (واصطكت ركبتا ابو زيد) لا شك انك غلطان . انا ابو زيد ...

ـــ ... بن طنوس المكاري مطلوب الى الديوان العرفي . اتدري بماذا تتخلص منه ؟

وكان خليل المعلا يهم ان يدعوه مرة اخرى الى القعود ولكنه

وقع من نفسه قاعداً .

ـ تتخلص من المشنقة بكلمة .

ـ بكلمة ! عن اي شيء ؟

ـ لا تتغافل . هل نسيت الليلة البارحة ؟

ـ ماذا جرى البارحة ؟ شربنا عرقا وصرنا صديقين . اهكذا يصنع الصديق بصديقه ؟ (واغرورقت عينا ابو زيد .)

ـ لقد هددت وردة كسار مراراً بفضح السر ، وقلت انك ستطلع على السطح وتنادي به . انا اكلفك اقل من هذا : توشوشه في اذني .

ـ انا ليس عندي اسرار .

ـ كنت عازما على افشائه من اجل كاس عرق .

ـ انا !

ـ عليك الان ان تفشيه من اجل حياتك !

ـ وباي صفة تكلمني انت هكذا ؟ انا ذاهب .

ـ اقعد .

ـ اتركني ، اتركني !

ونهض فتعلق خليل الملا بقمبازه يشد به فاخذ ابو زيد يصيح ، فوثب الحانوتي يفرق بينهما . وتحول الدكان الى ساحة عراك وقعت فيها الصحون والكؤوس اشلاء ، وانقلبت الكراسي والطاولات ، وخليل ممسك بطرف القمباز لا يفلته ، وابو زيد يحل ازراره طاقة طاقة

ثم خلع القمباز دفعة واحدة وتركه في يد خصمه ، واطلق ساقيه للريح .

٧

لم يحاول خليل المعلا اللحاق بابو زيد ، لكنه اكتفى بالضحك ونقد الحانوتي ثمن اقداح العرق ، وبدل ما تحطم في المعركة ، المجموع ثلاثة بشالك واربعة متاليك . ونفض مظلته وخرج قاصداً الى دكان وردة كسار ، فالتقى بطام فانكمش حائداً ، وتركه يمر دون ان يراه ... حتى اذا ابتعد عن السوق والناس تبعه وهتف :

ــ طام !

ــ اوه ! هذا انت ؟ بغتني .

ــ هه ! اردت ان اسلم عليك . انت ذاهب الى الدكان ؟

ــ لا . الا تعرف الدكان اين ؟

ــ اليس من هنا ؟

ــ بل من هنا (واشار طام بالعكس) انا ذاهب عند راسم بك .

ــ راسم بك ! الضابط راسم بك ! الا تخاف من جزمته التي تطقطق ؟

ــ انا اخاف ! اذهب عنده كل يوم ، امسح بكفي على خديه واقول له « ابانا الذي في السموات » كل مرة اقولها بحفنة زبيب

وجوزتين .

ــ انت اذاً صديق الضابط ؟

ــ معلوم . وراسم بك يعلمني العسكرية .

ــ العسكرية ؟ ستكون ضابطاً عظيماً عندما تكبر ! هل تعرف الحركات كلها ؟

ــ اعرف كل شيء . سلني .

فضم خليل العلا مظلته الى جنبه وضرب قدما بقدم :

ــ حا . . . ظ ، دور !

فانتصب طام يحيي بكفه كالجندي التركي . فاقترب وربت على كتفه :

ــ ماذا يعطيك راسم بك ايضاً ؟ الم يعطيك بشلكا ؟

فرفع الصبي ذقنه سلباً .

ــ ولا مرة ؟ ولا مرة ؟!

ــ انت وحدك اعطيتني بشلكا .

واحمر طام حتى اطراف اذنيه .

ــ هل انفقته ؟

ــ لا .

ــ طافاك ! اين هو ؟

ــ عندي ، عندي .

ــ ارني اياه .

ـــ اعني في البيت ، لا احمله في جيبي .

ـــ اخذه منك جدك ؟

ـــ لأ . جدي لا يأخذ مني . جدي يعطيني دائماً .

ـــ بشالك ؟

ـــ لأ . متاليك . وعد بانه سيعطيني في المستقبل بشلكا احسن منه .

ـــ احسن منه ؟ هه هه . خذ هذا احسن منه يا طام .

ـــ لأ لأ . جدي عنده احسن .

ـــ احسن من هذا ؟

ـــ احسن .

ـــ ومن هذا ، ومن هذا ، ومن هذا ؟ اختر البشالك الذي تريد .

وكان خليل الملا قد اخرج حفنة من البشالك ، فمد الصبي انفه اليها كمنقار العصفور ، ثم رفعه وسأل :

ـــ اما عندك بشلك ابيض ، نظيف ، ويلمع ؟

ـــ هه هه . فهمت . هذا . (وسحب من جيبه قطعة اخرى .)

ـــ هذا ريال مجيدي ، لا بشلك .

ـــ ايعتقد جدك ان في الدنيا انظف من هذا ؟

ـــ جدي لا يكذب ابداً .

ـــ صحيح ؟

ـــ معلوم صحيح .

ـــ خذ .

ـ المجيدي !

ـ لا تخبر احداً به .

ـ لاْ . لن اخبر امي (وتناوله) .

ـ ولا جدك ولا اخاك ولا الخواجه سامي .

ـ الخواجه سامي لا يأخذ مني ، هو مثل جدي يعطيني .

فارتعش بدن خليل المملا .

ـ ماذا اعطاك آخر مرة ؟

ـ اعطاني بشلكا .

ـ الم يعطك مجيديا ؟

ـ لاْ .

ـ لو تعرف كم انا مشتاق اليـه ! صديـق منـذ كـنا صغيرين . متى اعطاك البشلك ؟

ـ منذ تشاجر جدي وامي فزعقت « لا اريد ان يدعس الاخ حنانيا بيتي ! »

فارتعش بدن خليل المملا مرة ثانية .

ـ أترافقني لنراه معاً ؟

ـ اريد ان اذهب عند راسم بك ، راسم بك ينتظرني .

ـ دلني عليه واذهب .

ـ اتركني ، اتركني .

ـ في اي دير هو الخواجه سامي ؟

ـــ من قال لك الخواجه سامي؟ انا لم اقل لك . انا لم اقل لك .

ورفع الصغير ذقنه متحديا . ولكن شفتيه كانتا تختلجان بشدة فلم يلبث ان حول وجهه .

ـــ زعلت مني يا طام ؟

ـــ اتركني ، اتركني .

ـــ طام ، طام ... طام؟!

وكان الولد قد تابع طريقه . وفيما خليل المعلا يحاول ان يلحق به اذا بطام ينقلب على عقبيه ويدفع الريال اليه .

ـــ خذ .

فضرب خليل بيده فكان طام اسرع منه . القى المجيدي على الارض وركض راجعاً الى البيت . ودخل تواً الى الغرفة التي ينام فيها واغلق الباب ودس جسمه الصغير في الفراش وغطى رأسه يبكي . وظل اللحاف يخفق فوق صدره طالعاً نازلا ساعة طويلة .

٨

عند مغيب الشمس ، كانت زينة تضع سلتها في المخبأ الذي تضعها فيه كل مساء حينما تعرج على « مغارة الحورية » لتزور حبيبها . والمغارة على مسيرة نصف ساعة من ساقية المسك ، الى الجهة الغربية لجنوبية ، منقورة في شفير من الصخور ، يحبو اليها الصاعد حبواً ،

متمسكا بالادغال الملتفة على الجانبين ، يرصده الموت على غفلة من يده وزلة من قدمه .

اما لماذ تنسب المغارة الى الخورية فامر لا يعرفه أحد على وجه التحقيق . تحكي عجائز القرية ان الخورية ، جدة الخوري فلان الذي ما يزال حياً يرزق ، كان عندها ضرف فيه شيطان ! وكان اللعين ، اذا نام الخوري ، يجعل الخورية في الضرف ويذهب بها ليلا الى تلك المغارة فتبقى ساعة وتعود . واتفق ان الخوري انتبه من رقاده مرة ، فرأى الباب مفتوحا فقام واغلقه . فلم يغمض اجفانه حتى طرق الباب طرقا منكراً ، فنهض فاذا الضرف ينطح الباب وصوت فيه كصوت الخورية يقول: « يا خوري صلب على وجهك !» فصنع الخوري اشارة الصليب ، فطلعت الخورية من الضرف .

تقول العجائز : ولم تنفع صلوات الخوري ولا نذوره في اخراج ابليس من الضرف ، ولا كان احد يشترية فيبعده عنه . وظل الخبيث يخطف له خوريته ، اذا غط في فراشه ، حتى مات بهذه الحسرة ! فلما اسلم الروح نط الضرف نطة واحدة واختفى خجلا من الملائكة التي هبطت لتحمل روح القديس الى السماء .

وعلى باب مغارة الخورية شجيرة متعرشة يقال لها عند الرعيان « عاشقة » تستند الى قطلبة لها اغصان مفتولة ، ملساء ، حمراء كاذرع الحصادين العارية تحت وهج الشمس .

وحفت الاوراق على كتف زينة ، فعلا من الداخل صوت :

٢١

ــ من ؟

نبرة عريضة مضطربة لم تتعودها . وقبل ان تستطيع جوابا اعيد السؤال قويا ، كوتر كان مرخى فشد :

ــ من هنا ؟

ــ انا . انا زينة !

ودخلت فلم يخرج للقائها ولم يقل لها كلمة ، وسمعت وقع شيء ثقيل وحركة ، فنادت :

ــ سامي ! سامي !

وكان للمغارة سرداب ينحدر من عند فمها ويذهب متعرجا بين حيطان طبيعية محددة الجوانب ، وسقفٌ من الصخور تتمدد هنا ، وتلتقي هناك ، وتندلق في ناحية اخرى . والظلمة في الكهف شديدة في رابعة النهار ، فكيف عند الغروب . لذلك سرت في جسم زينة خشية ، فكررت النداء وفي صوتها استغاثة :

ــ سامي ، اين انت ؟

وانصتت قليلا ، ثم اقتحمت العتمة ، فاذا نور ينداح فجأة في قلب المغارة ، واذا سامي بجبة الاخ حنانيا ، مدبر ، يعالج تركيز السراج في فجوته . ثم اقبل وعلى شفتيه محاولة ابتسام .

ــ سامي ! أدم على وجهك ؟!

وبادرت اليه فردها بكفه ومسح خده .

ــ ليس هنا ، بل الخد اليمين . ماذا اصابك ؟

ـــ لا شيء ... لا شيء ... !

ـــ هل وقعت ؟ ادن لارى .

ـــ قلت لك لا شيء .

وقعد على فراشه المطوي لم يلتفت اليها . كانت عيناه زائغتين ، وخصلة من شعره الطويـل المشعث نازلة على صدغه ، فرفعهـا . ثم نظر الى زينة نظرة مخيفة ، واستوى واقفاً فاخذت بتلابيبه .

ـــ قل لي ما هذا الدم على وجهك ؟

ـــ ...

ـــ هل طلعت اليوم من المغارة ؟

ـــ لا شيء . قلت لك لا شيء !

ـــ كأنها آثار اظافر ... ودم ايضاً على رجلك . انظر .

ـــ رجلي ؟ صحيح ، على رجلي ايضاً .

ـــ اخبرني . أهـذا شيء ايضاً لا يجوز لي ان اعرفه ؟

فلم يسمعها ، بل كان مرهفاً اذنه الى بعيد .

ـــ اقعد ، اقعد . ماذا تريد ؟

ـــ ظننت ، ظننت ... لا شيء ، لا شيء ... ظننت انني اسمـع دعسة .

ـــ هل تنتظر احداً سواي ؟ أ

ـــ ...

ـــ من يعرف هذا المخبأ ؟

28

ـــ لا احد سوانا . لا احد ، أليس كذلك ؟

ـــ يفتشون عليك في البيت دائماً . لقد فتشوا حتى الان ست مرات . لا يريدون ان يقتنعوا انك لست في بيت كساز ! سامي ! سامي !

ـــ . . . .

ـــ الا تصغي الي ، مالك ؟ ارى كل شيء تغير في هذه المغارة .

ـــ ماذا ترين ؟

ـــ كل شيء . كل شيء . ان يدك ترتجف . انظر .

ـــ من البرد .

ـــ ترتجف كثيراً ، كثيراً !

والصقت بصرها بكفه . اما هو فلم يجرؤ على الالتفات الى تلك الكف ، ولكنه شدها الى فخذه جهده ، فلم تزدد الا اضطرابا ، فارادت زينه ان تأخذها بين يديها فاجفل .

ـــ قلت لك اتركيني .

ـــ هل يزعجك وجودي ؟

ـــ بل ابقي هنا . لا اريد ان تذهبي .

وغرق في سكوته . فجعلت تبحث في انحاء الكهف عن اسباب هذه الازمة البادية على جبينه ، وهو يرافق اتجاهات عينيها بزاوية من عينيه ، حتى اذا خطت خطوة وثب واقفاً في وجهها كأنه يحول دونها ودون رؤية شيء .

وغرس الحافظه فيها ثم قال :

ـــ زينة ، هل تحبينني ؟

لم تكن تلك المرة الاولى التي تسمع فيها منه كلمة الحب . ولكنها لا تدري لماذا فعلت فيها هذه المرة ما لم تفعله من قبل . كان يقولها في الماضي مطمئناً قويا ، فارضاً ارادته عليها فرضاً ، اما الان فانه يقولها بانكسار ، كمن يطلب صدقة . فتماوجت في قلبها عواطف كدوائر الماء اذ يلقى فيه بحجر ، ورفعت اليه وجهها وقالت كل ما استطاعت ان تقول :

ـــ لماذا تسألني هذا السؤال ؟

وكان ذهنه قد اجتاز على هذا السؤال الجسر الذي لا بد منه ليصل الى ما يريد ، ففتح ضميره وجعل يقص قصته .

٩

قال :

ـــ يدي ترتجف . أليس كذلك ؟ ولكن الامر اهون مما تظنين ، واهون مما كنت اظن انا . اتفهمين ؟ لم اكن متعوداً ... كنت في حاجة الى بندقية ، فقد فرغ مسدسي ولم يبق فيه الا رصاصة واحدة . من اين اشتري له رصاصاً ؟ وانا لا اقدر ان ابقى بلا سلاح . انت تعرفين ، لا اقدر ان ابقى بلا سلاح . وجدك لم

يكاشف كامل افندي . الحق على جدك ليس الحق علي ... لا .
اريد ان اقول جدك ليس مكلفاً ان يغامر هذه المغامرة . كنت
اخشى عليه من هذا الجاويش . لماذا اوقعه في هذه الورطة ؟ يجب
ان اتدبر امري بيدي . وعنّ لي ان اروح الى بيتكم واقابل كامل
افندي ، وليكن ما يكون . اقول لك كنت على وشك ان اذهب .
كنت ذاهباً . ولكن الله اراد ان يكون ذلك الشي . اتؤمنين
انت بالقضاء والقدر ؟ اما انا فاقول لك اؤمن بالقضاء والقدر ...
كنت هنا ، قاعداً على فراشي . كنت انظم قصيدة . قصيدة
وطنية احمل فيها على الاتراك واستنفر الشعوب المقهورة . افكار
القصيدة كانت كلها في رأسي واضحة تماما . فجعلت اصنع البيت
والبيتين ثم اشطبهما ... اكثر من عشرين ، ثلاثين بيتاً شطبتها ،
سودت الدفتر كله . الدفتر الذي جلبته لي ، كم ورقة فيه ؟ كلها
سودتها ومزقتها ! كنت اريد القصيدة... كنت اريد قصيدة جميلة .
لا لا ! كنت اريد قصيدة قوية ، اتفهمين ؟ قوية مثل الظلم ، قوية
اكثر من الظلم ، مثل الثورة التي تحطم الظلم والظالمين . فاجد ما
انظم جميلا ، ولكنه مع جماله يعوزه شيء : القوة ! فاشطب وامزق .
حتى دار بي رأسي واحسست انني ساختنق في هذه المغارة ، احسست
بانني سجين يا زينة ، واحسست القيود والسلاسل في يدي ورجلي .
كنت اريد ان اهرب من سجني . ألست انا الذي خلقت هذا
السجن لنفسي ؟ ستقولين لي : كنت مضطراً . لا ، لم اكن مضطراً

هـذا كذب ! ماذا انتظر من غدي في هذه المغارة ، في هذا القبر ؟ رفاقي الذين اعتقلوا وسيقوا الى الديوان العرفي في عاليه سجناء ، اما انا فميت ! والذين سبقوهم الى المشانق شهداء ، اما انا فجبـان ... جبان اختفي عن الانظار واقنع بلقمة امد بها في حبل حياتي الذليلة. ومن يأتيني بهذا الرغيف ؟ فتاة ! رأيتني حقيراً كالحشرة التي ادوسها بقدمي . وماذا افعـل هنـا عدا الاكل والشرب والنوم ؟ قصائـد قصائد ! ... ضحكت ، ضحكت عاليـاً يا زينة . لا ادري كيف كانت هيئتي حينما ضحكت ، لا اشك انني كنت كالمجنون ... ساصل بك الى ما اريد . خرجت الى باب المغارة ، وهممت بان ارتمي من الشفير فاقع تحت محطما . ثم قلت لا ، بل اخلع عني هذه الجبـة وامشي الى عاليه : تطلبونني فها انذا ! ولكنني جبان . قلتها لك انـا جبان ! لانني لم افعل هذا ولا ذاك ، وانتهيت الى ان من الخير لي ان انتظر . وارتحت الى حالي وكنت على وشك ان ادخـل واتنـاول غدائي . وادرت ظهري وخطوت ، فاذا بقعقعة حجارة غير بعيـد مني ، هنا ، الى يمين المغارة . فالتفت . وحينئذ رأيته . رأيت جنديا ينحدر من الاكمة محاذراً يتلفت بين الخطوة والخطوة . سبق لي ان رأيت جنوداً كثيرين يمرون تحت هـذه المغارة ، وربما كان هـذا العاشر . ولكنه يحمل مارتينة والاخرون عزل ، حفاة ، نصف عراة . وكانت المارتينة في يده يحاول اخفاءها فيجرها على الارض او يكاد وهو يدفع رأسه امامه مزيحاً بها الملول والشوك . سمعت حزتها على

الاغصان ، ورأيتها تلمع على شمس الظهيرة . وكان يسير دائماً في وجهتي . لم يكن آتياً الي . كلا ، كلا ، لم يكن يقصد بي سوءاً . كنت على يقين من ذلك . كنت واثقاً انه فراري كزملائه الهاربين من جور ضباطهم الاتراك . وشعرت بشيء في قلبي نحوه . شعرت بالشفقة عليه . اذكر جيداً اشفقت عليه وشتمت الضباط الاتراك وتركيا . وادليت برأسي اتتبعه . ثم خشيت ان تحين منه التفاتة الى فوق فيراني ، فاستخفيت فغاب عني . فانحدرت دركة فرأيته ما يفتأ يمشي مسرعا وذقنه الى الارض . اردت ان اقف حيث كنت منه فلم ادر اي قوة دفعتني الى الانحدار ايضاً ، فانحدرت دركة ثانية ، ثم انحدرت الثالثة وانا اتساءل عن السبب متعجباً بيني وبين نفسي . ولكن صوتاً داخلياً ، صوتاً دقيقاً متواصلا كان يقول لي : انزل ، انزل ، وانا انزل . ثم نظرت فاذا هو على عشر خطوات من المكان الذي اشرف عليه ؛ يمشي دائماً في وجهتي محدودبا . ثم رأيته يشيل برأسه قليلا ، فخفق قلبي ، ورأيت شاربيه يرتجفان ، ورأيته كأنه يناجي شيئاً غير منظور فهو يطبطب بشفتيه ؛ اقول لك كنت اراه جيداً . وحبست انفاسي انتظر . ماذا كنت انتظر ؟ لا اعلم . ثم اختفى ، فظننت انه غيّر وجهته . واذا بفوهة بندقيته تطل من قلب الوزالة الكبيرة تحتي . ولمعت الحديدة هذه المرة حتى بهرت عيني . لم اكن اريد شيئاً . اقول لك لم اكن اريد شيئاً الى تلك اللحظة . لم تحدثني نفسي حتى بمد يدي وخطف المارتينة . لانها

لم تكن تكلفني اكثر من مد يدي هكذا . ولم امدها . بل ندمت على انحداري الى هنالك وقلت كان علي ان ابقى فوق.هذا ما قلته ، اذكر جيداً . كل ذلك جرى في لحظة ، لحظة واحدة . فاذا هو يرفع وجهه فجأة وتلتقي عيناي عينيه ! وحينئذ حينئذ فقط ... قلت لك القضاء والقدر . عيناه المدورتان المذعورتان ، لماذا رفعهما الي ؟ لماذا رفعهما في تلك الثانية ولم يرفعهما قبلها ولا بعدها . كان اذن يمر دون ان يحدث شيء . هل صاح ؟ لا اذكر هل صاح بفمه ، ولكنني رأيت عينيه تصيحان صيحة هائلة . رأيتهما جيداً . زرقاوان كبيرتان . ورأيت شاربيه .كان له شاربان طويلان مشوشان ،ورأيت جبينه وخديه . لا اقدر ان انسى ! لا اقدر ! وجهه في تلك الثانية من الدهر لا اقدر ان انساه . عيناه الفارغتان من كل شيء ، المملوءتان بالف شيء وشيء ، لن انساهما . اقول لك سمعت عينيه تدعواني وتلحان علي ، فلم استطع المقاومة ... اجل هما عيناه . ولولاهما لما حدث شيء ... كان ذلك اقوى مني ، اقوى مني ! فلم يكن بد ولا مهرب ...

وامسك سامي وجعل يلهث كانه صعد جبلا عاتياً . وساد بينه وبين الفتاة سكوت ، ثم قال وهو ينظر جانباً وقد هدأ صوته هدوءاً غريبا :

ــ وهكذا ، هكذا قتلته .

ــ لا ! لا !

ـــ رميت جثته في الوادي . يمكنك ان تريها ...

وقام فرفع الفراش واخرج من تحته بندقية وقال :

ـــ لا تنسي ان تأتيني غدا بزيت لامسحها .

ثم اردف :

ـــ وصار عندي ثوب عسكري تركي قد احتاج اليه .

وازاح الفراش واخرج ثوبا ملطخا بالدماء ...

١٠

ثم قال متعجباً :

ـــ ما لك ساكتة ؟ لماذا تنظرين الي هكذا ؟ ان يدك ترتجف . لماذا ترتجف يدك ؟ انظري الى يدي انا ، انظري ... ماذا قلت لي؟ جاء الدرك وفتشوا علي ايضاً . هه ! مجانين ! اذا قبضوا علي وساقوني الى عاليه فسأقول لهم : قتلت جندياً تركياً وسلبته بندقيته وثوبه . ما رأيك ؟ الا ينبغي ان اقول لهم كل شيء ؟ اما اذا حكموا علي بالاعدام من اجل جمعية انتميت اليها وامضاء لي وجدوه على بعض المناشير ، وقصائد ... قصائد ! (وعاد الى ضحكته المرة) هل يستحق الاعدام شاعر ينظم القصائد ؟ انا لو كنت رئيس الديوان العرفي وجاؤوني بواحد اسمه سامي عاصم لقلت له... اتعلمين ما اقول له ؟ اسمع ، ما اسمك انت ؟ ـــ سامي عاصم ـــ انت متهم بعصيان

الدولة العليـة والثورة على السلطان ، اتنكر ؟ ــ لا . لا انكر التهمة لانها فخر لي وشرف ... وهنـا يا زينة لا اعلم بالضبط مـا يكون موقف رئيس الديوان العرفي لانني لست الرئيس . ولكنني لو كنته لتابعت وقلت : ماذا كنت تعمـل يا سامي عاصم لاجل تحرير وطنك من ظلم الاتراك ولاجل استقـلال بلادك ؟ ــ كنت انظم القصائد !!! ها ها ها ! لماذا لا تضحكين ؟ اليس في هـذا مـا يضحك؟...و كنت ايضاً اقيم في مغارة اسمها مغارة الحورية ! وانتظر زادي من فتاة تمشي كل يوم ثلاثين كيلومتراً حاملة على كتفها عشرة ارطـال . ثم يقول سامي عاصم ، اعني انا ، وكان قلبي يخفق خفقاناً حلواً اذ اسمع حفيف اغصان القطلبة على فم المغارة فاعلم انها هي... ثم احنى ، اعني انا دائماً ، احني رأسي على كتفي هكذا واقول لرئيس المحكمة : نعم ، لانني كنت احبها ! اليس هذا شيئاً مضحكاً؟ ماذا ، اتبكين ؟ لا . لا اريد ان تبكي . انا لا اقول لك ذلك لتبكي ولماذا البكاء ... اتظنين انهم يهتدون الي؟ كلا . لن يعرفوا مخبأي. هبهم استدلوا عليه ، فهل يتجاسرون على ارتقاء هذه المغارة؟اخرج اليهم واحمـل بندقيتي . انا فوق وهم تحت . تك ! تك ! تك ! تك ! اتخذ من الصخر متراساً . لا تنسي الزيت والخرقة . خرقة نـاعمة لامسحها بها . المغارة رطبة لا تدخل اليها الشمس وانا اخشى عليهـا الصدأ ... ماذا كنت اقول لك ؟ اتبكين ايضاً ؟ اف ! لا تخافي . سأقتلهم اذا جاؤوا الي . ولن ترتجف لي يد... قلت لك لم أكن

متعوداً . يجب ان اترك هذا السجن . سأنطلق واقول للناس الذين يموتون في عقر دورهم او على قارعة الطرق : « يا ناس لماذا تموتون جوعا ؟ قوموا قوموا ! واقتلوا ظالميكم واحموا الرزق الذي يغتصبونه منكم . اتخافون ان يقتلوكم ؟ ولكنكم لا تخافون الموت انتم ، لانكم تموتون كل يوم بالمئات ، وتنظرون الى اخوتكم واباءكم وامهاتكم واولادكم يموتون على مشهد منكم ولا تتحركون ، بل انتم تخافون الحياة ! » اجل اقول هذا واقبض ناصية واحدهم ، وانزع وجهه عن التراب واعطيه بندقية . اقول له « خذ » اعطي كل واحد بندقية مثل هذه ... لم تقولي ما جواب كامل افندي لجدك . كان ينبغي ان ارى هذا الجاويش بنفسي ، لانني في حاجة الى سلاح ، في حاجة الى بنادق اخرى . عشرين ، ثلاثين ، مئة بندقية ، الف بندقية ! الا ترين انه يوافقني على تهريب السلاح من الثكنة ؟ أما هو قادر على تهريبه ؟ الا يبيع رفاقه بنادقهم كل يوم ببضعة ارغفة من الخبز ؟ واذا كان عربياً ويكره الاتراك فلن يكون لديه اشهى من طلبي . اذا اراد مالا اعطيته . انزل الى بيروت وارهن بيتي او ابيعه واحمل ثمنه اليه . كل ماوتينة بليرة ذهبية . وادعوه الى السير معي . اقول له : « هيا هيا لنعلن الثورة على الاتراك اعدائي واعدائك ! » آه ! الثورة الثورة ! لو ان هذا الشعب يثور ! لو تعرفين الثورة ما اجملها ما اروعها ! ... الا تظنين انه يأتي ؟ يفر مثل هذا الجندي الذي فر اليوم ومر تحت مغارتي . انا اقنعه . انا اكفل

الرغيف

لك انه يأتي . ونطيح في الجبال والاودية مثل سائر الطياح . لا نقطع الطرق بل نقتل الاتراك ، نهجم عليهم في الليل ونفتك بهم وننهب اسلحتهم وارزاقهم ... ونمشي في البلاد من قرية الى قرية ونسلح الناس بما ننهب . سأقول له . سأذهب واقابله . سأذهب !

وهز زينة من كتفها .

ـ متى يأتي الى الدكان ؟

ـ ...

ـ ما لك ؟ متى يأتي كامل افندي الى الدكان ؟

كان يتكلم بحماسة متوقدة ، وما يفتأ يهزها هزاً عنيفاً وهي تصغي اليه ، فلا تدري ايحق لها ان تحبه ام يجب عليها ان تهابه . وارادت ان تقول له ، ان تغضب لحبها وتصيح : « وانا ؟ وانا ، ماذا تفعل بي ؟ » فلم تطعها شفتاها واطرقت تقول :

ـ لا اعلم ... لا اعلم .

ـ انا اعلم . انت قلت لي انه يأتي كل مساء . لا تدعوه يخرج قبل ان اجيء .

فانتفضت زينة :

ـ اتريد ان ترمي نفسك بين ايدي الدرك ؟ قلت لك انهم يبحثون عنك .

ـ لن يرجعوا الا بعد اسبوع كما فعلوا في المرات السابقة . يجب ان اقابله .

ــ سامي ...

ــ قولي لجدك لا يدعه يذهب قبل ان اصل انا .

ــ سامي ! سامي !...

ــ ماذا ! اعدت الى البكاء ؟

ــ لماذا تعذبني هكذا ؟

وغطت وجهها بيديها واجهشت .

ــ زينة ، زينة ... ارفعي وجهك الي . احب ان أتملى من هاتين العينين . انت تعلمين ، لم يبق لي حياة في هذه المغارة . الم تقرأي الرسالة التي حملتها الي البارحة ؟ يجب ان نتفارق . سأذهب كما قلت لك الى كسروان ، الى دير من الاديرة لا ينبغي لك ان تعرفيه ، حيث اجتمع برفاقي لامر خطير . وسيوافينا الى كسروان نعوم لبكي صديقي وصديق جدك . هو اليوم مختبىء في مغارة مثل هذه في ناحية من صنين . ولقد احببت ان لا اطلعك على جزء من تلك الرسالة لانني لم اكن عازما بعد على المضي فيما يحتويه . اما الان فيجب ان امضي . سنجتمع ونعلن الثورة يا زينة . انفهمين حرصي على مقابلة الجاويش ؟ يقولون لي في الرسالة ان علي تدبير مئة بندقية بواسطة احد الجنود . كامل افندي فرصة يجب ان لا نفوتنا . من يدري ؟ وبما خرج على الاتراك فحاربهم معنا ...

ــ واذا افتضح امرك وامره ؟

ــ لا تخافي . اذا حادثته احكمنا الخطة واتخذنا الحيطة . الجماعة

ينتظرونني يوم الاحد ، ونحن في الحبس . يجب ان اراه غداً . ما من ذلك بد . وبعد غد اغادر ساقية المسك تحت ستار الليل . قولي لجدك « سامي قادم الينا بعد غروب الشمس لمقابلة كامل افندي » فليجده الى السهرة بحيلة . تعالي قبل ذلك واخبريني . سأنتظرك اسامعة ؟ انتظرك . تصوري يا زينة ثورتنا ظافرة ، والاتراك منهزمين من هذه البلاد يأخذون معهم الجوع والامراض والمشانق ، ونتوارى عنا الى الابد جزماتهم ووجوههم ... غداً بعد غروب الشمس ، قولي لي « اي » ... يجب ان نظفر او نموت ! لدينا الآن ثلاثمئة رجل . ولا يمضي اسبوع حتى نصير ثلاثة آلاف .

وسكت طويلا .

— زينة ، زينة ! تأتين بعدي الى هنا وتقولين « كان الاخ حنانيا في مغارة الحورية » وتتذكرين هذه الجبة وهذه اللحية « هنا كان ينام ، هنا كان يأكل » ... وتصلين لي ... سأذكرك انا مهما كنت بعيداً . ستكونين في قلبي . سأذكرك تحت الرصاص او تحت حبل المشنقة . ولن انسى زينة التي كانت تزورني كل يوم وتحمل الي رغيفين وبرتقالة قطعتها عن فمها . لن انسى ، وحياتك يا زينة لن انسى . ذخيرة شوة الصليب التي اعطيتني اياها لن تفارق صدري . انا اؤمن بها لانك انت تؤمنين . سأتناولها صباح مساء وانظر اليها فاراك تخيطين ثوبها ثم تعلقينها في عنقي بيدك ، وتعيدين مخبأها ، ويخفق قلبي لك كما خفق حينما اقتديا حارساً علي .

كان سامي يقول ذلك وزينة تمد كفها وتشد على الذخيرة وعلى صدره بكل ما فيها من قوة . حتى اذا سكت ، رفعت وجهها ببطء ، ولبثت ناظرة اليه ، فخيل لها ان عينيه تغروروقان ، ثم اغرورقت عيناها ، فانتصبت بينهما ضبابة كثيفة حتى لم يعد احدهما يرى صاحبه . ثم اهوى بعضهما على بعض في عناق عظيم ...

١١

دخلت زينة هذه المرة من الحانوت لترى هل كامل افندي فيه ، فلم تجد غير خالتها منتحية الى رجل هزيل ، مجدور الوجه ، عليه طقم افرنجي ونظارتان على ارنبة انفه . وشد ما كانت دهشتها حينما وضعت سلتها واكملت طريقها دون ان تدعوها خالتها الى مجالسة الرجل . فقد كانت وردة تنتظرها كل مساء لتستدر من الزبائن مالهم على وجهها الصبيح ، فتجاريها الفتاة يوما وتعصي اياما . ولكن وردة لم تشعر هذه الليلة بوصولها وكأنها تبرمت بها فقطعت الحديث بينها وبين خليل المعلا فور ظهورها على العتبة ، ولم يحفل بها هو كذلك واكتفى بالقاء نظرة عليها ثم تلهى بتنظيف نظارتيه .

لم يكن اشهى من ذلك على قلب زينة ، فقصدت الى جدها في غرفتها المشتركة ، وبادرته بالسؤال عن كامل افندي ، فاخبرها ان

الضابط راسم بك امر بحبسه وان الجنود يعللون ذلك بان مخبراً اخبره ان كامل افندي سبه فانزل بـه ذلك عقابا له . فكانت صدمة عظيمة لآمال زينة ، فذهبت الى فراشها والقت عليه جسما منهوكا وغماً لا حد له .

١٢

كان راسم بك ساكناً بيتاً من بيوت بحرصاف ، على مشية عشر دقائق من ساقية المسك . رجل اشرف على الخمسين ، طويل القامة ، متصلب كالعمود ، له شاربان كفتا ميزان ، وحاجبان معقوفان ، وكتف تنخفض عن الثانية ، وجزمة لها مهماز له وسوسة مخيفة . وكان راسم بك قائد الكتيبة التي احتلت تلك المنطقة ، له الامر المطاع لا على العسكر فقط بل على الاهلين جميعاً وما يملكون .

وكانت وردة كسار تفخر على الناس بان الضابط صديقها وصديق ابنها طام . ولهذه الصداقة حكاية ترجع الى نحو من شهر . ذلك ان راسم بك مر ذات صباح امام الدكان فرأى فيه الجاويش كامل افندي والجاويش محمد افندي ، فدخل يداعبها . فعدته وردة شرفا عظيما وحامت حواليه تحار ماذا تقدم اليه تودداً واستعطافا . فضربت بيدها وقربت شيئاً قلب له شفتيه تقززاً واستكباراً فكادت

تموت ... لولا انه اشار الى طام الواقف في الزاوية ان يدنو منه . فتردد فوثبت امه تجره اليـه فرفعه على ذراعيه في الهواء ثم حطه ثم رفعـه ثم حطـه ، والجاويشان وودة يضحكون . وساقه راسم بك الى بحرصاف . ولم يعد طـام الا بعد ساعة بجيوب مـلأى بالزبيب والجوز ، فاجلسته وردة تسأله عما قاله الضابط له ، فاجابها انه خاطبه بالتركية والعربية مخلوطتين فلم يفهم كثيراً ، وان كل ما يفهمه ان راسم بك لطيف و كريم ، وانه اعطاه زبيباً وجوزاً ، ووعـده بمثل ذلك كلما زاره .

فكانت لوردة فرحة لا تبيعهـا من احد . ودخلت من وقتهـا فاخبرت زينة واخبرت عمها ابو سعيد . وفاض سرورها فوضعت لهم ذلك اليـوم صحونـا عامرة ونصف رغيف لكل واحـد زيادة عن المقنن ، كأن الزفة قائمة !

ومنذ ذاك وطـام يزور الضابط عصر كل يوم ، فاذا تأخر عن موعده او نسي ذكرته امه ورددت عليه اللازمة : « قل له امي تسلم عليك وترجو منك ان تشرف دكانها » .

*

ولاول مرة في حيـاته عصي طام جده . ارسله ليجمـع حشيشاً للصبحـا فغافله وترك المنجـل على باب المراح واطلق ساقيه للريح . فقد قضى امسه دون زبيب وجوز ، فلا اقل من ان يستعجل نصيب يومه . ولـكن حادثته مع خليل الملا لم تكن تفارق ذهنه ، فظـل

طول الطريق يتلفت وقلبه ينخلع كلما سمع دعسة ، محاذراً ان يلتقيه فيستدرجه بحيلة من حيله الى اكثر مما استدرجه اليه من سر الاخ حنانيا .

على انه كان يحس براحة ودهشة معاً لعدم اقدام احد على سؤاله عن شيء . ولو سألوه لانكر ... ولكن من يسأله ؟ وماذا قال هو لخليل المعلا ؟ واذا كان خليل المعلا عرف ان الاخ حنانيا هو الخواجه سامي فقد بقي عليه ان يعرف اين هو . وهو لن يدله على دير مار نهرا ولو اعطاه كل بشالك العالم ومجيدياته . (وكان الصبي يعتقد ان الاخ حنانيا مختبئ كما قيل له في دير مار نهرا ، حيطة اتخذها ابو سعيد مع حفيده حين غادر سامي البيت الى مغارة الحورية .)

وصل طام الى بيت الضابط وهو يفكر بكل هذا عالياً . فاذا راسم بك على الشرفة يدخن نارجيلته عابساً ، مكمد اللون . فوقف امامه يلهث من الركض ، واراد ان يقفز الى حضنه ويفتل له شاربيه فلم يجرؤ وتحول عنه منكسراً ، فقال راسم بك :

ــ اطوِ كرسي ! اقعد !

وضرب بكفه على كرسي بجانبه فقعد الغلام جزءاً من الكرسي لا يتحرك فيه الا عيناه الدعجاوان يختلسهما الى صديقه المبرطم ، ثم يردهما على قرقرة مفاجئة او أحة صاخبة . ثم نهض الضابط وقذف النربيش على الارض ، فالتفت طام فاذا جندي مكبل اليدين يقبل بين جنديين آخرين واحد عن يمينه وواحد عن اليسار . واذا راسم

بك يرفع ذقنه ثم يخفضها باصقاً بوجه المأسور بصقة جبارة . فينفض المهان رأسه ويلتفت الى طام مبتسما فعابساً عبسة ذات بريق مؤذ ، والقذر ينحدر على شاربيه وانفه الطويل خيوطاً متمايلة ، ويكسبه في كلا الابتسام والعبوس سحنة تاعسة . فكاد طام يشهق باسم « كامل افندي » لانه كان يعرفه من تردده على الدكان . ولكن صوته اختنق واخذ يجيل رأسه بين راسم بك و كامل افندي وشفتاه تختلجان ولا تطيعانه بكلمة .

ووقف الجنديان بالمأسور على العتبة فحلا وثاقه . فهم بالانحناء ، فامسكه صاحب يمينه من يأفوخه وأدار له وجهه نحو الضابط ، ولكزه صاحب شماله على خاصرته ، فضم كامل افندي رجليه ورفع يده بالتحية لضابطه . حينئذ اتكأ راسم بك الى كرسيه وانحنى كامل افندي الى نعليه فنزعهما ووضعهما خلف الباب ودخل الى البهو ودخل الجنديان ، ولحق بهما الضابط بعد ان اوصى طام بالانتظار خارجا .

انتظر طام دقيقة ، فاذا في البهو حركة ، فقام الى الباب يصغي ، فاذا صفقات متوازنة تعقبها انات متوازنة تقطعها شتائم ضخمة . واذا هذا المزيج المبهم يدوي في ارجاء البهو الواسع وفي صدر الصبي اللائذ بين الباب والشباك ليرى شيئاً فما يستطيع . ثم اذا بالصفقات تسكت ، ثم تخفت الانات وتستطيل وتعمق ، ثم لا تبقى الا الشتائم وما تلبث هي ايضاً ان تتلاشى ...

وانفتح الباب ، فتعثر طام بالكرسي في تراجعه اليه . وخرج كامل افندي بين الجنديين ساحباً على البلاط قدمين يسيل بين اصابعها الدم . وارخى على الباب يداً ضعيفة مشلولة الى نعليه فاخذها تحت ابطه . ودفعه صاحباه على الدرج جراً ، وشيعه الضابط ببصقة اخرى ، فتململ طام في مكانه يريد ان يلحق بكامل افندي ، فاذا راسم بك يحضنه ويقعد به مرسلا لهاثه على شعراته المجعدة . فاحس الغلام هـذا اللهاث شوكا يخز جلدة رأسه ، فقفز وتدحرج على السلم كالكرة ، وطار كالطير .

ولم يصل الى الزيتونة العجوز القائمة في منتصف الطريق بين بحرصاف وساقية المسك حتى لقي كامل افندي يمشي متثاقلا عارجا على الميلين ، فاسرع اليه يعرض كتفه عليه ويسأله عن سبب الفلق ويدعو على راسم بك معلناً انه لن يحبه بعد اليوم مهما اعطاه من خبز ابيض وجوز وزبيب وحلوى ! فاعتمد الجاويش كتف طام واخذ يسأله بدوره عن سبب صداقة الضابط له ، والى متى ترجع ، وماذا بينهما بعد تفتيل الشاربين ... حتى وصلا الى الحانوت .

١٣

ادخلت وردة الجاويش الى البيت ، وقام ابو سعيد على العناية به ... وحار الشيخ أيفاتحه بمطلب شامي ام لا . يدفعه ان الجاويش

مضطهد لكرهه الاتراك ويثنيه انه قد انفتحت العيون عليه من اجل هذا الكره • وكان كامل افندي يئن حيناً ويشتم الدولة حيناً آخر. ثم نظر من النافذة فرأى الليل فاستأذن وانتحى زاوية من الغرفة وركع يصلي العشاء •

ان مرأى رجل يصلي يوحي الاحترام في قلوب الآخرين ، فكيف اذا كانوا مؤمنين ايمان ابو سعيد وكان المصلي ضحية مثل كامل افندي يرفع الى خالق السماء ظلامته من ابناء الارض • ولقد بلغ ذلك من نفس الشيخ ان اومأ الى طام بالانصراف ، فذهب الى الدكان ، وخرج هو الى الشرفة تاركاً الجاويش الى ربه • فاذا الصبحا تخور مرة ومرتين وثلاثاً • وما عادتها ان تفعل الا لامر ، فانحدر الى المراح فاذا ببابة •••

ـ الخواجه سامي !

ـ هو انا •

ـ كيف تخاطر بنفسك والليل لم يظلم بعد ! ادخل الى المراح.

ـ جئت لاودعك يا ابو سعيد • لا بد ان زينة اخبرتك • وقد مرت علي هذا الصباح واخبرتني كذلك بخبر كامل افندي • فما الفائدة من الانتظار حتى السبت • الخير ان امشي الى كسروان الليلة •

ـ ادخل ، ادخل ، هو في غرفتي ، فوق •

ـ من ؟

ــ كامل افندي .

وقص عليه قصة الفلق ، فداخل سامي من الفرح ما لم يستطع اخفاءه ، فجعل يفرك كفيه ملحاً على الشيخ في مقابلة الجاويش فوراً ، فحاول ابعاده عن هذه المجازفة فقال :

ــ يا ابو سعيد ، ماذا يخاف المظلوم من المظلوم ؟

ثم صعدا معاً ، فوجدا كامل افندي قد عاد الى الاستلقاء على الحصير ، وكأنه أحس بانفاس غريبة فادار وجهاً مصفراً وادعاً وقال:

ــ مساء الخير يا محترم . اعذرني اذا لم اقدر على الوقوف .

ــ خذ راحتك يا ابني .

ونظر سامي الى قدمي الجاويش الناضجتين ، ثم الى وجهه المعذب واخذ يهز رأسه . كانت لكامل افندي الوراق هيئة ساذجة : ابرص البشرة ، ازرق العينين ، ليس فيهما لمعان لحبيء البتة ، دمشقي ابن شيخ ، نشأ في بيت متدين وترعرع في جو الكتب الصفراء ، فاخذ منها لفكره وحسه كل شيء ، واغلق نوافذ نفسه عن الحياة تاركا اياها تمر بعيدة عنه بملذاتها وحسراتها ، وجمالها وقبحها ، لم يهزه يوما شوق كبير ، ولم تقرضه خيبة عظيمة ، ولم يقف مرة مستقريا عن سبب ، او متسائلا عن نتيجة ؟ اليس كل شيء مكتوبا والله يجري الامور ، اولها بحساب واخرها بحساب ، ما يستقدم منها الانسان ولا يستأخر .

ــ في شريعة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، لا يجوز هذا يا محترم

38

(واشار الى قدميه) أفيجوز في شريعة عيسى عليه السلام ؟ انت كاهن ، وانا على يقين ان الكهنة يكرهون الاتراك ولا يشون بكارههم اليهم . « وسيرى الظالمون اي منقلب ينقلبون » .

تمشت في جسد سامي رعشة مؤذية وحلوة معاً ، وامتدت الى شفتيه فجعل يقضمها باسنانه معلقاً ناظريه بوجه الجاويش :

ـــ اخبرني ابو سعيد بما حل بك ... ماذا قلت بحق الضابط راسم بك ؟ أصحيح انك شتمته ؟

ـــ والدولة !

فلم يجد سامي ما يقول بعد ، واحس برجليه تدنيانه ، فدنا وجثا بركبة واحدة الى يمين كامل افندي وسأله :

ـــ هل انت محموم ؟ هات كفك .

وضغط سامي بسبابته على كف الجاويش ضغطة قوية ، فقابله بالمثل ، وحدق كل منهما بالاخر هنيهة واضطرب كيان سامي . ثم سحب يمناه والقاها على ساعده الايسر مظهراً السبابة والوسطى ومخفياً اخواتها . فاخذ الاخر يرفع رأسه عن الحصير ، ثم رفع كتفيه فظهره واستوى قاعداً هاتفاً « هاء » فاجابه سامي « لام » و كامل « الف » وسامي « لام » ، وهجم احدهما على الاخر يتعانقان .

تلك الاشارات والحروف هي علامة التعارف بين اعضاء «الجمعية القحطانية » ، احدى الجمعيات السرية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت في معظم الاقطار الناطقة بالضاد وبين ضباط الجيش وجنوده العرب .

خاصة ، يدبرون في الخفاء معدات الثورة ، ويهيئون يوم الانتفاض على الدولة .

. . . .

وفي ساعة متأخرة خرج من بيت كسار شبحان فوقفا امام المراح متواجهين . كان الظلام ناعماً ، والنجوم ترتعش في الجلد الفسيح ارتعاش الآمال الجديدة ، والصمت يشمل الانحاء الا هينمة نسيم ندي بارد . ثم امتدت كف احدهما الى كف الاخر فتصافحا بقوة ، وسمعها الليل وحده يتعاهدان :

— الى غد !

— الى غد !

وافترقا ، فذهب ذو الثوب العسكري في الطريق وانسل ذو الجبة في الوادي .

البذار

١

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي احاط بمغارة الخورية اربعة من الدرك وجنديان تركيان على رأسهم الضابط راسم بك ودهموا سامي عاصم نائماً ، فكبلوا يديه ولكزه قائدهم بجزمته صائحاً:

ـــ قم دلنا على كل ما تخبئ .

فانتصب سامي بجبهته فرفع الضابط كفه بالمسدس واهوى على صدغه :

ـــ خذ يا اخ حنانيا !

فادماه ، وقهقه الاخرون . فضرب بيديه المكبلتين وقذف راسم بك بقوله :

ـــ جبان !

فكان الجواب ضربة اخرى على رأسه ، فصبغ الدم حاجبه وتشعب على خده حاراً . ونصر الجنود قائدهم متألبين على الفريسة حذفا باعقاب البنادق وبالشتائم . ثم انصرفوا ينقبون ، يلتقطون من هنا ورقة ، ومن هنا خرقة ، ومن هناك علبة كبريت فارغة . وسامي

ينظر اليهم لا يفكر بشيء ولا يحس بشيء . حتى اهتدوا الى البندقية ملفوفة بالثوب العسكري المبقع بالجساد فوثب الضابط الى الثوب :

ــ من اين هذا ؟

ونظر الجنود بعضهم الى بعضهم يغمغمون :

ــ ثوب عسكري !

ــ عسكري تركي !

ــ وبندقية ايضاً ؟ !

ــ من اين هذا ، اقول لك ؟ ودم عليه ! العلك قتلته ؟ ــ

ــ لقد اكملت ما بدأ به جنودك . انتهت افادتي .

فوقف راسم بك مفرجا بين رجليه ورفع مسدسه مشيراً بالهجوم فعادوا الى سامي بكل ما ملكت ايديهم والسنتهم ، ثم وضع فوهة مسدسه الى رأس الاسير يطرقه بصخرة نائتة . وانه لماض في ذلك حانت التفاتة منه الى شق في الصخرة مسدود . فرفع يده فرفع الجلادون ايديهم وتوجهوا بعيونهم جميعاً الى ذلك الشق ، وقد ظنوا فيه الوثيقة الكبرى والمؤامرة العظمى . وجعلوا ينزعون ورقة بعد خرقة وخرقة اثر ورقة ، ويمدون برؤوس بنادقهم حيناً ، ويشكون عن زنودهم حيناً آخر ، يتناوبون ويتعاونون ، والسر الهائل يأبى الا الاستعصاء والاستخفاء . حتى ضاق القائد ذرعا فازاحهم وارسل ساعده عاريا في الشق مكشراً عن اسنانه ، وهم من ورائه منحنون عليه ، يشدون ... يرخون ... وامسكت اصابعه بشيء فالتفت اليهم

41

بعيني البشرى ، فحبسوا انفاسهم ...

هذه المرة تلقى سامي حملتهم بلذة غريبة . فقد كان في الشق نعلاه القديمتان اخفاهما فيه وطال العهد عليها فتكمشتا واكلها الفساد .

**

اقتاده في طريق بيروت ثلاثة فرسان مشياً على قدميه ، مربوطاً بزنجير الى سرج من سروج خيلهم . وكان قد نهكه ما ناله منهم في المغارة فلم يلبث ان خانته قواه فاستسلم ، يجذبه الحصان ويدلي به في طلوع الطريق ونزوله ، فتنخلع يداه شداً لتهوي بعد ذلك بقيده الحديدي الثقيل هوياً يحس ان كتفيه ذاهبتان معه . فان شكا الوى عليه الفارس بالسوط وهمز مطيته، فتجتمع عليه ضروب من العذاب من اضطرار الى الركض، واتقاء للسنابك، وتعرض للحصى المتناثر. ارسل الشكوى الاولى احتجاجا ، والثانية عفواً ، ثم ختم على فمه حتى وصلوا به الى انطلياس ، فقعدوا في حانة يشربون الخمر ، واذنوا للخادم فقرب اليه السطل الذي سقى به الخيل، فعب منه ، ثم ادخل وجهه فيه واخرجه سعيداً ببرودة الماء ، وهم يشيرون الى لحيته المبتلة المتساقطة ويقهقهون .

وعرجوا به على «الجديدة»، المركز اللبناني الاخير قبل بيروت، وكان بانتظاره ثلاثة اخرون تسلموه وتولوا امره حتى الولاية حيث زجوه في احد الاقبية مع كثيرين من امثاله . وكانت الحمى قد دبت في اعضائه فاستلقى على الحضيض كالقتيل .

ولم يدر متى ولا كيف نقلوه ، ولكنه صحا ، اذ صحا ، نشيطاً على نور نهار جميل ، وكلام ، وقرقعة آلات ... ففرك عينيه فاذا هو في القطار على محطة عاليه .

كانت عاليه قبل الحرب مصيفاً لاغنياء بيروت واشرافها ، ومقاما للهو والسرور ، النهار فيها مسرح ، والليل عيد . فصارت على عهد الاتراك شؤما لم تنعق بومة بمثله . اربع سنوات كاملة مرت على عاليه وكأن عاليه اوقفت الزمان عن دورته في الفلك فهو يزحف بين الاقدام والوحول والسلاسل ، يومه شهر ، وشهره دهر ... والمحطات في العالم مملوءة بالقلوب الخافقة للقاء الاحبة ، والوجوه الطلقة ، والثغور المرنة بالقبلات . اما محطة عاليه فكان عليها وجوم مخيف ، يروح الجنود بحرابهم اللامعة ويجيئون ، يخفرون المعتقلين ، وينهرون الناس ، والناس اشباح منتصبة ، شيوخ واطفال يبسطون ايديهم للحسنة ، ونساء وصبايا في اسمال بالية ، وعيون ملتاعة بارزة ، يعرضن جمالهن برغيف خبز .

وذهب جنديان بسامي الى بناية كبيرة على بابها حجاب عابسون ودخلا به على ضابط ثخين الرقبة ، مفتوح المنخرين ، يجلس وراء منضدة عليها اوراق ودواة وقلم في غرفة عارية باردة الجدران .

وبادره الضابط :

ـــ خوري نجس ايضاً ... ما اسمك ؟

ـــ سامي عاصم .

ـــ ها ها ! الاخ حنانيا ! اليس كذلك ؟

ـــ ...

لم يكلف نفسه عناء النظر الى الضابط .

ـــ الى الرقم ٦ !

وخبط على الطاولة ، فادار سامي وجهه ، وقد رن الرقم في اذنه رنيناً منكراً فجعل يفكر طول الطريق فيما عساه ان يكون الرقم ٦.

٢

اربع غرف ، اثنتان من هنا واثنتان من هنا ، وفي الوسط ممشى معتم ، في آخره طاولة وراءها هيئة انسان . ادناه خفيراه ، فسأله الحارس عن اسمه ، ودونه في دفتر امامه ، ثم ترك القلم وتناول سوطاً من الجلد وقام مشيراً الى الجنديين ، فتبعاه ، وسامي يسرح بصره من اليمين ومن الشمال في عيون زائغة ، وانصاف شوارب ، واصابع غليظة تطل من طاقات مشبكة في اعلى الابواب .

ـــ يا افندي ، يا افندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

وتجاوبت الضحكات من طاقة الى طاقة . والتفت سامي صوب الدعاء فرأى وجهاً مذعوراً وراء احدى الطاقات بشاربين نازلين وعينين تهمان بالبكاء وفم ...

ـــ يا افندي ، يا افندي ، بادي شام جوق يا شاه !

وانطلقت الضحكات اوقح منها من قبل . فاستدار الحارس ، ومضى يخادع المنادي بابتسامة . فاشرق وجه السجين ، ومد يده على حديد الطاقة ، فانهال السوط عليها ، فتقلصت وتوارت ، ثم توارى صاحبها . وكأنه كان ناسياً فتذكر ، فصرخ صرخة هائلة .

وتناول الحارس مفتاحا من حزمة يربطها بزناره وادخل سامي الى الغرفة رقم ٣ المحاذية لغرفة المضروب ، وفك الجنديان وثاقه واغلقا عليه الباب . وما كادا حتى انبعثت في انفه رائحة كريهة ... ونظر فرأى شيئاً يتململ في الزاوية واذا شخص يستوي واقفاً ويقول :

ـــ امعك شيء للاكل ؟

وكانت عينا سامي قد الفتا العتمة فاذا هو بمخلوق في قميص وسخ نبتت له لحية طويلة كلحيته ، وطال شعره حتى جعل له رأساً اقرب الى رأس حيوان . فداخلته من هذه الحجرة ومن ساكنها وسحنته نفرة واشمئزاز ، واحس انه لو اقام يومين هنا لمات اختناقا . وبقي صامتاً لا يجيب سائله . ثم دنا من الطاقة فاذا الوجه المعذب يعود الى الظهور على طاقة زندانه المقابل وتعلو الصيحة :

ـــ يا افندي ، يا افندي ، بادي شام جوق يا شاه !

ويأتي الحارس بسوطه ، ويظل السجين مادا كفه على الحديد حتى تنال نصيبها . فيهم سامي فيمسكه رفيقه قائلا :

ــ ابله كما تراه وتسمعه ، لا يكف عن الدعاء : يا افنـدي يا افندي ! والافندي يضربه . جاؤونا به امس فلم يدعنا نذوق طعاما للنوم طول ليلنا .

ــ هيه ! هيه ! لماذا تضرب هذا المسكين هكذا ؟

فانقلب الحارس الى سامي عاقداً يديه بالسوط خلف ظهره :

ــ أعلى بالك ؟ لو لم تكن جديداً لادبتك! ولكنني احذرك : لا تتدخل في ما لا يعنيك .

ومضى . ثم عاد الى وسط الرواق وهتف :

ــ الـ . . قيـ . . روانة !

فضج السجناء في زنادينهم . وانفرج البـاب وأدخل جنديان حافيان حلة كبيرة ذات لهب ، فصبا منها قصعة لسامي وثانية لرفيقه ، وطرحا لهما رغيفين اسودين . اما سامي فنظر وشم وصرف وجهه فسأله الاخر وهو يزدرد ويلتهم ويتلمظ :

ــ الا تأكل ؟

ــ لا .

فقرب القصعة والرغيف اليه .

ــ دائما هكذا ، الجديد في السجن لا يأكل في اليوم الاول . ستتعود .

وادخل يده . فاذا الباب يخبط ، واذا الحـارس ينشب يديه في لقمـة بين اسنان السجين ، ثم يرفسه ويتنـاول القصعة والرغيف

ويخرج محدجا سامي بسخرية . فادرك سامي معنى ذلك كله ولم يقل شيئاً . ثم انحنى يسائل رفيقه :

ــ ما اسمك انت ؟

ــ حنا الدهان من بيت مري . وانت ؟

ــ كم مضى عليك هنا ؟ .

فاشار حنا الدهان الى الجدار وهو يتابع اكله مشغولا فمه باللقمة عن الكلام والدنيا . فنظر سامي فلم يفهم فاعاد :

ــ قلت لك كم مضى عليك في هذا السجن ؟

ــ اما ترى ؟ انظر الى الخطوط وعدها . هذه هي روزنامتي . أحفر على الحيط بظفري خطاً كل يوم .

فجعل سامي يعد الخطوط « ثلاثون ... اربعون ... خمسة واربعون » ، فقاطعه حنا الدهان :

ــ الخطوط العمودية للشهور ! (وبلع لقمة) حسابي الخطوط يصل الى ثلاثة اشهر وخمسة عشر يوما . بعد ذلك لم اعد . قلت : ما الفائدة من التعب ؟

ــ يا افندي ، يا افندي ، بادى شاهم جوق يا شاه !

فلم يضحكوا لانصرافهم الى الاكل . ومشى الحارس الى المستغيث به فضربه ايضاً . ففار الدم في عروق سامي :

ــ ألا تكف عن ضرب هذا المسكين ؟

فجاء الحارس صوب سامي هادئاً مطمئناً . والتقت عيون الاثنين

من خلال الشبكة الحديدية . وشد سامي عليها باصابعه متحديا الجلاد بسلاحه الوحيد، حقده يتفجر من عينيه وتختلج به شفتاه . فما كان الا ان اهوى السوط على كفه فما تمالك من الصراخ وسحب اصابعه الى فمه وقد جرّت الضربة عليها خطاً احمر لاهباً .. وعاوده اذ ذاك الشعور الذي عذبه لاول مرة في مغارة الحورية لما ضربه معتقلوه دون ان يستطيع عن نفسه دفاعا ، شعور الانسان باحتقار اخيه الانسان حتى ينزع عنه ثوب الانسانية ويجرده من كرامتها وسموها ومحبتها وفضائلها جميعاً ، فما يراه الا وحشاً وما يتمنى لنفسه الا ان يكون وحشاً مثله — ولكن حراً — في ميدان يصاوله فيه باليد والرجل والظفر ، ولا يغادر احد منهما صاحبه الا وقد شفى غليله بالموت وانبطاح جثة على الارض حجراً من حجارتها الصماء ، لا الخير تقدر عليه ولا الشر .

وقعد مطرقا . وجعل حنا الدهان يقص عليه قصته وقصص السجناء . تهمته صورة لنابليون وجدوها في بيته ، وتهمة آخر كتاب من صديق له في اميركا يذكر له فيه الدولة التركية بما لا يرضيها ، وتهمة ثالث انه سب السلطان ... وسامي يصغي حيناً ويشرد حيناً آخر ليفكر بزينة .

ولما اسود الليل اغمض جفونه على خيالها ونام .

٣

كانت زينة تتقلب في فراشها مفتشة عن وسيلة تصل بها الى خاليه. فكل ما تدخره لا يتجاوز البشلكين اختلستهما متليكا فمتليكا من تجارتها اليومية . ولقد خطر ببالها ان تفاتح جدها بالامر ، لا طمعاً بماله ، فلا مال عنده ، ولكن عسى ان يستدين ، ثم عدلت عازمة ان تخفي رحلتها عنه . وعنّ لها ايضاً ان تستولي على اجّة طام بحيلة من الحيل فتضم ما تحتويه الى ما تخبئه في ثنايا ثوبها ، فيكفيها المجموع ثمن ما تمسك به الرمق ذهابا وايابا . ولو ان خالتها ارسلتها الى انطلياس لعملت بالرأي الاخير وانطلقت وراء سامي فور اعتقاله . ولكن وردة انقطعت منذ الحادث عن ايقاظها مع الفجر ، ولا تذكر لها البرتقال ولا الخضار ابداً . واعجب من ذلك ان لهجتها تبدلت فما تقذفها بلعنة ، ولا تلح عليها في مسامرة الزبائن ، ولا تلفظ اسم الاخ حنانيا بخير ولا شر ، مع انه كان حديث الناس في ساقية المسك وجوارها .

وفجأة لمع في ذهن زينة خاطر لم تتمالك من الارتعاش له ، فجعلت تنظر الى الباب في الحائط الفاصل بين غرفتها وغرفة خالتها . وكانت وردة قد اغلقت الحانوت واستسلمت الى النوم ، تسمع زينة غطيطها يخترق الجدار متقطعا بنفخات سكرة ثقيلة . وبالرغم من

العتمة السائدة ادارت الفتاة وجهها الى الناحية الاخرى تطمئن من جدها . ثم رفعت لحافها وقامت تتلمس الشباك ، ومن الشباك الى المغسلة ، فالى المقص الذي تركته عليها بعد رفء ثيابها ، فتناولته وضمت سنيه برفق ، وبسطت يديها من جديد تستهدي . ولم تصل الى الباب حتى وقفت دونه . خيل اليها ان وردة ستنتبه عليها بل انها قد نهضت فهي الان من الجهة الاخرى من الباب ليس الا ان تفتحه وتطلع في وجهها ! فاضطربت حائرة بين الاقدام والاحجام . وعضت اصبعها ... وصاح ديك في الليل ، فلم تدر اي سحر حمله هذا الصوت الابح اليها فعاودها العزم . فلتقل لها خالتها ما شاءت ولتفعل بها ما طاب لها ! فاللعنات وشد الشعر واللكمات اشياء تعودتها منها . فما تبالي بعد .

وفتحت الباب ، ولعله صر بالمزلاج ولم تسمعه . ولكنها سمعت خالتها ما تفتأ تشخر ، ورأتها ، على ضياءة من القمر تنفذ من الشباك ، رأتها مكشوفة قد زلق اللحاف عن كفلها الرابيين ، وغطاها القمر بفضته العمياء ... فتابعت تسترق الخطو ، والمقص في يدها تضغطه مع ضغط فكرها ، حتى اذا وصلت وقامت بمهمتها قامت بها برباطة جأش ، واطمئنان لم تكن تتوقعه قط .

كانت وردة تربط مفتاح درج الدكان بعنقها مبالغة في الحرص على مالها . فلما استولت عليه زينة انسلت الى الحانوت ، فلم يكن عليها الا الاختيار بين الليرات والمجيديات والبشالك ، فكمشت من

الدرج ما وسعت كفها وصرته بمنديلها وجعلت الصرة في صدرها ثم تساءلت هنيهة ما تصنع بالمفتاح ، ثم تركته مكانه وولت .

ولم تفطن الى انها نسيت طرحتها والرغيف الذي تناولته من الصندوق الا بعد ان بلغت « قرنة شهوان » ، على ساعة من ساقية المسك .

٭

وصلت الى عاليه على مساء بارد . على انها ما كادت العربة تدخل بها المدينة حتى اخذها انقباض موجع فحل محل اللهفة التي رافقتها طول الطريق من ساقية المسك الى بيروت ومن بيروت الى هنا . وكان في العربة ثلاثة ركاب اخرين حاولوا بادىء ذي بدء ان يفتحوا حديثا بينهم وبينها فصدفت عنهم ، وكان جديراً بها الا تفعل ، فقد كان في استطاعتهم ان يعينوها على امرها في هذه المدينة الغريبة الرهيبة . فحاولت ان تصل الحديث وتسألهم عن الديوان العرفي والسجن ، ومقابلة السجناء . وهيأت في سرها الحدوتة ، تقول هو ابن عمها او ابن اختها . واستأنست بشيخهم ومدت بفمها اليه فاذا به يشير الى السائق بالوقوف وينزل .

استأنفت العربة سيرها فوضعت الراكبين الباقيين كلا حيث يقصد ، وهي ساكتة تنظر حواليها الى البنايات الشاهقة وتتفحص وجوه المارة ويخفق قلبها كلما لمحت جنديا . ثم شعرت ان الحوذي ينظر اليها شزراً متبرما بها بعد ان تقاضاها الاجرة في بيروت قبل

ان تضع قدمها في عربته ، فشد اللجام والقى سوطه وقال :

ــ هذه عاليه ! (واردف مستهزئا) تفضلي .

ــ هل تعرف اين السجن ؟

ــ اي سجن ؟ في عاليه عشرات السجون ، والعربة لا تدخل واحداً منها !

فترجلت منكسرة فناداها وقال :

ــ اذا كنت آتية لزيارة سجين فسلي عن رشدي بك .

ــ رشدي بك !

ــ رئيس التحقيق ، رشدي بك . (وابتسم ثم ضرب بسوطه).

وقفت لا تدري من اين تذهب . رشدي بك ! رشدي بك ! رئيس التحقيق رشدي بك ! اذكت هذه الكلمة فيها املا ، وبعثت اللهفة مشوبة هذه المرة بعذاب الاستيحاش . لو قال لها اين تستطيع ان تراه ! لو دلها على وجهة ! ولكن لماذا ضحك ؟ ما معنى ضحكته تلك ؟ وجعلت تخلق في ذهنها صورة لرئيس التحقيق ، وتبحث فيها عن سبب ضحكة الخوزي ، فتراه هو الاخر خلال ضباب الظن ضاحكا فتضاحكه ، ثم تعبث لترجع الي الضحك . ولو رآها احد ورأى وجهها في تلك الساعة لما شك ان بها مسا . ثم ثابت الى نفسها فاذا هي في سوق ، عن الجانبين دكاكين وناس . فواصلت طوافها تتصفح الوجوه من هنا ومن هناك ... ثم تمتمت : « ما اسمه ؟ هل نسيت ؟ راشد ... راشد بك ... بل رشدي بك .

رشدي بك ! » ورددت ذلك مرارا .

وجازت بها فقيرة بثياب ممزقة ، على ذراعها طفل مطموس الوجه بالدمع والقذر ، فاسرعت اليها وتصدقت عليها بمتليك .

ـــ يا خالتي أتعرفين رشدي بك ؟

ـــ من ؟

ـــ رشدي بك رئيس التحقيق في الديوان العرفي .

ـــ لا . لا يا ست ، سلي في الدكاكين . الله يوفقك وينجح من لك !

واستأنفت زينة سيرهـا ، تهم بالدخول الى حانوت ثم تغادره الى التالي . حتى رأت خبزاً في واجهة فدخلت وابتاعت رغيفاً ، على غير شهوة منها الى الاكل . وطرحت على الحانوتي سؤالها ، فقال :

ـــ الك احد في السجن ؟

ـــ سامي عاصم .

ـــ سامي عاصم ؟

ـــ شاب طويل اسمر جاؤوا به من ساقية المسك منذ ثلاثة ايام .

ـــ كلهم شبان مثـل الرماح يا بنتي . من اين لي ان اعرفـه ؟ اجل ، الامر بيد رئيس التحقيق .

ـــ دلني على بيته .

ـــ ادلك على مكتبه . في البناية المجاورة للمحكمة ، في اول عاليه عليك ان ترجعي من هنا .

وكان يريد ان يكمل ولكنها ادارت ظهرها مسرعة .

ـ كأن حسني بك ينتظرها على موعد !

وهز الرجل كتفيه .

٤

استوقفت زينة في طريقها عجوزاً ، فرفعت العجوز وجهها المسنون وهتفت بها :

ـ صبية مثلك تحار كيف تقابل رشدي بك ؟ (ولفتها بنظرة من رأسها الى اخمص قدميها) ولكن اذهبي والبسي غير هذا الفسطان .

وتابعت سيرها ، فحدجتها زينة بغضب ، وتذكرت ضحكة الحوزي ... وخطت عشر خطوات اخرى ، فرفع لها عن بعد جنود منتصبون ، فلم تشك انه الديوان العرفي لما وصفوا لها من اشكاله . بنايتان كبيرتان متقاربتان على باب كل منهما حجاب يحملون بنادق على رؤوسها حراب، وللبنايتين فناء مشترك الى الشارع فيه ضباط بقلابق سوداء وبيضاء ، وازرار لماعة ، وطاقات طويلة ومهامز ، متجمعون حلقات ، يتحادثون باصوات عالية . فجعلت تدنو متفرسة بوجوههم مهتمة لحركاتهم ، والحجاب لا يحيدون رأساً

ولا ينبسون بكلمة . فاقبلت على واحد منهم فلم يلتفت فظننته لا يحفل بها فاذا هو يصوب حربته اليها ويصيح :

ــ يساق ... تشابوك !

فاجفلت وعثرت واوشكت ان تقع . وارادت ان تجوزه مواصلة سيرها ، فهددها مرة اخرى . فانقلبت الى السوق منكسرة . ودخلت الى الحانوت الذي ابتاعت منه رغيفاً وطلبت صحن فول . وقصدت الى زاوية فوجدت خوانها مشغولا فقعدت في الزاوية المقابلة .

وكان صاحب الزاوية الاولى يأكل بنهم عجيب ، ينحني مع الملعقة ويعلو بحركة متوازنة ، موقعة على خفق لسانه بعد كل لعقة . فراقها ذلك منه فجعلت تنظر اليه ، وهو مدبر ، لا ترى الا قذاله وطرفي نظارتيه وظهره الصاعد الهابط ، حتى اذا فرغ من حسائه دق بالملعقة على الصحن واستدار ، فالتقت عيناه عينيها .

ــ الخواجه خليل الملا !

وقامت اليه . وكانت قد رأته في دكان خالتها مرتين ، الاولى عند عودتها من مغارة الحورية ، والثانية في اليوم التالي وقد شرب نخبها وظل يسامر خالتها الى منتصف الليل . فالجبها سرور كبير بلقائه ، واغرتها بشاشته وحفاوته فقعدت وافضت اليه بكل ما في قلبها وهو يصغي احسن اصغاء ويربت على كتفها ويهون عليها ، ويؤكد لها انه يعرف رشدي بك شخصياً وان له عليه دالة الصديق . وزاد فتحنن على سامي وقال :

ـــ ساوصي رشدي بك به .

ونهض من فوره ، على ان تنتظره حيث هي نصف ساعة على الاكثر . ولكنه لم تختف رجلاه حتى اطل رأسه على باب الحانوت يشير اليها باصبعه ، فانت فاسر في اذنها وهأ هأ ، فادخلت يدها في صدرها وفتحت الصرة . فلم يصدق نظارتيه فازاحهما .

ـــ اياك والنشالين ! ادخلي . ادخلي . ان اولاد الحرام كثيرون .

واختليا في زاويته . فتناول من الصرة ليرة ذهبية واربعة بشالك وخرج .

صدق خليل المعلا في ميعاده حتى الكذب ، فلم يغب اكثر من عشرين دقيقة فهبت زينة الى لقائه :

ـــ ماذا ؟

ـــ اقعدي ، ولنأ كل معاً برتقالة .

وجعل يقص عليها أن رئيس التحقيق وعده بانقاذ سامي عاصم منها كافة الامر ، وانه مطلع على ما بينه وبينها من مذكرات السجين التي ضبطت في مغارة الحورية ، وانه كان ينتظر ان تأتي الى عاليه ليقابلها بنفسه ويستوضح منها بعض ما يحتاج اليه للاخذ بناصر الاخ حنانيا (ولم ينس خليل المعلا هأهأته اذ تلفظ بهذا الاسم) وانه سيأذن لها بزيارته كل يوم اذا شاءت ، ولكنه الان مشغول كثيراً ، وقد امست الدنيا ، فهو ينتظرها صباح غد في بيته .

ـــ الساعة السابعة تماما ، لا تنسي .

واضاف خليل المعلا :

ــ حبذا لو استطيع مرافقتك ! ولكني لن اكون في عاليه . تعالي ادلك على بيته .

وقادها الى طرف المدينة واشار الى قصر فخم . وقبل ان يفترقا قال :

ــ اوصيك باللطف . لا تعبسي هكذا . الا تريدين ان تخلصي سامي ؟ اضحكي . رشدي بك يحب الضحك . ها ها ها ...

وكان على زينة ان تجد مبيتاً لها فارشدها الى نزل فقير وسلمها الى صاحبته : امرأة مترهلة ، عوراء ، لا تفتأ تضحك . اخذتها من يدها وادخلتها الى « احسن غرفة عندها » فاستلقت الفتاة على سرير مخلع ، عليه لحاف وسخ ومخدة مبقورة ... المرة الثانية تنام فيها خارج بيتها ، وكانت الاولى في بيروت على باب الخان . غير ان وحشتها هذه الليلة اوجع منها البارحة ، حتى لقد ساورها شيء هو الندم ، ولكنها لم تشأ ان تسميه باسمه ، على قيامها بهذه المغامرة ... واحست بذلك الشيء ملء الغرفة المعتمة الباردة الحقيرة . فاذا طردته حل محله شيء آخر هو الشك في خليل المعلا ، ولكنها لم تشأ كذلك ان تسميه باسمه ، مع انه يعذبها ويقض مضجعها فتبعده مخادعة نفسها عنه ، محولة غضبها الى البق السارح من السرير الى عنقها وذراعيها ورجليها تطارده نفضاً ومعساً ولعناً .

٥

ضحكة الحوزي ، واستهزاءة العجوز ، ووصية خليل المعلا ... ولكن هل احد يأكل احداً ؟ ثم ليست هي باللقمة الهينة ! وهزت رأسها . ماذا يريد منها ؟ يمد اليها يده ؟ تكسرها له ! تبصق في وجهه كما فعلت بالجاويش محمد افندي الذي تجرأ عليها خلف الستارة في دكان خالتها منذ اسبوع . ستبقى على العتبة بعيدة عنه وتقول له ما تقول ... في الواقع ماذا تقول له ؟ كيف تبادئه الحديث ؟

كانت زينة تلوك هذه الافكار مرة اخيرة وهي واقفة امام منزل رشدي بك عند بوابة الحديقة ، تنتظر ان تحمي الشمس لتدخل ، فقد انت مبكرة جداً . ثم دنت تتلصص من خلال القضبان الحديدية ، فاذا سيدة تنزل السلم رافعة بيدها طرف ثوبها الفضفاض ، فارتدت زينة الى الجدار مستخفية . فرمقتها السيدة بعينين مكحولتين حتى الاذنين وقلبت شفتها ومشت . فانشأت زينة تقلدها تحديا وازدراء . ثم انكفأت فدخلت رابطة الجأش ، فاذا هي بعياط وضوضاء . فاخذها فضول غريب لمعرفة ما يجري ، ونسيت ما جاءت من اجله فجعلت تقدم رجلا فرجلا وتحتمي بشجرة بعد شجرة ... الكلام بالتركية ، جدال عنيف وشتائم ولبط جزمات . حينئذ ثاب اليها شعورها

بحقيقة حالها واحست بحاجة الى الهرب من هذا المكان . وكأن قدميها لصقتا بتراب الجنينة ، تشد بهما الى البوابة فلا تطيعان . ثم رأت ضابطاً ضخماً – هذا رشدي بك ! – ينهب السلم نهباً ويهدد السماء بسوط يحمله ، وخلفه ضابط آخر يكاد يزل على كل درجة . فتحاشتهما حتى جاوزاها ، فانسلت الى الشارع . وظلت تركض وراءهما كالبلهاء حتى وصلا الى مركز المحكمة ، فوقفت دون الخفراء لاهثة . ولبثت مكانها دقائق طويلة على يقينها بان رشدي بك لو طلع لها لما تجاسرت على الدنو منه . ثم احست بيد على ثوبها وانتصب لها صبي وقال :

— تعالي كلمي امي .

قادها الصبي الى الطبقة السفلى من بناية الديوان العرفي . مطبخ كبير ، وامرأة طويلة ذات رشاقة وزلاقة وحركات ذكرتها خالتها وردة . كانت تلك المرأة متعهدة طعام السجناء ، ولها من اجل ذلك صلة بالضباط وبرئيس التحقيق خاصة ، تساوم اهل السجناء على الحصول لهم على الاذون ، ويسهل رشدي بك مهمتها لامور كثيرة . اذا كان التجسس على الزائرين اعظمها شأناً في نظر الدولة فليس الاهها في نظره هو ، حينما يخلو الى عبثه كل مساء ...

انتهت المساومة بين زينة وبينها على مجيدي قبضته منها وصعدت الى الطابق الثاني . ولكنها لما رجعت بالاذن بعد خمس دقائق لم تسلمه اليها الا بشلك للصبي ليوصلها الى السجن رقم ٦ .

٦

كان السجن الذي فيه سامي يبعد بضع مئات من الامتار . ولكن زينة وجدتها فرسخاً ، فلما اشار الصبي ان « هذا ! » ارتعدت فرائصها . وتناول احد الخفيرين المنتصبين على الباب الورقة من يدها فنظر فيها ثم دخل الى الحارس فاراه اياها فقام الحارس الى الفتاة يجسها من هنا ومن هنا ، وهي تتفلت من يديه الوقحتين ، حتى اذا وصل الى صدرها اجفلت ، فصاح بها ، فاخرجت الصرة :

ـــ انا اريك اياها .

فلما بصر بالمجيديات انبسطت اساريره على غبطة لا حد لها . ومشى امامها الى غرفة سامي وفتح بابها وصاح به :

ـــ هيه ! هيه ! » .

ـــ سامي !

ولم تستطع ان تزيد فالتوت شفتاها بالبكاء ، فحدجها الحارس وخرج .

ـــ جئت الى هنا يا زينة !

لقد بدله السجن على قلة هذه الايام التي قضاها فيه تبديلا . خبا لمعان عينيه وغشيتها ضبابة باهتة مخيفة ، وكأن جبينه الواسع العالي

قد ضاق وانخفض، وامتقع لون شفتيه وارتخت سفلاهما وترهلت. ولم يقتصر هذا التبديل على هيئته بل شعرت زينة انه نال من نفسه ايضاً، واحست لذلك بالم قبض قلبها بسنين محدودتين. وزادها جو هذه الغرفة، ليس فيها من متاع الدنيا الا حصير عتيق قذر واحرام ممزق، قد رسمت الرطوبة على حيطانها اشكالا بشعة وانبعثت العفونة منها براحة ثقيلة مائعة، معتمة ينفذ اليها بعض النور من طاقة تحت السقف الى الجهة الغربية، نسجت عليها العنكبوت خيوطها امعاناً في البخل على السجين بالنهار وشمسه.

— كنت كالمجنونة لما علمت. ساقية المسك كلها تقول انهم ضربوك. رحت الى المغارة في المساء ادور فيها. ظننتك ذهبت الى كسروان دون ان تخبرني. واخذت ابحث في المغارة عن شيء، عن ورقة تتركها لي، عن علامة. ولما عدت الى البيت اخبرني جدي، ودمعت عيناه، وبكى طام معنا. هل عرفوا بحادثتك مع العسكري؟ لا تقر لهم، اياك ان تقر بها!

— هس هس!

ونظر صوب الباب. فخفضت صوتها:

— انا اخبرت جدي. لم ادر من اخبر كامل افندي ايضاً. لو ترى جزعه لوقوعك في يد الديوان العرفي! جدي يوصيك: لا تقر!

فابتسم السجين هادئاً، فقالت:

— هل اقررت؟

ـ يجب ان يغفر لي جدك كل ما سببته له يا زينة . اما انت فستغفرين . انا واثق انك تغفرين .

ـ ماذا تقول ؟ وبماذا اسأت الينا ؟

ـ اسكتي ! الجدران هنا لها آذان يا زينة . اخاف ان يظنوا بك .

ـ الحارس على مكتبه (ونظرت من الباب) يقلب هدية صغيرة حملتها لك ... ولك ايضاً هدية من جدي . خذ .

وارادت ان تدس له الصرة .

ـ ما هذا ؟

ـ خبثها . جدي يعلم ان طعام السجن لا يكفي .

فرفض شامخاً :

ـ انتم في حاجة اكثر مني .

وباعدها عن الموضوع ، يسألها كيف تركها جدها تأتي وحدها الى عاليه ، ويسألها عن كامل افندي ، وعن طام ، وعن خالتها ... فاذا :

ـ يا افندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

فادارت زينة وجهها وقد فاجأها هذا الصوت المذعور الابح يشق فضاء السجن . فقال سامي :

ـ ابله يظن انه اذا نادى بحياة السلطان عفوا عنه . ولو رحموا لاكتفوا ببلاهته واطلقوا سراحه . سيسكت الساعة . لقد دخل الحارس بسوطه لينهال عليه به حتى يغمى عليه ... فاذا عاد الى وعيه

عاد الى الصراخ : بادي شاهم ! ان منظر هـذا المسكين يؤلمني اكثر مما يؤلمني سجني . انام وصوته باذني : بادشاهم ...

ـــ بادي شاهم جوق يا شاه ! يا افندي يا افندي ! آه آ آ آ ...

ـــ أتسمعين ؟.. ها ، سكت .

انصتت زينة مضطربة . ثم نظرت الى سامي وقالت :

ـــ حلمت حلماً هذا الصباح . كنت بين النـائمة والصاحية . حلم غريب هائل . رأيتني في ارض واسعة ، سهل كبير ، كبير لا حدود له ، لا جبال ولا اودية ولا سواقي ... رمل على مد النظر وشمس تكوي كياً . وانا امشي في السهل وتغرق رجلاي في الرمل . امشي ، امشي ثم استكشف فلا ارى شيئاً ، والشمس تصب على رأسي . ثم عطشت وجف لساني فالتصق بحنكي . احاول ان اصيح : عطشانة عطشانة ! فيختنق صوتي ... وكنت اسمـع خلفي اصواتاً وشيئاً يقول لي : التفتي خلفك فربما كان مع اصحاب هذه الاصوات ماء . ولكنني لم اتجرأ على ذلك . اياما وليالي الله يعلم عددهـا مشيت حافية حتى تشققت قدماي وسال منهما الدم . فاذا برجـل يتدار كني بقربته فاشرب فينصب الماء على لساني مراً كالصبر ولكنه لا يصل الى حلقي حتى يصير كالشهد واحلى . فاردت ان اشرب ايضـاً فناديت الرجل فابتعد عني وهو يبتسم حتى توارى . ثم لاح لي في الافق مثل الضباب يتحرك صوبي وينتشر حتى حجب السماء . ثم اذا هنالك مثل النقاط تتململ تحت الضباب ، واذا هذه النقاط خرفان لا عـد لهـا ، قطيع

عرض السهل متراص متراحم يقفز في ركضه قفزاً كما لم ار في حياتي خرفاناً تركض قط . وانا اتقدم وقلبي يهبط في صدري ويعلو . فاذا ذئب يحك بي ويمرق كالسهم فالتفت خلفي فرأيت ذئابا كثيرة ، كثيرة . قطيع عرض السهل تهجم مكشرة عن انيابها وعواؤها يملأ الجو . وانا اركض دائماً واقع واقوم ، ثم اركض ، اركض ...

واذا بي اسقط هذه المرة عاجزة عن النهوض واعض الارض. احداق مذعورة بالذئاب الهاجمة والتمس مهربا ولات مهرب ! فادخل رأسي بين كفي واغمض اجفاني على افظع ميتة . فاذا صوت يناديني باسمي « زينة ! زينة ! » الا ازال في قيد الحياة ؟ ورفعت وجهي فرأيت الذي يناديني خروفا يتكلم بلغة الانسان ! ونظرت الى نفسي فاذا انا واحدة من القطيع : نعجة ولي الة ! وتلاقى افقا الغبار من هنا ومن هنا ومدا فوقنا رواقا لا اول له ولا آخر . فسألت الخروف الذي خاطبني : كيف تقاتل الخرفان ذئابا ؟ فاذا به قد تحول اسدا ، واذا الخرفان حواليه اسود جميعاً وانا لبوءة ... وزأر اسد فينا زأرة عظيمة تجاوب صداها كالرعد في البرية ، ووثب الى الذئاب ، والتحم القطيعان في معركة هائلة ، واختلط الزئير بالعواء حتى طبق السماء ، وتناثرت الاشلاء عضاً ونهشاً وكسراً ، وسالت الدماء كالانهر . واهويت انا على ذئب فانشبت اظافري وانيابي فيه . ثم حطمت عظام ثان وثالث ورابع ، انتزع قلوبها وامصها مصاً . وشردت عن قطيعي فوصلت الى تلة ونشقت هواء طيباً ، ونظرت الى نفسي فاذا انا قد

عدت انا ، انسانة ضعيفة ، مسكينة ، ابكي وأجهش بالبكاء ...

حينئذ خرج الحارس فظنته زينة آتياً اليها لينذرها بانتهاء الزيارة ، فتوقفت عن الكلام فهتف سامي وقد بلع ريقاً لذيذاً:

ـــ اكملي ، اكملي !

ـــ ... واستفقت فرأيت دموعي قد بللت اللحاف .

لم يعتم الحارس ان اقبل وفي شدقيه لقمة يعوج بها شارباه . ووقف على الباب يلوكها ناظراً الى الزائرة والسجين :

ـــ يللا !

صاحها صيحة اطارت من فمه عليها رشاش حلوى! فالتفت سامي الى زينة وقد زحمته الضحكة ، فاذا هي مشغولة بدس الصرة اليه من وراء ظهره ، فما كان من الحارس الا ان هجم مزمجراً وضرب بيده فاستولى على الصرة واستاق الفتاة من كتفها .

ـــ يا افندي ، يا افندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

فالتفتت زينة الى غرفة المنادي ، فاذا على طاقتها وجه ابو زيد !

٧

ظل ابو زيد الشغل الشاغل للسجن ، الى ان كان ذات مساء فجاء جنديان فكبلا يديه بالحديد واخرجاه . فاطلت الرؤوس على الطاقات

وضج السجناء صياحا وهمهمة وضربا على الحيطان والابواب . ونظر سامي فرأى صاحب بادي شاهم يخرج بين خفيريه آية مذلة ، يلوي رأسه الى كتفه ويطوف عينيه الملتاعتين ، وقد ارتخى شارباه ارتخاء لا قيام بعده . وكأن ذلك لم يكف فانفكت تكة سرواله على الباب فاراد شدها فلم تطعه يداه المكبلتان فاثبتها على وسطه ، فكانت له هيئة المصاب بمغص . فلم يتمالك سجين ان صاح هازئاً :

ـــ بادي شاهم جوق يا شاه .

واتبعها بقهقهة فتجاوبت القهقهات من زندان الى زندان . فاستدار الحارس على عقبيه لعله يدهم احداً بالجرم المشهود ، فسكتت الضحكات فجأة ، وحل محلها غمغمة منكرة كلما نظر الحارس الى شباك ظاناً انها منه قابله صاحبه بوجه هادىء كالنحاس ، فما يزيده ذلك الا غيظاً . والغمغمة ما تفتأ متواصلة وهو يثب الى هنا وههنا كالحيوان المربوط ... وكانت تلك طريقة السجناء في طلب الاستنطاق ، يلجأون اليها كلما اتى رسولا رئيس التحقيق فأخرجا احداً منهم . وتذكر سامي انهم فعلوا منذ ايام ما يفعلون الان حينما كان دور رفيقه حنا الدهان . ابرياء في اكثريتهم ، يعتقدون انهم ما يمثلون امام رئيس التحقيق حتى تنصع براءتهم فيطلق سراحهم . وقد وثق اعتقادهم هذا ان حنا الدهان خرج ولم يعد وان اخرين قبله خرجوا ولم يعودوا ... وبدلا من ان تسكت الغمغمة تحت التهديد تضاعفت وامتدت ، فجن جنون الحارس فكشر وضرب

بسوطه على اقرب طاقة . ولكن سامي كان قد احتاط للامر فاحدثت الضربة على الشبكة صفقة خرساء، ووقف يرسل الى ضاربه من خلالها ابتسامة ساخرة . وتهيأ الحارس لفتح الباب واقتحام السجين فاذا الجنديان يظهران من جديد ويناديان معا :

ــ سامي عاصم !

لم يكن ينتظر ان يجيء دوره بهذه السرعة . وعلى غير قصد منه تفقد زناره قبل ان يدخل الجنديان ويضعا يديه في القيد .

ساقاه الى بناية الديوان العرفي وادخلاه الى غرفة عرفها ، هي التي ادخلوه اليها فور وصوله الى عاليه . وعرف الضابط ، هو نفسه ذو الرقبة الثخينة والمنخارين المفتوحين . وفي الزاوية كاتب وراء طاولة صغيرة غارق في اوراقه . وكأن رشدي بك لم يشعر بدخول سامي فلم يلتفت اليه وظل يتحدث الى الكاتب . ثم استوى عاقداً حاجبيه ورمى السجين بنظرة غضب، اعقبها بابتسامة طفت على شاربيه كالشعاع الكاذب . ثم دفع الى احد الجنديين ورقة فخرجا بسامي فشيعهم الى الباب وخبطه .

*

كانت السجون كثيرة . بيوت يطرد الاتراك اهلها ، ويزجون فيها الشبان بالعشرات والمئات ، ضحايا الوشايات الكاذبة والسعايات الدنيئة . اما مغذو النهضة القومية وممدو الانتقاض على الدولة ، فلم توفق الا الى القليل منهم ، وجعلت لهم من الطبقة السفلى في

بناية المحكمة العسكرية سجناً خاصاً . انزله الجنديان ودخلا به قبواً كبيراً في سقفه قنديل ضئيل . فاستولت على سامي رهبة لا عهد له بها ، لا يدري أهي من هؤلاء الجنود الواقفين كالانصاب الرخامية الى الجانبين ، ام من هذا الصمت الشامل الذي لم يكن يسمع فيه الا غرغرة القنديل ، وكأنه هو الآخر مخلوق يحتضر .

تفحص الزندان الذي القي فيه فاذا سرير و كرسي وطاولة صغيرة وابريق ماء . وعلى غير عطش منه تناول الابريق ورفعه الى فمه ، ثم قعد يتساءل لماذا نقلوه وما ينتظره بعد هذا . وانتهى الى الترجيح انهم قرروا استنطاقه في غد ، فارتاح الى الفكرة واستلقى على سريره ، فاحدثت حدائده المخلعة صرصرة منكرة .

ولكنه لم يجد الى النوم حيلة ، فعاد الى القعود ينظر الى رئيس الحراس يتمشى في الرواق ذهابا وايابا وخياله يطول بالضوء ويقصر، ويقصر ويطول ، ويتخذ في تقلصه وامتداده اشكالا غريبة ...

واختفى الخيال فجأة ، ثم اقبل صاحبه حاملا احراما وقال :

ــ خذ ، هذا من عمر حمد !

ودفعه اليه فتلقاه سامي وفتح عينيه وفمه ، ولكن رئيس الحراس عقد بين حاجبيه وتابع بصوته الاجش :

ــ الان يجب ان تنام .

ومد يده الضخمة الى الباب واقفله على السجين .

٨

وتعاقبت الايام ...

ونسيت زينة ما نالها على اثر عودتها من عاليه تأنيباً من جدهـا، ولكما من خالتها وشد شعر . ولو ان الامر وقف عند هـذا الحد لاحتملته بصبر وسرور . ولكن الشيء الذي ما يزال يحز في نفسها ان وردة اشركت الشيخ في التبعة ، فرفعت يدها عليـه واوشكت لولا الحياء ان تضربه . وهـا قد مضى على الحادث شهر ونيف وابو سعيد منعزل في غرفتـه يبسط فوق الموقد كفيه المعروقتين ويسامر همومه طول النهار وهزيعاً من الليل ، لا يتوجه الى كنته بكلمـة ولا يطأ دكانها بقدم .

وكان اشد ما يقلقـه لا الخوف على نفسه ، « فلم يبق من العمر اكثر مما مضى » كما يقول ، بل الخوف على زينة وطام . فان الجوع يهجم بخطـوات الذئب ، ويجوس المنازل المجاورة ، يأخذ منها الكبير والصغير والمرأة والرجـل ، واحداً بعد واحد وجماعة اثر جماعة ، ووردة لا تطعم زينة رغيفها اليابس الا مغموساً باحد اثنين : العـار او الدم . ويذهب بهـا البخل الى القسوة حتى على طام فتأبى الا ان تحمل كتفاه الطريتان نصيبهما من مشاق المعيشة .

*

الى جانب الطرق العامة ، المتعرجة التي تصل بين مدن الشاطىء وقرى الجبل في لبنان، دروب قصيرة للمكارين والمشاة صقلت الحوافر والاقدام حجارتها على كر الزمان ، فهي ناعمة ملساء تلمع على الشمس لمعان الفضة ، ويزلق عليها المطر في الشتاء . بعضها باق على ما وصفه واصفوه قبل العهد بالعربات والسيارات ، والبعض الآخر قلقلته دعسة دابة باهظة الحمل ، او عدا عليه سيل جارف فأزاحه من محله . تذهب هذه الدروب قافزة فوق الطرق العامة من رابية الى واد ، ومن سفح الى منبسط ، في العراء هنا، وفي غابة من الصنوبر هناك، وفي دغل من الملول والبلان هنالك ، تؤنس وحشتها في اكثر ساعات النهار والليل جلاجل البغال والحمير بطنينها ، ومواويل اصحابها المتجاوبة الاصداء .

في درب من هذه الدروب الوعرة ، عشية ذلك اليوم من آذار ، فتاة تمشي ساندة سلة كبيرة على كتفها ، وخلفها صبي يحني ظهره بسلة اصغر ، وينقل شبكة الحبل بين يديه نقلا متسارعا ، وقد نفخ العبء اوداجه وارخى رجليه ، ولكنه لا يتجاسر على فتح فيه بشكوى . فاذا ادارت وجهها اليه قوم من ظهره جهده ، وتبادلا ابتسامة وواصلا السير . والدرب ما ينفك صعوداً ، والفتاة ترمق السماء من الغرب ، المرة بعد المرة وتستحث رفيقها « يللا ! يللا ! الدنيا تنذر بالمطر ! » فيوسع خطاه شاداً على الحبل ، ويكرر سؤاله « ألا يزال البيت بعيداً ؟ » فتعلله بقرب الوصول ، فيعود اليه النشاط

ولكن الدرب لا ينتهي الا الى درب اخر ، فدعاها الى الراحة قليلا فما ردت عليه ، فشكا الجوع فلم تحفل ، فتوقف فنهرته « امش امش ! » فخانته قواه وحط سلته ، ومد يده اليها .

ــ اتركها ! اتركها ! الا تعرف امك ؟ ما يخلصني منها ؟

ــ جوعان ، يا اختي !

ــ امك لا تصدقني ، وتتهمني بها .

ــ اقول لها « يا امي انا اكلت برتقالة » برتقالة واحدة ... هاه هه ! انظري هذه ، صفراء ، ممصوصة لا يشتريها احد .

ورفعها الى فمه ، فرفعت يدها وهمت به ، فافلت الحبة ولكن عينه ظلت تتردد بينها وبين اخته . وجعل يفطفط ويفحص الارض برجله . ثم سوى غطاء سلته عابساً :

ــ اتظنين انني سآكلها ! لا جميلك ولا جميل امي . اجني فيها ثلاثون متليكا . اخذ متليكين واقول لامي « اعطيني برتقالة وهذا ثمنها ! » واختار احسن واحدة... عندما كان البستاني يزن لك درت وراءه وقطفت حبة . هذه هي . لم اخبرك لئلا تضربيني .

ــ كذاب ! تلفق لي هذه الحكاية لتأكلها .

ــ هذه ليست لي ولا لاحد .

ــ لمن ؟

ــ سأعطيك اياها لتأخذيها للخواجه سامي . الا تريدين ان تذهبي الى عاليه ؟

ــ هل تحب سامي يا طام ؟

فخفض رأسه :

ــ كثيراً ، كثيراً . لماذا لا يهرب من السجن ؟ انا لو كنت محله لهربت .

ــ خذ برتقالة من سلتي . اتعجبك هذه ؟

فانتصب واقفاً وعاونته على حمل عبثه . فسبقها يلتهم البرتقالة ويقضم لبابها باسنانه المحددة . ثم لم يلبث ان جاراها ، ثم تأخر عنها ، فاضطرت ان ترضيه بمحطة ثانية ... من محطة الى محطة ، والمسافات بين المحطات تقصر ، والبيت ما يبرح بعيداً قريباً بين سؤاله وجوابها ، حتى اظلمت الدنيا بوجهه وطرحه اليأس على حجر فمالت سلته وتناثر ما فيها ودموعه . فارسلت زينة سبة اخرى الى خالتها وانثنت تلم حبات البرتقال ثم حملت السلتين معاً ، الكبرى على كتفها والصغرى بيدها ، فنهض طام فرحا يسايرها ويرفع بين الخطوة والخطوة كفاً مساعدة الى كتفها . وطفقت تسرع ناظرة الى المساء بجزع فقال :

ــ امشينا كل هذا المشي في النزول ؟

ثم وقع وقام ... ثم استسلم لسقطة كبيرة تاركا زينة وحدها . فلم تفطن اليه الا على مسافة ، فنادته فلم يجب ، فحطت السلتين ووثبت اليه فاتقاها بكوعه الصغير وانكمش حتى لامس خده التراب .

ــ اختي ، اختي ! وحياتك اتركيني هنا ، وغداً تمرين بي

وتأخذيني .

فوقفت يدها دونه . وانها لكذلك اذ ارتعشت لقطرة ماء على انفها ، فرفعت عينيها الى السماء ، وما كادت حتى انهمر المطر . فجذبت ابنها الى كنف صنوبرة . ولبث كلاهما في حمى الشجرة طويلا والسماء لا تكف ، والريح تشتد وتصفر ، والصبي يغرق في طوق قميصه ويتضاءل صاكا بسنين له نافرتين ، ويحدج زينة بخوف ، كأن تبعة المطر والريح عليه ، فتتدارك ه بذراعها وتضمه اليها .

ومر مكاري في اول الدرب يضرب حماره ويدفع بعجزه لاجتياز حافة ، فبادرت اليه :

ـــ الله يرد عن اولادك ! تضع لي سلة صغيرة على ظهر هذه الدابة .

فلم يسمعها المكاري لضجيج العاصفة .

ـــ سلة صغيرة ، رطل برتقال .

ـــ الى اين ؟

ـــ الى ساقية المسك . هنا .

ـــ طريقي ليست الى ساقية المسك . حا حا !

ورد كوفيته على اذنيه . فبقيت تنظر اليه حتى توارى . ثم انقلبت وقد عزمت عزماء اذنت السلتين فزادت من الصغيرة على الكبيرة ، ووضعت حبتين في جيبها ، وعقدت طرفي ثوبها من الذيلين على ثلاث

بثلاث ، ففضلت ثمان ، فدفعت الى طام اثنتين :

ــ كل ، كل نكاية بامك !

فاكلهما مدهوشاً ، واطعمته الثالثة غصباً ، واكلت هي حتى زحم الماء حلقها . وحارت ما تصنع بالاثنتين الباقيتين ، فتركتهما اخيراً في السلة وحملتها ودارت في الدغل فخبأتها لغسد بين وزالتين متلاصقتين ، والقت فوق قضبانهما المتشابكة حجراً ، وسوت الستر على كنزها ، ثم تراجعت فما بان منه شيء .

ونادت اخاها فارتقى صخراً وركب على ظهرها لافاً ذراعيه حول عنقها . فمشت تغالب العاصفة الهوجاء وتتلقى ضربات المطر على خديها ، ولكنها تمشي دائماً ، تنقل السلة الثقيلة من يد الى يد ، وتدفع رأسها في الدرب الصاعد ، يغرز الحصى في قدميها الحافيتين فلا تحس ، ويكر بعضه مهزوما الى قعر الوادي .

٩

هذه المرة قامت وردة الى العتبة فاستقبلت زينة بكثير من الحفاوة واستمعت الى افادتها عن السلة الاخرى ببشاشة ، وزادت في الرقة فوضعت لها رغيفين ابيضين وصحن فاصولية فيه حذة لحم .

ــ كلي يا بنتي ، كلي .

راب الفتاة هذا الحنان المفاجىء، وهذا الكرم غير المنتظر من خالتها ونظرت في الحانوت فلم تر ما ينير ظلمتها . كانت الساعة قد جاوزت السابعة والموائد مستوحشة ليس الا ابو زيد في الزاوية يثني عنقه ويعلق عينيه بصندوق الخبز... قد قنع من وردة ، بعد هول ما قاساه من اجلها في الديوان العرفي ، ان يعود الى وظيفته السابقة : الوقوف على الباب ومراقبة الطريق في سهرات السكر والقمار. وحلف بشرفه وسيدة المعونات ، عليها السلام، لا يتناول عرقا ابدا لئلا يزين له تهديدا آخر بافشاء السر ويعرضه لنزهة ثانية الى عالية . شأنه شأن الكلب الامين يزحف الى سيده متمرغا على قدميه غير حافل بما اصابه في السعي وراء الطريدة من جهد وما ترك بين الاشواك من دم جلده .

حملت زينة عشاءها الى غرفة جدها وقعدت بجانب الموقد. فتناولته اياه . ولم تلبث ان هومت على الشبع والدفء . فدعاها ابو سعيد الى النوم وذهب الى فراشه . كانت البروق تتدافع بسرعة وتشق النوافذ فجرت الفتاة لحافها الى فوق رأسها وتجمعت تحته مستسلمة الى اهتزازة لذيذة . واخذها سلطان الكرى وساعده ما لقيته في نهارها من مشقة واهوال ، فغرقت في دنيا الراحة والسكينة.

واستمرت البروق ساعة ثم قصفت الرعود واهوت السماء بزخ من المطر. وتململت زينة بين الصاحية والغافية وسوت غطاءها فانسلت بين كتفيها نسمة مثلجة . ثم ارتج البيت برعدة عظيمة ،

وخبطت الرياح على الشبابيك بالبرد وثارت الطبيعة ثورتها . فحاولت زينة ان تصم اذنيها ، وخيل اليها بعض الحين انها وفقت الى ذلك وانها اغمضت عينيها باغفاءة . ثم فتحتها وقد ازعجها أكثر من الرعود وضرب البرد على النوافذ صفقات مشوشة ظنتها باديء ذي بدء فعل الرياح في اغصان الازدرخة امام المراح . ثم وضحت الصفقات فاذا هي هنا في الدكان ، واذا هي محاورة بالسنة بشر : « اتكون خالتي سهرانة الى هذه الساعة ؟ » ولم تشغل الفتاة فكرها طويلا ، فقد كانت وردة معتادة ان تحيي الليل الى الفجر احيانا ، فعادت تحاول النوم فاذا الاصوات تعلو ومعها صيحات ... اصيحات هي ام ضحكات ؟... فلتكن ما تكون ، ما هم زينة منها !

وادارت ظهرها ووطنت نفسها على الرقاد . ثم وثبت قاعدة وقد فتح الباب بين الغرفة والدكان بعنف . وارادت ان تصيح ، فارتد الباب بمثل العنف الذي فتح فيه ، ودارت وراءه مصاولة بالاجسام مع شتائم تركية وعربية . فقامت زينة حافية على البلاط ومشت الى الباب وامسكت بمفتاحه الكبير البارد فلم تطعها يداها لايصاده . وقفت تميل باذنها ، والعراك في الحانوت يشتد ، واسمها ، اسمها هي « زينة » ، يتردد في صوت خيل اليها انها تعرفه . فوضعت عينها على الخصاص لعلها ترى شيئاً فاذا خالتها وجندي نصف عار يتماسكان يدفع رأسه هاجما وهي تصده ، وتلتمس كفه لتعضها ... ثم ابتعدا وغابا ... وسكنت الضجة واعقبها لهاث المتشاجرين . فلم يهدىء

ذلك من روع زينة واحست قلبها يذهب بين ضلوعها ويجيء كطارقة الجرس . وندمت ان لم تقدم على ايصاد الباب خلال الضجة ، اذن لكان الصرير ضاع فيها . وحارت ما تفعل ، لا تجسر ان تدير المفتاح ولا ان تعود الى فراشها والباب غير موصد . فاذا بالاثنين يستأنفان العراك بعد هدنتهما القصيرة ، سكوتاً هذه المرة لا جدال ولا سباب . ولم تفكر زينة بوضع عينها على الخصاص ، وعن لها ان تستغيث بجدها فخانها صوتها ، ثم عن لها ان تقتحم الباب ، فاذا بوقع اقدامها يقترب ، فضربت بكلتا يديها على المفتاح تضغطه جهدها وتحرص في الوقت نفسه على ان لا تحركه فيصر ، والمصاولة وراء الباب مستمرة ودفتاه تتلقيان الضرب واللبط والهوي . فانتهزتها فرصة فادارت المفتاح بتؤدة ، وظلت مكانها تنتظر ولا تكاد تسمع غير ضجة رأسها ، ثم نظرت من شق الباب فرأت الجندي وخالتها... ولكنها لا تريد ان ترى ،فسترت وجهها بكفيها وانقلبت الى فراشها .

*

استفاقت وردة مبكرة وانتظرت حتى نزل ابو سعيد عند الصبح، فدخلت تدور حول زينة وعلى وجهها كلام . وكانت زينة جنب الموقد تغالب الحطب كسراً وخبطاً وتنفخ في النار .

وفتحت وردة فمها اخيراً :

— الا تريدين ان تأكلي ؟ ... كان الطقس رديئاً في الليل ...

فلم تلتفت وظلت تنفخ والرماد يتطاير على وجهها ووجه خالتها .

ــ اسألك ، الست جائعة ؟

ــ لا .

ــ الا تنزلين الى انطلياس اليوم ؟

ــ لا .

ــ ولا تقعدين في الدكان ؟ اذن موتي جوعا اكراما لسامي عاصم !

ودقت قبضة على قبضة ... وسمعت وقع قدمي ابو سعيد فاردفت :

ــ انت وجدك النحس !

وخرجت . فعادت زينة الى النفيخ ، فلما وصل جدها وسألها لماذا تبكي حولت وجهها وقالت :

ــ لا ابكي يا جدي ، بل طلع الرماد الى عيني .

واجهشت ، فتناول الملقط منها وقامت تطل من النافذة ، فقال :

ــ اقعدي هنا . لن ادعك تنزلين اليوم .

١٠

كان الصباح جميلا ، قد صفت السماء وتلألأت ، وفاحت من الارض رائحة زكية وهدأ كل شيء في الطبيعة فلا يسمع الا خرير الساقية في الوادي القريب .

تأملت زينة في هذا النهار فافراها صحوه. وبالرغم من محاولات ابو سعيد اصرت على النزول ، فاخذت من خالتها رأسمال كل يوم وحملت سلتها ... وهمت ان تهمس في اذن جدها بشيء ، ثم هزت بكتفيها ومشت .

قصدت الى بيروت وباتت ليلتها في الخان الذي باتت فيه من قبل ، وغدت في الصباح تواصل طريقها الى عاليه سيراً على قدميها الحافيتين فبلغتها قبيل الظهر، فانتعلت وذهبت تواً الى صاحبتها ونقدتها الجيدي قطعاً من بشالك ومتاليك لتستحصل لها على الاذن .

ادخلها رئيس الحراس الى زندان سامي ولم يفتشها بل اكتفى بان اوصاها ولا كلمة خارجة عن المجاملات . ولم يكن سامي ينتظر زيارتها في تلك الساعة على كثرة افتكاره فيها . فقام وفي عينيه حفاوة المحبة ودهشة المفاجأة ، فشعرت حالا بفرق ما بين هذه الزيارة وزيارتها الاولى ، وداخلها من اجل ذلك سرور كبير . فقعدت على حافة الكرسي بحياء تشوبه الخشية ، وبسطت كفيها على ركبتيها . وجلس السجين قبالتها على السرير يردد النظر بينها وبين شفيق افندي ، ينتظره ان يغادرهما الى شأنه فينصرفان الى شأنهما ... غير انه بقي واقفاً على العتبة مديرا ظهره وماشـلا باذنه . واخذت زينة تقلد سامي عفواً وتحدج رئيس الحراس بعين شزراء. وكأنه شعر بها فاقبل ممسكا بساعته وقال :

— مضى من الوقت دقيقة ونصف .

ورفع وجهه القاسي الى زينة فاضطربت في اعماقها .

ــ بقي لك ثلاث دقائق ونصف . هذا هو القانون .

ورجع الى موقفه ، فهتف سامي :

ــ أتريد ان تتركنا ؟

فلم يلتفت ، فتابع :

ــ الظلام كاف ، فلا تزده بجثتك !

فاستدار رئيس الحراس فاستوت زينة واقفة بينها وقد حدثتها نفسها بشر . ولكن شفيق افندي قطب حاجبيه وقال :

ــ يجب ان احضر الحديث . هذا هو القانون .

وكان في صوته رباطة جأش فعلت ما لم يفعله تهديد قط في الديوان العرفي وسجونه . فاطمأنت زينة بعض الاطمئنان ، واطرق سامي .

ماذا يقول لها ؟ الواقع انه لم يكن يشتهي ان يقول لها شيئاً ، ففمه محتاج الى تبريد قلبه بغير الكلام . كان الحب يتدفق في دمائه موجاً حتى يصل الى حلقه فيكاد يخنقه ، وتطل الرغبات من عينيه كالاظافر فيردهما عن الفتاة لا استحياء بل عجزاً عن الفتك ، وهذا الجبل راسٍ على العتبة ، وهذه الحراب قائمة في الرواق ...

لقد مضت عليه ، في السجن ، ساعات كان يحس فيها ان المرأة هي كل شيء في الدنيا ، وانه بدونها مخلوق مضطر الى احتقار نفسه. وها هي ذي المرأة التي يحبها بين يديه ما يستطيع ان يطوقها بذراع

او يلصق على عنقها شفة . وهي ، لسذاجتها ، ما تزال تسأله عن صحته ومأكله ومشربه ...

ولم ينتبه الا على شفيق افندي يدعو الزائرة الى الخروج . حينئذ زالت الغشاوة عن عينيه ورأى زينة بنحمها ودمها على قيد شبر منه ، فلم يكن الا ان يضمها الى صدره بكل ما اوتي من قوة . ولكنه لم يفعل ودس كفه يبحث عن ذخيرة عود الصليب ليقول — كما يقول الطفل — انه ما يزال حريصاً عليها يتذكرها بها كل يوم . وكانت زينة الى جانبه فاغتنمتها ثانية غالية ومالت عليه تقبله ، ثم مسحت شفتيها بكتفه ...

وخرجت .

واطل سامي يشيعها ، فاذا سجين في الحجرة المقابلة يرسل اليه ابتسامة وغمزة . ولم يكن مهيئاً في ذلك الحين لمثل هذه المعابثة فصدف عنه وانقلب الى زندانه .

١١

طال العهد على سامي وهو مطروح في هذا السجن الرهيب ، فتشربت نفسه رطوبة الحيطان ، وغيم في عينيه ظلام هذه الغرفة الضيقة ، حتى لكان يدخل في روعه احياناً انه انما خلق للسجن

فليس له من الماضي اكثر ما للمستيقظ من حلم ، ومن المستقبل الا شبح اسود مبهم ، فيوشك ان يستسلم الى القضاء يفعل به ما يشاء . ويثور احيانا اخرى فيقوم متمشيا ، لاعنا ، كافرا ، يود لو يهجم على رئيس الحراس ويفترسه باسنانه . فقد كان شفيق افندي في سكوته الدائم العابس ، وتوقيع قدميه على البلاط من اول النهار الى الليل ، يزعجه كأنه يدعس في قلبه . ولما اقبل عليه ذات صباح وقال له « الى الاستنطاق ! » صعّد فيه سامي بصره متعجبا فكرر :

— سآخذك الان الى الاستنطاق .

وخيل اليه ان في صوت شفيق افندي ، على خشونته ، شيئا من العذوبة . أكان فيه عذوبة حقا ، ام بحة خدعت اذنيه ؟ لا يدري ، ولكنه احس بدفقة من الحياة جديدة تغمر كيانه وتنحدر باردة من رقبته الى كتفيه الى ظهره . فقد طالما اشتاق الاستنطاق للدفاع عن نفسه ... وابتعد رئيس الحراس يخاطب جنديا ، ثم عاد اليه فوضع في يديه القيد الحديدي وقال :

— امش !

طلع به شفيق افندي والجندي الى غرفة الاستنطاق . فنظر السجين فرأى الكاتب على طاولته ورشدي بك على الطاولة الاخرى ، هو هو بمنخريه المفتوحتين وفكه القبيح القاحم ، مع عناية هذه المرة بشعراته القليلة فهي مسدولة تلمع على صلعته ، واناقة في ملابسه الخضراء ذات الازرار النحاسية الكبيرة . الا ان يافوخه كأنما

استدق ، فبانت الاذنان نافرتين كجناحي خفاش .

وتكلف رئيس التحقيق ابتسامة وشال بحاجب وقال :

— كنت افضل ان اراك في ثوب الاخ حنانيا ! ولكن حظك كبير . لان هنالك امراً لا بأس ان اطلعك عليه ، هو اني اكره الثياب السوداء ... ترى اذن انني اعرف ماضيك و كيف استخفيت عن العدالة وفي اي مكان . ما لنا ولهذا فقد مضى ، او اننا لم نصل اليه بعد . احب ان اسألك الان هل انت مسرور في سجنك . فانا هنا المسؤول عن السجناء . اما تزال تعربد ؟

— ...

— ما لك تنظر الي بهاتين العينين (وضرب بقلمه على الطاولة) اخفض رأسك ! ... قلت لك اخفض رأسك ! اين كنت قبل الحرب ؟ وماذا كنت تعمل ؟

— في بيروت .

— ماذا كنت تعمل ؟

— اشتغل في تجارة الديما مع عمي وديع عاصم الذي نفيتموه الى الاناضول .

— وفي خيانة الدولة العلية ، اليس كذلك ؟

— كنا نشتغل للحصول على حقوقنا .

— حقوقكم ! .. احذر ، احذر ان تثير غضبي . متى كان لكم حقوق خارجة عن نعم السلطان التي يتمتع بها العثمانيون على

السواء ؟

ــ نحن عرب نطالب بحريتنا واستقلالنا .

فاستلقى رئيس التحقيق على كرسيه حاملا نفسه على السخرية :

ــ اسمع ، يا سامي عاصم ، اسمع . لا اريد ان احاسبك على ما تقول . حقوق ... عرب ... استقلال ... اتعلم لماذا (ودفع فكه الى الامام) لانها كلمات فارغة .

ثم نظر الى ورقة امامه وقال :

ــ انت متهم بثلاثة امور خطيرة : الاول الاشتراك بالجمعية القحطانية مع زمرة الخونة الذين قبضنا عليهم ، والثاني السعي لتهيئة الثورة ... ها ها ــ تسمح لي ان اضحك احياناً ــ بالاتفاق مع رفاقك ، والثالث قتل جندي تركي وسلبه بندقيته ... لي نصيحة اسديها اليك ، لا تحاول ان تنكر ، فرفاقك اقروا بكل شيء . بعضهم نجا بجلده ففتح فاه لما رأى هذا (واشار الى سوط معلق وراءه بوتد) والبعض الآخر ابى الا ان يذوقه . فمن اي فئة انت ؟

ــ ...

ــ أجب . اسألك من اي فئة انت ؟

ــ ليس لهذا السؤال دخل في الاستنطاق .

ــ انت وقح على ما يبدو لي (والتفت الى رئيس الحراس الواقف بالباب) اليس كذلك يا شفيق افندي ؟

فظل المخاطب جامداً . فقال رشدي بك :

— اياك والكذب ! من الصعب جداً الكذب علي ، يجب ان تقول الآن ... بل خذ واقرأ .

وتناول ورقة صفراء ودفعها الى سامي فنظر فيها الشاب طويلا.

— اقرأ ، اقرأ !

— « يا بني قحطان ، يا سلالة عدنان ، أأنتم نيام ؟ اما تسمعون الضجة القائمة حولكم ؟ أما تعلمون انكم في زمن من نام فيه مات ، ومن مات فات ؟ متى تفتحون عيونكم وترون لمعان الاسنة المصوبة اليكم ... انظروا كيف تسمون وتكدون ليغتصب الغريب منكم ثمرة اتعابكم ويترككم تموتون جوعا ... ؟

— كفى !

— « ...انتم في نظرهم كقطيع من الماشية يجزون صوفها... »

— اسكت ، اسكت . انا قرأت المنشور قبلك .

— هذا مستحيل ، لانني انا واضعه وموزعه !

— حسن (وتنهد بخيبة) تقر به اذن ... حسن ! هذا كل ما اريد .

انصب عليه الجواب كالماء فاطفأ غضبه على حين كان لا يريد له انطفاء ، ثم قال :

— ماذا ... ماذا تعني بالاسنة ؟ ومن هو الذي يصوبها اليكم ؟

— لا احرمك لذة الاكتشاف !

فاشتعل رئيس التحقيق من جديد :

ــ اعلموا ايهـا الاغرار الخونة ان الاتراك سيعيشون رغماً عن انوفكم وسيحكمونكم الى الابد ، الى الابد ! أفهمت ؟ لقد ضحينـا بالف جندي في الدردنيـل ورددنا الانكليز على اعقابهم ، وسنرسل بنصف مليـون ايضاً من ابطالنا الى الترعة وندخل مصر ظـافرين ، ونطرد الانكليز منهـا ، ونقتل فكرتكم الخبيثة . وجوعا نميتكم ! انت قلتها سنميتكم جوعاً !

وتنفخت اوداجـه ، وجعل يهـتز ويلهث . ثم مسح العرق عن جبينه وتنفس الصعداء كأنه قاد المعركة فهـو يرتاح على النصر . فلم يتمالك سامي من الابتسام .

ــ أتضحك ؟ هل تظنني امزح معـك . وهل الحرب مدعـاة المزاح ؟

ــ كلا ، ولا الثورة !

ــ قلت لك لا احد يعلم متى اغضب . ولكن غضبي الحقيقي لم تصل اليه بعد .

في تلك اللحظة دخل احد الضباط فسلم ودنا من رئيس التحقيق فهمس في اذنه ثم تراجع وادى التحية . فلما توارى قال رشدي بك :

ــ اتعلم ماذا اخبرني الضابط الآن ؟ لقد حاول احد السجنـاء الهرب فاطلقـوا عليـه الرصـاص وقتـلوه . عربي يطـالب بالحرية والاستقـلال ايضاً ! بطل من ابطالكم ها ! ها ! الذين كانوا يهيئون الثورة . بطل يهرب ! أهذه هي بطولتكم ؟

— الهرب من الظلم ليس عيباً .

فحدق شفيق افندي لدى هذا الجواب الى سامي ثم خفض وجهه الى الارض .

— من اين سلاحكم لاعلان الثورة ؟ انت ماروني ... الست مارونياً ؟

— ما يهمك من مذهبي ؟

— الموارنة اصدقاء فرنسا .

— واصدقاء كل عدو للظالمين .

— من تعني بالظالمين ؟

— ...

— تعود الى الضحك ؟ اضحك ما طاب لك . ستبكي بعد هذا الضحك (ونظر الى شفيق افندي) يجب ان تعترف لي بكل مخابراتكم مع القنصلية الافرنسية في بيروت . لا تحسب اني في حاجة الى ما ستقوله لي ، لانني مضطلع على كل شيء . كانت عيوننا ترافق كل خطوة من خطواتكم وتحصي عليكم انفاسكم ، وانتم لا تشعرون .

— ...

— ما لك تسكت ؟ اريد منك الحقيقة ، الحقيقة كلها . بماذا وعدتكم فرنسا بلسان قنصلها ؟

— ليس لي علم بشيء من هذا .

— انا رئيس التحقيق . بين يدي موتك او حياتك . هل

افهمك مرة ثانية ان الاقرار خير لك ؟

ـــ ...

ـــ ان هذا السكوت سيضرك كثيراً . اكرر لك نصيحتي : اعترف بكل شيء .

على ان سامي لم يخرج عن صمته . وكان يحدق الى رشدي بك بعينين زجاجيتين ، فظن رئيس التحقيق انه يرتبك وانه يفتش عن وسيلة لبدء اعترافه ، فقال في نفسه « يجب ان الجأ الى اللين » .

ـــ انت شاب وانا لا احب ان ارسلك الى المشنقة . لقد كنت شابا في زماني وافهم ان الشباب يحب الحياة .

ـــ الموت في سبيلها احب احياناً .

ـــ يظهر انك من اصحاب الخيال .

ـــ لابتعد به عن بعض الحقائق .

ـــ هوه هوه!... كدت انسى انك شاعر . بلغني انك شاعر مجيد . انا احب شعراء اللغة العربية ولكن ... (واستوى في جلسته وعاد الى التقطيب) ولكن هذا ليس موضوعنا الان . يجب ان لا تنسى انني انا هنا رئيس التحقيق في ديوان الحرب ... قل لي هل تحب فرنسا ؟

ـــ ...

ـــ فرنسا ، هل تحبها ؟

ـــ احب وطني .

— وفرنسا !

— مر الكاتب يدون ما اقوله (وحملق سامي بالكاتب الذي كان يسند رأسه الى مرفقه) ما لك لا تدون افادتي ؟

فصاح رئيس التحقيق :

— هذا لا يعنيك .

— ام تتركني اقول ما اقول ثم تضع في غيابي الافادة التي تشاء .

— من قال لك هذا ؟ اتعلم خطورة ما تقول ؟ ثم يقولون عني هذا ؟ ماذا يقولون ايضاً ؟ يقولون « رشدي بك غول » (ومد بفكه الاسفل) غول . . . ها ها ! ان التشبيه لا يزعجني . ولكنك انت لا تعرف عن هذا الغول شيئاً حتى الساعة . اين اجتمعت بنعوم لبكي ؟

— في ساقية المسك .

— اين هو الان ؟

— لا اعرف .

— بل تعرف .

— ان لكم جواسيسكم فليبحثوا عنه .

— قل لي اين هو ؟

— قلت لك لا اعرف .

— كذاب !

ــ ان الثأر لا يكذب .

ــ اما تزال تنظر الي بهاتين العينين يا كلب !

وبصق في وجهه ، فانتفض السجين :

ــ بل انت الكلب !

فضحك رئيس التحقيق بفكه وقام متمهلا فصفع المكبل ثلاثاً . ثم ابتعد عنه وعاد الى العبوس فقال :

ــ موعدنا الساعة العاشرة ليلا . (واشار الى شفيق افندي والجندي) خذاه من هنا .

اعيد السجين الى زنزانته وقد احس ان دعسته قويت ، وعلا صدره بالانفاس الكبيرة ، وفي دمائه عزم الايام الاولى .

قضى بقية نهاره يتشوق الى الموعد بينه وبين رئيس التحقيق على معرفته بهول ما كان ينتظره . فما يسمع طقة الجزمة تدنو من بابه حتى يخفق قلبه ويقضم شفتيه . فاذا تابع شفيق افندي نزهته المعهودة انقلب يحاول القراءة فلا يستطيع والكتابة فلا يقدر ، والجلوس فتأبى اعضاؤه الاستقرار .

وهبط المساء وجيء اليه بالقراونة فرفس القصعة فراحت شظايا . فهجم عليه جندي بحربته ، فاستوى حالفاً بينه وبين نفسه ان والله ليفترسنه باسنانه قبل ان تصل الطعنة اليه . فاذا شفيق افندي يرد الجندي الى موقفه ويخرج ، لم يخاطب المتمرد بخير ولا شر . فخمدت ثورة السجين بغتة وقعد على كرسيه .

١٢

اما رشدي بك فكان معتاداً ان يتناول في المساء كأس خمر على وجه مليح . فغادر مكتبه وركب عربة الى بيت كثيراً ما اقلته اليه في لياليه السابقات . فلما وقفت عنده وثب شخص ضئيل الى الفرسين فامسك بلجامها ثم بادر الى باب العربة فحنى ظهره حتى الارض .

ــ اسمع يا خليل المعلا . اريد منك شمبانيا . خذ . هاتان ليرتان . أتكفيانك ؟ اضحك لارى .

ــ هٔ هٔ هٔ هٔ .

ــ تضحك لما تسرقه مني . تحاسبني في آخر السهرة وانا سكران !... على مهلك ! على مهلك ! تطير اذا رأيت متليكا ، هذه عادتك (وعبس هادراً) الليلة دور صاحبك الاخ حنانيا .

ــ هٔ هٔ ... رأيت في السوق تفاحات بديعة !

وكان الضابط قد ادار ظهره يصعد الدرج الى المنزل . فهب الى استقباله على الباب سيدتان انيقتان ، يتدلى على عنق احداهما عقد زبد نصوع صدرها ، وللعقد ذؤابة تحتمي في الثغرة الدقيقة الناعمة بين الثديين . فانخفض رئيس التحقيق وازاح العقد بفمه ولثم موضعه . ودخل الى البهو فقامت حلقة من النساء ورجلان ، يرحب كل على

طريقته بالزائر العظيم .

ولم يتأخر خليل المعلا ، فصفت المائدة باطايب المأكل والفاكهة وتوسط رشدي بك ربة البيت وابنتها ، يميل على هذه ثم يميل على تلك . وضجت القاعة بالاحاديث وقرع الاقداح ، وخليل واقف في الزاوية يغمز الضابط على فتاة جديدة لم يفطن اليها ويشيء في كمه ، وصاحب البيت وصديق له يقدمان اللماظة وبأمران الخدم وينهيان ، ويدوران حركة دائمة وبشراً لا ينقطع .

واذا رشدي بك يرد القدح عن شفتيه ويرفع عن كتفه ذراع احدى المرائين ويجمد . فيسكت الندامى جميعاً وتتجه الانظار اليه من كل صوب ، فينفجر في ضحكة عالية قاذفا كأسه الى جوفه ، فتتجاوب الضحكات :

« ها ها »

« هو هو هوه »

« قه قه »

« هءُ هءُ هءُ »

— اتعلمون لماذا اضحك ؟

فنظر بعضهم الى بعض ، الا خليل المعلا فقد ظل ماضياً في ضحكته .

— هءُ هءُ ...

— خليل المعلا وحده يعرف لماذا اضحك ... ها ها ! الاخ

حنانيا ، الاخ حنانيـا ! والله شجـاع ! الحقيقة اني لم او متهماً بهذه الشجاعة ... بل وقح ، وقح ! يتظاهر بانه لا يبالي بالمشنقة . ويهينني ايضاً ، الكلب ! الكلب !

فحاروا كيف يغضبون لكرامة الضابط :

« يهينك ! »

« وماذا تجاسر ان يقول لك ؟ »

« هذا بلا عقل ! »

« لا يعرف من هو رئيس التحقيق ! »

« ولكن الكرباج سيؤدبه ! »

فرفع رشدي بك يده :

ـــ الليـلة ، الساعة العاشرة . كم السـاعة الان؟... بعد نصف ساعة . آه ! انا امين على مواعيدي . ماذا ؟ لا لا . سأعود . ربع ساعة تكفي ... من شرب كأسي ؟ انت ام انت ؟ ام انت ... اضحكني ضحكتك يا خليل المعلا . اين الوسكي ؟ اريد ان اشرب . نفسي مفتوحة هذه الليلة ... سأؤدبه ! العرب الكلاب ! ها ها ! اشربوا معي .

فارتفعت الاقداح من كل جهة .

ـــ كم الساعة الان ؟ اريد ان اذهب . كأس اخرى ...

وحدج جارته ومال عليها فاوقع الكاس من يدها ، فامتدت الايدي بالمناديل الى ثوب الضابط تلقط عنه قطرتي شمبانيا ، وهو مستلق في

الحضن المضياف يبتسم راضياً . ثم هب وسوى من هندامه وخرج مشيعاً بأكثر مما استقبل به من التكريم ، واعيدت عليه التوصية :

ــ لا تتأخر !

فأكد ان المسألة لربع ساعة ، حسب العادة .

١٣

غرفة الاستنطاق نفسها . قنديل باهر يتدلى من السقف . ورشدي بك واقف في الوسط ، وانفه على الحائط يتوتر انتفاخا وتقلصاً بشكل مضحك ، بالقرب من سوط معلق حديثاً فذنبه يتهادى ... وشيء جديد : مقعد خشبي طويل لم تقع عينا سامي عليه حتى سرت في بدنه قشعريرة . واراد ان يصيح لا خوفا بل احتجاجا ولكنه لم يفعل . ومشى الضابط الى الباب فاطبقه وادار فيه المفتاح برفق ماكر فاحدث صريرا مزعجاً .

وكان شفيق افندي قد وقف برأسه الضخم لا يتحرك فيه الا عيناه ، وانتصب الى جانبه الجندي الهزيل الذي عاونه في الصباح على خفر سامي الى الاستنطاق . فامرهما رشدي بك فبطحا السجين على المقعد ، فاستسلم لا يمتنع منهما بحركة ولا يفتح فاه بنأمة .

لماذا يريدون ضربه ؟ لم يخطر له السؤال ببال . هو يتساءل فقط

كيف ؟ حتى هذا السؤال يهرب وشيكا ويهرب معه كل فكر ، فاذا رأسه فارغ ، فارغ كالجرة الفارغة ، لو نقفه احد لرن .

وعادت عيناه فوقعتا على خيال الانف طويلا هذه المرة ، يتسلق الحائط الابيض الاملس صعودا ، ثم يختفي بسرعة ويمتد مكانه فك عريض . ولكن الانف يعجبه اكثر من الفك ، فيتمنى لو يظهر من جديد ، يكاد يقول لصاحبه : « دُرْ ، در لأرى انفك ! »

هو يجهل الوقت الذي قضاه متلهياً بذلك . كل ما يعرفه الان انه يحس ببرد في قدميه ، فقد خلعا نعليه وجوربيه . ويحس شيئاً قاسياً يجمع ساقيه ويشدهما الى المقعد . يشد ، يشد حتى لتكاد ركبتاه تنخلعان . فحاول ان يرفع رأسه ليرى ، فوجد ذراعيه قد شدتا ايضاً . وكان الضابط ينقف السوط على طاقته متبرما ، ثم دنا وصفق به فوق اذن سامي ، وضحك وشتم ووثب الى الطرف الاخر فرفع الاسير قذاله جهده ، وانفتحت عيناه هائلتين .

ـــ آخ ! (مع انه وطن نفسه على السكوت) .

ـــ أتسمع ؟ انك تعوي كالكلب تماما .

فسحق سامي باسنانه واغمض جفونه ... حاول ان يعد الضربات فلم تبلغ العشر حتى داخ ، فاخذت تتوالى بدون حساب ، تهوي على قدميه ثقيلة كالصخور ، وتمشي اصداؤها في عظامه حتى تصل الى الدماغ فتهدر فيه هديراً .

ـــ أتقر الان اين نعوم لبكي ؟

ولكن السجين كان قد آلى على نفسه ألا يفتح فاه . فترك رئيس التحقيق بجلده حيناً ويطرح عليه سؤالا حيناً ، ثم انقطع رشدي بك عن الاسئلة وانصرف الى الضرب، وسامي يتمامل ويتخبط ويلوي برأسه من هنا ومن هنا ، يخنق الصرخة ويعض الانة .

... والسوط يخط على القدمين خطوطاً بيضاء جنب خطوط حمراء فوق خطوط زرقاء ، حتى اختلطت فيها الالوان وتنفستا بالدم .

حينئذ القى رئيس التحقيق في الديوان العرفي سوطه ، وأبى قبل ان يخرج الا ان يودع الضحية ، فرفع جزمته ولبطه بها على يأفوخه ، فارتج رأس سامي ، ثم هدأ هدوءاً مخيفاً .

١٤

استلقى السجين على فراشه اياما وليالي لا يعي . أخذته الحمى فلا يعرف نومه من يقظته ، ولا يتبين احداً من حواليه ، ولا يدرك اين هو .

ودارت به الدنيا ذات مساء ، فانفلت يسوح في الجو على عربة تذهب محمولة على غيوم دكناء ، تعلو وتهبط ، وتهبط وتعلو ، ولسنابك خيلها وقع بطيء ، ناعم ، متوازن : طق ... طق ... طق ... ثم تقف في ساحة من السماء مظلمة ذات رعود وعواصف

ويرتد عليه السائق ــ رشدي بك نفسه ــ فيمسكه ليرميه من شاهق . والخيل تسرع : طقطق طقطق ! تريد تركه لراكب آخر ينتظر على الارض. فيضرع الى السائق « لا ترمني لا ترمني ! » مشيراً الى بعد ما بينه وبين الحضيض ، فيتوتر انف رشدي بك منتفخاً ، متقلصاً ، ويهوي بسوطه الاسود عليه ، فيقع سامي في الفضاء . ولكن السوط يلتف حول عنقه فيقف معلقاً بين الارض والسماء ، فيزمجر الحوزي ، فتخرس الصواعق :

ــ اختنق ، اختنق ايها العربي الكلب !

وحوافر الخيل تقرع دون انقطاع : طقطق طقطق ! وقد نفد صبرها . وتضيق دائرة السوط على عنقه فتبرز عيناه وتتواثب رجلاه كأن الحياة انحدرت فاعتصمت فيها . فيتهادى رشدي بك على حافة العربة ، يميل به رأسه الى السقوط ، فيبدل من غضبه وتهديده ابتساما ومكراً ويقول :

ــ انزل ، انزل . ألا تريد ان تنام ؟ لك ، تحت ، فراش وثير . انزل ، انت تحب النوم .

ــ مضى علي خمسمئة سنة وانا نائم ! لا ، لا ! لا اريد ، لا اريد ! لقد فتحت عيني وستبقيان مفتوحتين الى الابد ، الى الابد ! لو ترى انفك يا بك ؟ لو كنت موضعي لترى منخريك ينفتحان وينطبقان ! قه قه ! اسمح لي ان اضحك . انا اعلم انك تكره المزاح . اما انا فدعني امزح . الست حراً ؟

ـ حر ! سكتير ! ألا تزال تتلفظ بهذه الكلمة ؟

طقطقطقطاق ... طقطق ! ويستوي الضابط في وقفته ويتمكن من السوط فيجذبه بكلتا يديه ، ويكبر انفه كأنه كرة مطاط ، يكبر ، يكبر حتى يصبح اضخم من رأسه ، ثم ينفلق انفلاقا داوية . ولكن سامي يرسل بصره في الافاق البعيدة ، ويحاول ان يفوه بكلمة ، كلمة واحدة ، كلمة كبيرة ، فلا يستطيع . ويندلق لسانه الى جانب وترتخي رجلاه . وقد سكنت العواصف والرعود وانقشعت الغيوم عن سماء صافية زرقاء ، وسرى نسيم ممطر لطيف ، لطيف لطيف يداعب شعره وشاربيه الصغيرين ، ويدور حواليه ، ويرجع الى جبينه وشفتيه وخديه .

طقطق طقطق ... طق ... وتختفي العربة ويختفي رشدي بك . وتأتي الشمس فينفذ شعاع منها الى العين اليمنى ، وشعاع الى اليسرى فيفتح سامي جفونه فاذا حبال ذهبية مدلاة تلفه من رجليه ويديه واعضائه كلها في شبكة وهاجة ، وتسمو به الى فوق ... الى فوق ! الى فوق ! ربي ، ما هذه الديار الغريبة ؟ ما اجملها ! ...

ـ اين انا ؟ اين انا ؟

ـ أصحوت ، ياسامي ؟

فاجال المحموم عينيه فرأى صديقه عمر حمد الى جانب السرير .

ـ اين انا ؟

ـ ليتك في غير هذا السجن ! كنت تهذي يا سامي . هات

رأسك اجمه .

— عطشان ! انا عطشان !

فناوله الابريق فافرغه وتنهد الصعداء .

— سوّ المخدة جيداً . وضعتها لك عشر مرات وانت تحضنها ثم تقذفها وتحاور خيالا . انا ذاهب . يمكنك ان تناديني اذا شئت .

بعد ان استنطقوا الجميع اصبحنا قادرين على الاختلاط .

— ماذا حكموا علي ؟

— لم يحاكموك بعد . انت محموم منذ اسبوع . اما نحن فقد مثلنا امام المحكمة وما نزال ننتظر كلمتها فينا .

وسكت عمر مطرقا ثم رفع وجهه وقال :

— اعتقد ان كل شيء قد انتهى .

— تريد ان تقول ...

— لم يبق الا ان يوافق جمال باشا .

— وانا ؟

— يقال اننا سنذهب قافلة بعد قافلة .

— ستسبقني يا عمر ؟ لقد كنا دائماً جنباً الى جنب !

ونظر احدهما الى رفيقه .

— لا نفكر بهذه الامور الان . خصوصاً انت لا تفكر بها .

وخرج ، فظلا سامي في سريره يتبعه بنظره . فرأى رئيس الحراس ما يفتأ يذرع الرواق بجزمته ، طق طق . فرفع يده الى

جبينه ثم ارخى رأسه وقد ظفت على شفتيه ابتسامة .

١٥

الخامس من ايار السنة ١٩١٦ .

وقفت الشمس في الشفق البعيد ترسل آخر شعاع من اشعتهـا الى عاليه . ثم جاءت غيمة كبيرة سوداء فحجبت وجهها بها وغارت في البحر ، وامتد الظلام طبقاً كثيفاً على المدينة فخنق فيهـا حتى الهواء ، فما تختلج ورقة على غصن ولا تميل عشبة .

وكان القنديل في رواق السجن شاحباً ، تتدافع دخنته من الفتيل المجروح متسارعـة متجاهدة ، فيشهق لها النور ويرسل الى الحيطان والى الغرف اجنحـة خفافيش جبـارة تضرب السقـوف والزوايا ، والسجناء واقفون لا يغمض لهم جفن ، يشبكون ايديهم على النوافذ او يتمشون ذهابا وايابا كأسود في اقفاص .

كانوا يحسون بالموت يرود حول السجن ويهمهم . فما يسعـل حارس او يتحرك حتى تعلو القلوب في الصدور ، وتطل الرؤوس على الابواب ، وتتبادل العيون من خلال الحراب المنصوبة نظرات فيهـا من البطولة والذعر ، والتحدي والاستسلام ، والسخرية والحقـد ، والايمان والكفر ، فيها من الحياة والموت كل اسرار الموت والحياة

اذ يصطدمان على مفرق طرق ويتواجهان .

دقت الساعة التاسعة ، فانفرج باب الرواق وانتصبت فيه عينان وانطلق صوت :

ـــ سعيد عقل ، البس ثيابك واخرج !

فرأى القنديل الضئيل وجوهاً تميل ميلة واحدة الى زندان المختار . ثم رأى شبحاً طويلاً يخرج مرفوع الجبين ثابتاً ، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً . فرافقه رئيس الحراس الى الباب ثم اقفله وراءه .

ومرت دقيقة ... دقيقتان ... عشر دقائق . كان الزمان ثقيلاً ، كجذع ضخم يجره حطاب عاجز . خمس عشرة دقيقة ، ففتح الباب وظهرت العينان :

ـــ الشيخ احمد طبارة ، البس ثيابك واخرج !

فجأر المختار الثاني : « لا اله الا الله ! »

ثم رددها بخشوع :

ـــ لا اله الا الله !

ولبس ثيابه وخرج . فلما توسط الرواق اجال نظره في رفاقه :

ـــ اولادي ! اولادي ! اوصيكم باولادي . قولوا لهم « ولا تظنوا ان الذين قتلوا في سبيل ... »

ولم يدعه الواقف بالباب يكمل فهجم عليه وامسكه من كتفه وقذفه .

ومضى ربع ساعة ، وعاد صاحب العينين والصوت :

ــ عمر حمد ، البس ثيابك واخرج !

فغص القنديل غصة كبيرة ، وارتفع الى السقف خيال ذراعين عظيمتين . كان عمر قد لبس ثيابه وتهيأ من قبل ، فلم يسمع اسمه حتى وثب إلى الرواق هاتفاً :

ــ الى الموت ! الى حياة الامة العربية ! الي يا اخوان ننشد جميعاً :

نحن ابناء الألى جردوا السيف سنا

فهرعوا والتفوا حوله . وشد سامي كتفه بكتفه ودوت ارجاء السجن :

ومشوا في الارض يجلون من الارض سنا

ودار عمر على رفاقه يعانقهم وهم ينشدون ، فلما وصل الى سامي اغرورقت عيناه ثم مد يده الى جيبه ودفع اليه ساعته وقال :

ــ احفظها تذكاراً مني ... اذا لم تطلب الحرية دمك غداً .

فشد سامي على يد صديقه واكمل :

نفتدي الاوطان بالارواح هانت ثمنا

. . . .

وعند منتصف الليل اطبق الباب فلم يعد يفتح شدقيه . فالتفت الباقون بعضهم الى بعض وعدوا النقص ثم تجرروا الى حجرهم .. ينظرون الى امكنة رفاقهم وقد استوحشت فليس فيها الا حذاء تحت السرير مقلوب ، او شملة على الوسادة ملتاعة ، او كتاب مفتوح

على سطوره السوداء .

ثم اخترق الليل صهيل خيل ووسوسة حراب ، ثم علت ضوضاء مبهمة وارتجت اركان السجن ، وكرت العربات على طريق بيروت: طقطق طقطق طقطق ... فاتكأ سامي على الشباك وارسل بصره في الظلام فجالت بين اجفانه غبطة محرقة ، ثم نسم الهواء فقطرها دمعة . ثم ترامت اليه اصوات من بعيد وبينها الصوت العريض الذي يحبه :

رن فينا صوتهم فنفضنا الزمنا

ومشينا نترك الدرب موشى بالدما

فارتعشت شفتاه يرافق من وراء شباكه بصوته الحار نشيد السابقين الذاهبين الى الفجر :

علقونا سلما للمجد يتلو سلما

يتلو سلما ...

وخيم على السجن سكوت مبغوت ثقيل لا يسمع فيه الا وقع قدمي رئيس الحراس في نزهته الازلية الابدية .

وما هي الا دقائق حتى دخل رشدي بك وبيده ورقة كبيرة فامر شفيق افندي فنادى السجناء، فلما اجتمعوا في الرواق اجال بصره فيهم حتى اهتدى الى سامي :

ــ الا تزال هنا ؟

ومد يده الى مسدسه ودفعه اليه . فترددت عينا سامي بين

المسدس ووجه الضابط واختلجت اصابعه وهم بان ... فاذا برشدي بك يسحب يمينه بالمسدس ، ويمد له بما في الشمال ويأمره :

— اقرأ على رفاقك .

وانصرف . فتكتل السجناء حول سامي يقرأون معاً :

« بلاغ القائد الكبير عن تنفيذ حكم الاعدام بخائني الوطن .

... وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي اجراها الديوان العرفي في عاليه صدرت الاحكام المقتضاة بحق المظنون فيهم من الموقوفين والفارين كل على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سوريا وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها امارة مستقلة . فحكم على من يأتي ذكرهم هنا بالاعدام : شفيق بك احمد المؤيد العظم ، الامير عمر ابن الامير عبد القادر الجزائري ، عمر مصطفى حمد ، رفيق بن موسى رزق سلوم ، محمد حسين الشنطي ، شكري بدري العسلي ، عبد الغني محمد العريسي ، عارف محمد سعيد الشهابي ، توفيق احمد البساط ، سيف الدين ابي النصر الخطيب ، الشيخ احمد حسن طباره ، عبد الوهاب الانكليزي ، سعيد فاضل عقل ، بترو باولي ، جرجي موسى الحداد ، سليم محمد سعيد الجزائري ، علي حاجي عمر ، رشدي احمد الشمعه ، امين لطفي محمد الحافظ ، جلال سليم البخاري .

« ... ومن الذين صدر بحقهم حكم الاعدام وهم : شفيق بك المؤيد ، الامير عمر ، شكري العسلي ، عبد الوهاب الانكليزي ،

رشدي الشمعه ، رفيق رزق سلوم ، هؤلاء قد جرى اعدامهم في هذا الصباح في الشام في ٦ ايار ، والاخرون جرى اعدامهم في بيروت ، وسائر المجرمين صار سوقهم الى منفاهم وحبوسهم .

... وعلى هذه الصورة تقرر في سوريا وفلسطين السكون والامن الى الابد ... »

قائد الفيلق الرابع وناظر البحرية

احمد جمال

١٦

لم يكد سامي يفرغ من قراءة المنشور حتى مزقه وداسه وانقلب الى غرفته فدفن وجهه في كفيه . ثم تناول الساعة التي اعطاه اياها عمر فلمع زجاجها في العتمة ، فآذاه لمعانه وآذته تكاتها المتواصلة ، المتوازنة — كأن امراً لم يحدث في الدنيا — فهم برميها من الشباك وهم بسحقها بقدميه ، فردته ذكرى عمر فوضعها على الطاولة بمحبة وقام الى العتبة .

كان شفيق افندي قد عاد سيرته يقبل ويدبر في الرواق ، خفيف الوطء هذه المرة رفيقاً . فبدا لسامي ان يتناول هذا الكرسي فيرميه به فيحطم رأسه . ولكن رئيس الحراس وقف فجأة قبالته وارسل

اليه نظرة غريبة . كانت تلك اول نظرة تلتقي فيها عيون الرجلين . والضوء يغمر وجه شفيق افندي فيظهر شارباه وقد ارتخيا ، وعيناه وقد جال فيهما ذهول ، وكتفاه وقد انخفضت احداهما عن اختها تحت حمل خفي .

وانقضت دقيقة والعيون متلاقية جامدة ، لا يرف لها هدب . واحس سامي ، على دهشة منه ، ان حقده ينحل ويذوب ذوبان الثلج على تلك النظرة التي لا تنتهي . كان يريد ان تنتهي ولا يريد... فاذا بشفيق افندي يخطو اليه ، فينبعث الحقد في صدره مشوبا برعشة، وتراجعت احدى رجليه فابى عليها ، ورفع ذقنه متحديا ، فالقى رئيس الحراس كفه على كتف السجين وقال :

ــ يجب ان تنام . (والتقت العيون مرة ثانية)

ــ انزع يدك عني !

ــ يجب ان تنام .

ــ هل النوم ملك امركم ايضاً ! كيف انام وبعد ساعة تعلقون واحداً وعشرين اخا لي على اعواد مظالمكم ؟

ــ اربعة عشر في بيروت ، وسبعة في دمشق ...

ــ أتسألني ؟

ــ في يوم واحد ...

ــ عدا المحكوم عليهم بالسجن وعشرات المنفيين ...

ــ أتخيفني بهذا الاحصاء ؟

ـــ اخفض صوتك ! ولا تزال المشانق منصوبة •••

ـــ اغرب من وجهي !

ـــ الموعد الرابعة صباحا . اين ساعة عمر ؟

ـــ تريد ان تسلبني اياها ؟

فغامت تحت شاربي شفيق افندي ابتسامة . ثم ثنى رأسه فتناول ساعته من جيبه ونظر فيها . ثم اعادها ورفع كفه الى جبينه وادار ظهره . فمد سامي بانفه واجتاز العتبة لاحقاً به كأنه يجذبه بخيط من حرير • وتفقد شفيق افندي اعوانه فاذا هم يُغفون على بنادقهم فانكفأ بعبوسه القديم وقال لسامي :

ـــ اذهب ونم • لا تفارق فراشك !

وكان في صوته رباطة الجأش التي غلبت سامي لاول مرة لدى زيارة زينة له ، فمشى الى سريره •

تنازعته افكار متقطعة مشوشة ، تقفز به من المشانق الى ساقية المسك ، الى ذكريات صباه البعيد • ثم انتبه الى نفسه وعاد الحقد حية تلف قلبه ، فتهيأ للوثوب فالتقت عيناه العينين الاخريين مرة ثالثة . وكان شفيق افندي ممسكا ساعته ،وقد وقفت يده في الفضاء وانفرج فمه . وخيل الى سامي ، من خلال الضوء المصفر ان رئيس الحراس يتهادى ، وان عينيه هاتين تنظران ولا تريان .

وكان المصباح قد جف زيته ، فشهق شهقته الاخيرة ، واطلع شرارات قوية ، حمراء ، باهرة ، وانطفأ ...

الغيث

١

انتشر خبر المشانق في البلاد فاحدث دويا عظيما .
وجاء كامل افنـدي الوراق الى دكان وردة كـار ، وقعد ابو زيد ووردة وزينة وطام يصغون اليه وهو يسرد عليهم اسماء الذين اعدموا ويفرك كفيه :

ــ رحمة الله عليك يا صديقي ! لا حول ولا قوة الا بالله ! واحد وعشرون شابا ، صفوة شباب العرب ! اعوذ بالله ! رحمة الله عليه ! ما كان اشجعه واظرف حديثه !

فسأل ابو زيد :

ــ من ؟

ــ رفيق سلوم .

فترقرقت عينا ابو زيد ، فقال الجاويش :

ــ هل عرفته في عاليه ؟

ــ لا . (وعاد الى البكاء)

ــ رحمة الله عليك يا حبيبي ! انا لله وانا اليه راجعون .

ورفع كامل افندي عينيه الى السماء يسلم تسليما . وهم ينظرون اليه واجمين ، وزينة تود ان تطرح عليه ، مبالغة في الاطمئنان ، الف سؤال وسؤال فلا تجسر فتحدق اليه رجاء ان يقرأ تلك الاسئلة في عينيها ، ولكنه يستأنف تحسره ويهز برأسه ، فتحدج الى خالتها فتراها هي الاخرى تحدج اليها ، وكأن كل واحدة تتربص بصاحبتها. ثم وخزت الفتاة جدها وسألت كامل افندي لماذا لا يدخل الى الغرفة . فاجاب انه مضطر ان يعود الى الثكنة في الموعد ، وانه لولا ذلك لما ازعج ابو سعيد عن زاويته . والواقع انه قد طالما تأخر في الماضي عن الموعد فما حفل ، حتى كانت هذه القائمة السوداء من المشانيق والمحكوم عليهم بالسجن والنفي فبعثت فيه رهبة وانعشت في نفسه حرمة للنظام خيل اليه يوما من الايام انه داسها الى الابد .

وتهيأ للقيام فدعته وردة ، على غير عادتها ، الى المكوث قليلا ، وهمت بأن تقول له شيئاً فتلعثمت. ثم بلعت بريقها وقالت :

— اتظن ان تهمة سامي عاصم خطيرة ؟

وكان في صوتها اضطراب ، فأجاب :

— خطيرة ، خطيرة جداً .

— تعني انه مثل هؤلاء ، وانه يمكن ان ...

ولم تطعها شفتاها على الكلمة الهائلة . فدهشت زينة لهذا التحنن تبديه خالتها على سامي وقد كانت الى قبل ساعة لا تذكره الا باللعنة ، وتدعو عليه بالشنق كلما عاندتها ورفضت الابتسام لزبائن دكانها او

تابت من غسل صحونهم وكنس اوحالهم عن البلاط .

اما كامل افندي فلم يجب وردة على سؤالها ، رفقاً بنفسه على الاكثر ، وقال :

ـــ انني ما ازال افكر في الوغد الخسيس الذي ارشد الى مخبأه واسلمه . قلت يا ابو سعيد واكرر قولي ان هنالك مؤامرة . فابو زيد لم يكن يعرفه هو . وخليل الملا لم يستطع ان يأخذ من طام شيئاً من السر . وانا اعتقد انك ظلمت هذا الصغير لما ضربته وحملته على الاقرار لك بما زلق به لسانه مع ذلك الرجل . السر لم يكن في ان شابا مطلوبا من الديوان العرفي اسمه سامي عاصم فاستتر باسم الاخ حنانيا وجبته ، بل اين هو هذا الشاب . والحال ان طام لم يكن يعرف انه في المغارة ... يجب ان يكون هنالك من دل خليل الملا على مغارة الحورية .

فمسح ابو زيد دموعه والتفت الى ابو سعيد وقال :

ـــ ماذا كنت اقول لك دائماً ؟

فقذفته وردة بتكشيرة قهر :

ـــ ماذا كنت تقول يا ابله !

فخفض رأسه خائفاً . وقال الجاويش :

ـــ ما الفائدة الان يا ست وردة ! سبق السيف العذل .

وخرج ، فلم تلح عليه .

☆

في الليل جثت زينة في فراشها وضرعت للمصلوب المعلق فوق وسادتها بإيمان وخشوع . ثم اضطجعت تتمثل سامي وقد نجا فتضم طيفه الى صدرها وتستسلم الى هذه الرؤيا ساعة ، فاذا عادت اليها اشباح المشنقة ارتعدت فرائصها وضعفت حتى لكأنها طفل صغير ، فتعض اللحاف وتخنق صراخها ، واجدة في الحالين عذابا مدغدغاً كاللذة ، ولذة لها وخز العذاب .

وفي الصباح لبست ثيابها وغادرت القرية .

جعلت طريقها الى عاليه مرحلة واحدة هذه المرة . وصلت الى بيروت عند الظهر ، وتابعت السير فبلغت عاليه عند غروب الشمس . فقصدت تواً الى نزل صاحبتها العوراء واخرجت من صدرها رغيفاً يابساً ابتاعته من بيروت ، فاسكتت جوعها . ثم استلقت لا تحس بيق ، ولا تفكر بشيء لما نالها من جهد في يومها .

استيقظت في الصباح على قرع الباب . ولو لم توقظها العوراء لظلت نائمة . فهبت وفركت عينيها فرأت النهار قد ارتفع ، فخرجت مسرعة . ولكنها ما لبثت ان تذكرت . صرتها تكاد تكون فارغة الا من بضعة متاليك . فثقلت قدماها ووقفت على حافة الطريق تعض اصبعها بمرارة . كيف تشتري الاذن ؟ كانت تعلم ، قبل ان تغادر ساقية المسك ، ان ما معها لا يكفيها ، وجاءت مع ذلك لانها لم تكن تستطيع ان تبقى . وكانت قد انست من العوراء عطفاً حين باتت عندها مرة اولى ، فقالت في نفسها « ربما ساعدتني على أمري » .

٦٦

ثم قالت « بل اذهب انا بنفسي عند رئيس التحقيق . »

ولم تفعل هذا ولا ذاك ، وعزمت ان تقابل مسارة الاذون لعلها ترق لها . فلم تخط خطوتين حتى سمعت وقع حوافر فالتفتت ، فاذا رشدي بك على حصانه ، فتوسطت الشارع ورفعت يديها تلوح بها في الفضاء ، فهمز الفارس مطيته وجاز كالبرق لو لم تتحاشه لداسها . ثم لحقت به تحت الغبار الذي سحبه وراءه حتى شارفت الديوان العرفي ، فرأت النـاس حلقات على القارعـة والرصيف وعلى وجوههم اهتمام وهم يتهامسون . فمدت رأسها في حلقة تصغي :

٣

ـــ شيء عجيب !

ـــ شيء لا يصدقه العقل !

ـــ السجن محاط بالحراس المسلحين ولا ترقد لهم عين طول الليل !

ـــ هو نفسه حارس .

ـــ من كان يظن ان حارساً يهرب من السجن الذي يحرسه !

ـــ والظريف ان سجيناً مفقود من السجن .

ـــ ترى من هو ؟

ـــ لا يزال مجهولا . ذهبوا الى رشدي بك واخبروه فجن

جنونه . هل رأيتموه كيف مر من هنا برجا من غضب ؟ نزل الان يتفقد السجناء ليعرف ايهم الهارب .

ـ ماذا ينفعه عرف ام لم يعرف ؟ فالذي هرب هرب .

ـ الا يكون الاثنان متفقين على الهرب ؟

ـ طبعاً !

ـ اي هرب ؟ سيلحق بهما العسكر ويقتلونهما كما فعلوا بسواهما من قبل .

ـ كان محكوما عليه بالاعدام .

ـ من ؟

ـ السجين .

ـ كيف عرفت انه محكوم عليه بالاعدام ؟

ـ الاعدام او المؤبد .

ـ او النفي الى الاناضول .

ـ السجين هرب من الحكم ، ولكن لماذا هرب الحارس ؟

ـ هس هس ! تعالوا اخبركم .

وتزحزحت الحلقة لشاب يدخل فيها ملهوفاً ، وشقت زينة لنفسها منفذاً وانلمت عنقها ، فقال :

ـ رأيت جثته ، هنا ، هنا ، رأيت جثته هنا ! اقتربت وراء ضابطين وسمعتهما يقولان « لقد قتلاه وهربا » . فهمت منهما كل شيء . كانا يتكلمان بالتركية ويظنان انني لا افهمها او لا يشعران بي . ولكني

كدت آكلها حربة من الحاجب (وتوقف هنيهة يتنفس) رئيس الحراس هو الذي هرب ...

ـــ رئيس الحراس !

ـــ هوه !

ـــ هوه !!!

ـــ شفيق افندي رئيس الحراس .

ـــ انا اعرفه . شفيق افندي العلايلي .

ـــ وانا اعرفه ايضاً . نحيف الجسم .

ـــ بل هو كالجبل !

ـــ من اين تعرفه انت ؟

ـــ اسكت !

ـــ بل انت سد فك !

ـــ اتركانا انتما الاثنان .

ـــ اكمل ، اكمل . جثة من رأيت ؟

ـــ أتريدون ان تسمعوا ؟ (وادار فيهم عينيه فحبسوا انفاسهم) شفيق افندي العلايلي ـ هكذا سمعت احد الضابطين يقول لرفيقه ـ شفيق افندي طلب لاحد السجناء اجازة بنقله الى المستشفى بحجة انه مريض . ونادى حارساً من الحراس ليعينه ، فوضعاه على خشبة ومشيا به . فلما ابتعدا عن السجن قليلا ، هنا هنا ، اهوى شفيق افندي على الحارس وقتله بالخنجر وفر مع سجينه . انا رأيت جثته . كان

الضابطان ينظران اليها معطولة بالدم وفيها اكثر من عشرين طعنة .

ـــ مسكين ! ما ذنبه ؟

ـــ مسكين ! مسكين ! لماذا لا تشفق على الذين شنقوهم ؟

ـــ والله العظيم لو سمعك رشدي بك !

ـــ لا اخاف منك ولا منه . اذهب وقل له !

فتدخل احدهم لحسم الخلاف :

ـــ الحارس قُتل ، ورئيسه والذي هرب معه سيُقتلان ايضاً . هل تظنون انهما يفلتان من يد الدولة ؟

ـــ الدولة لا يخفى عليها شيء .

ـــ من يقدر على الدولة !

ـــ الحق على الدولة تعين رئيساً للحراس عربياً .

ـــ يقولون انه من نابلس .

ـــ الدم يعطف على الدم . هل يتحول الدم ماء ؟

ـــ عربي وعربي ، فلا عجب .

ـــ ولكن من هو السجين الذي هرب مع شفيق افندي ؟

ـــ اما كان قادراً على تخليص السجناء كلهم ؟

ـــ ليخلص بجلده وجلد من معه !

ـــ لن ينجوا . انتم لا تصدقوني . سترون ! ليست هذه بالمرة الاولى يهرب فيها سجين . وقد لحقوا حتى اليوم باربعة من الفارين ، الاول قتلوه في عاليه ، والثاني على طريق بيروت ، والثالث على باب

الحبس ، والرابع ...

كانت زينة تشرب هذه التعليقات شربا ، وقلبها يخفق بسؤال همت شفتاها بطرحه على الرغم من ان غيرها كان قد طرحه تكرارا فلم يلق جوابا . فاذا شاب يطل بانفه فوق الحلقة ويهمس :

ـ سامي عاصم ! الذي هرب مع رئيس الحراس اسمه سامي عاصم .

فانفتحت عيناها في الرجل . وفجأة قام الصياح خلفها وصهيل الخيل ، وتناثر الفضوليون كل صوب . فبقيت هي مكانها لا تصدق ما وعت اذناها ، تبحث عن الذي لفظ اسمه « هو » لعله يعيد لفظه مرتين وعشر مرات ، فيهوى عليها فارس بكرباجه فتمسح الضربة عن كتفها ، تصعد الى الرصيف ، تعود الى الشارع ، يمر الجنود على خيلهم شاهرين السيوف ، ملوحين بالسياط ، تريد ان تضحك ، تريد ان تبكي ، تركض ، تقف ، تلتفت الى اليمين ، تثب الى الشمال ، لا تسعها الدنيا .

*

احدث الجنود في المدينة ذعراً كبيراً . اقفل اصحاب الحوانيت حوانيتهم واقفرت السوق في دقائق معدودة ، فليس الا كوم اقذار وكلاب هزيلة ذات عيون جائعة . والفرسان يروحون ويجيئون ، رفع قائدهم ذراعه مشيراً الى ناحية فيلحقون به ثم يرجعون . وزينة تتبعهم محاذرة ، مستخفية بجدار هنا ، وبباب هناك ، حتى وصلت الى نزل العوراء . فاذا ضجة وجنود فيه وفي البيوت المجاورة يقلبون

الاشياء ويقذفون على الادراج ومن النوافذ ، غير حافلين بصياح النسوة وبكاء الاطفال . وتلمست مخبأ فطالع بوجهها قبو تحت السلم مظلم ، فدخلت فيه وتجمعت على نفسها بين عناكبه وحبست انفاسها تصغي . حتى اذا سمعت الجنود ينزلون الدرج انسلت تتلصص ، وارادت الهرب في جهة من الجهات ، فاذا العوراء تناديها فترددت ، ولكنها استشعرت منها الحاح شبة فارتقت اليها . واخذت تعاونها في ترتيب البيت واصلاح ما افسده العسكر ، بتألق وجهها بالامل فتمضي نفضاً وحملا وتسوية للاثاث ، ثم تقف يداها وتجمد زائغة البصر ، لتعود بعد قليل الى شأنها الاول . وربما تراءى لها ان تفتح قلبها لهذه العوراء الطيبة وتقول لها ان احد الهاربين « فلان » ! ولكن المرأة لم يكن يهمها من امرها كثيرا ولا قليلا ، وكانت منصرفة الى لعن الاتراك والدعاء عليهم ، وقد غفرت لهم كل شيء الا ان يعيروها « يا عوراء ! » وحلا لها فجعلت تقص على زينة كيف فقدت عينها وكيف كانت من قبل جميلة ، والفتاة تهز برأسها حيناً ، وتتكلف الابتسام الاصم حيناً آخر ، وهي لا تعي هذه الثرثرة وما تبالي صاحبتها . كانت تتخيل سامي ورفيقه ـ يا حبها له ولو على غير معرفة ! ـ في مأمن من مطاردة المطاردين ، يتضاحكان ساخرين من هؤلاء الذين يفتشون عليهما في عاليه وفي ضواحي عاليه فما يفتشون على غير عفولهم ، وما يعثرون الا على الغبار تحت الاسرة ، والعنكبوت خلف الخزائن ... ثم يغلبها الجزع اذ تتذكر كلام ذلك الثقيل

يؤكد ان الدولة ستهتدي اليهما وتأتي بهما حبين اوميتين ، كأن له عليهما ثأراً او كأن الاتراك اولاد عمه ! فتبغضه وتود لو تلاقيه وتكسر له اسنانه ... وتشد في ظنها مع الفارين وتذهب معهما الى مغاور في الاودية عميقة ، وتلجأ الى صخور في الجبال ذات شعاب وقباب ... ثم تطلع لها الصورة الرهيبة : العسكر يصرعونهما بالرصاص ويجرونهما الى عاليه مربوطين الى اذناب الخيل ، فتطردها طرداً وتستر وجهها بكفيها .

٣

ظل هذا شأنها حتى فات الظهر ، فخرجت الى السوق لتتبلغ . كان بعضهم قد فتح حانوته وجلس مطمئناً ، والبعض الآخر قد فتح الباب نصف فتحة ووقف دونه ، وفضل الاكثرون تعطيل العمل بقية النهار . فمشت تسترق النظر خشية ان يراها الحانوتي الذي يعرفها والذي التقت عنده خليل المعلا ، حتى وصلت الى باب فدخلت واشترت رغيفاً وقعدت في الزاوية تلتهمه .

وما هي الا دقائق حتى علا وقع السنابك ، فاطلت فرأت الجنود قد عادوا يملأون الشارع ، يشيرون الى الناس بايديهم ، ويكلمونهم بلطف هذه المرة ، والناس يخرجون من الدكاكين ويشرفون من

الرغيف

السطوح وينزلون على الادراج ، حتى تجمع حول العسكر عشرات منهم . فاومأ القـائد فانطلقوا من ناحية واحـدة يتسابقون ، فغصت بلقمتها وانطلقت وراءهم .

ولحقت بمؤخرتهم فسمعت واحداً يتساءل عالياً :

ــ الى اين نركض هكذا ؟

فيجيبه الآخر :

ــ سعرك سعر الناس . اركض !

فتقدمت الى الجماعة التالية فاذا بينهـا الثقيـل ذو شاربي ريش القنافذ .

ــ في ضهر الوحش ؟

ــ في ضهر الوحش ، هنا .

ــ الاثنان ؟

ــ الاثنان ... ماذا كنت اقول لك ؟ سترى .

وجعـلا يلهثان وقد عجزا عن متابعـة الكلام ، فسبقتهما تعـدو وتصغي الى ما يقال حوالبها حتى وصلت مع الطليعة .

وقفت في ساحة المحكمة تشاهد مع الشاهـدين ... نطاق من حبل مضروب عن جثتين مطروحتين على الارض ومغطى رأساهما بكيس خيش . بقع من الدم مسودة تصبغ ثوبه « هو » على الخاصرة وبقع اخرى حمراء على ساقة اليمنى . جاء رصاصهم في قلبـه ورجله وربما في رأسه ايضاً . جثته الضئيلة ملقاة على البطن ، وجثة الآخر

الضخمة على الظهر . وجنديان يدوران حولها ولا يلتفتان ...
كأنها قطتان رهنتها صرية ! وجنود بين الناس يحافظون على النظام ،
والناس يسددون انظاراً بلهاء ولا ينبسون ، الا بعض همسات :

« الحق عليها ! »

« نجانا الله ! »

« الله يرحمها ! »

تلطم هذه الكلمات اذنيها فتميل الى قائليها ميلة بطيئة ، ثم تعود الى التحديق اليه ... فالى الآخر ... ثم غامت عيناها ، فطار بها خيالها الى ذكريات بعيدة ، فجعلت تبلع ريقها كأنها تجتر اشياء حلوة ، وكأن طعمها ما يزال بين الاضراس فهي تتلمظ وتبسم وتغمض اجفانها ... ثم ثاب اليها رشدها فنظرت ، فاذا هي قد بعدت عن النطاق ، واذا في وجهها رجل قد احتل مكانها وضرب بكتفيه العريضتين حاجزاً . واكتنفتها الاجسام من خلفها وعن يمينها وشمالها وضاقت الحلقة عليها حتى لتمعسها . فانزلت رأسها بين كتفيها وضربت بكوعيها فتفرقوا فاقتحمتهم والقت بكلتا يديها على الحبل .

كانت تشعر بمثل السرور يدغدغ جلدها وهي واقفة امام جثة من تحب . سرور غريب ، ناعم ، بارد ، لم تشعر بمثله قط ولم يخطر لها ببال انها تشعر به على خطوتين من ميت ، فكيف اذا كان اعز انسان لديها ! ولبثت ثانية عنقها ، معلقة بصرها به ، لو بقيت الابدية

واقفة وقفتها تلك لما تحركت لها يد ، ولا انفتح فم ، ولا اضطربت في نفسها حاجة ولا شهوة ولا حسرة . فاذا احد الجنديين قد رفع قدمه يضرب بها رأس الجثة الكبيرة ، فيلتفت رفيقه اليه زاما شفتيه ثم ينزل بندقيته من كتفه متمهلا ويضرب بها الرأس الآخر .

— آ ... ع !

فوثب ثلاثة جنود الى زينة واقتادوها الى بعيد بحجة انها تشاغب ، فحاولت ان تمضي فلكموها وجرجروها الى مسافة . ولما اداروا ظهورهم لحقت بهم حتى بلغت الساحة ، فرأت الجمهور قد تفرق الا اقله ، والنطاق قد رفع ، ولم يبق من الجثتين الا قطرات من الدم تضطرب على التراب . فوقفت خائبة تتمثل جثته كيف كانت مطروحة هنا ، وكيف كانت قدماه مضمومتين ... وكيف أنحل السجن والمرض ساقيه ، وسودا اصابع يديه ... وكيف قصره الموت فجعل منه شيئاً قليلا ... وكيف كان وجهه مغطى ... لو كشفوا لها عن وجهه على الاقل ! « الميت قتلا يغطى وجهه لهول منظره ! » هكذا سمعت احد الشاهدين يجيب جاراً . اما هي فلا تستطيع ان تتصور وجهه الا طافحاً بالقوة والبشاشة والجمال ، لا يزيده الدم المتشعب عليه الا روعة على روعة ، كما كان حينما حدثها عن الثورة في مغارة الحورية ... لماذا لم تطلب من الجنود ان يرفعوا الغطاء عنه ؟ لماذا لم تهجم وترفعه هي لتراه مرة اخيرة ، وتضمه امام الناس جميعاً وتصرخ باعلى صوتها : حبيبي لماذا قتلتموه ؟ ! .

٤

قضت يومين بعد عودتها الى البيت ساكتة ، منتحية زاوية من غرفة جدها تنكمش فيها خرقة مطوية . وافاقت مع فجر اليوم الثالث تفرك عينيها كأنها خارجة من حلم . ثم تذكرت ما قاله جدها فور وصولها فهالها الامر . كان ابو سعيد يهم منذ زمان برهن بيته فما فعل . وها هو قد ذهب الى ابراهيم فاخر ورهنه عنده بمئة ليرة !

« ستتبدل حياتنا يا زينة . لن اسمح لك بالنزول الى انطلياس ، وامنع خالتك من التوجه اليك بكلمة ... واقفل هذا الباب بيننا وبين الدكان واسمره بخشبة ... واعطيك كل يوم ما تطبخين به طعامنا ، ونأكل وحدنا ... ونتخلص من منة وردة ومن فضلات العسكر ، ونستأثر بلبن الصبحا فلا نبيع منه لاحد ونصنع منه جبناً »

طن رجع هذه الكلمات في اذنيها ، فقامت الى السطيحة فرأت ابو سعيد يمشي بالبقرة الى الحقل . فلبثت ناظرة اليه حتى توارى ، ثم ساقتها قدماها فنزلت السلم . كانت الشمس لم تطلع بعد وراء صنين ، وفي السماء كدرة زرقاء شفافة ، وهواء ناعم يبعث في الظهر قشعريرة حلوة . فوقفت على باب المراح هنيهة ، ثم ارتفعت يدها الى مفتاحه الكبير المعلق بوتد الى جانب العارضة ، ودخلت الى

المراح . كان الليـل يحتمي فيه فلم تر شيئـاً ، فاستهدت الى السراج لا تفكر فيما تفعل واضاءته فانهزم الظلام الى الزاوية ولصق بالسقف . وحملت السراج بيدها تجول بين الحطـام المبعثر ، تقف فوق هـذا الكرسي المحطم ، وذاك النول النخر المتداعي ، وتتأمل في هذا الجرن المتربع كالشيخ الهرم ، وتنظر طويلا الى كومة القش والحدائد المكدسة في زاوية ، والخرق المطروحة في أخرى لهـا اشكال غريبة وخيالات ... ولما وصلت الى المصطبة التي نام سامي عليها اسبوعا في اول عهده بالاستخفاء في ساقية المسك اضطرب السراج في كفها ، فضغطته فل ازداد الا ارتجافا . وانحنت تطوف بـه فوق المصطبة ذهابا واياباً مرتـين وثلاث مرات . ثم نقلتـه الى اليسار وبسطت يمناهـا فنفضت عن حافة المصطبة غباراً ... ونسيت نفسهـا فوقع السراج وانطفأ ، فتركته وجمدت مكانها في العتمة ما شاء لهـا الله . ثم خيل اليها انها تسمع كرة دولاب وطرطقة نول . وما هي الا ان عاد المراح الى عهـده السابـق ، فابو سعيد يصبغ النيل ، وهي قاعدة على النول تضرب برجليها وتروح مع المكوك وتجيء ، وابوهـا يلم أثواب الديما ويرصفها تلة كبيرة ويربت عليها ، والنساء على الباب يغزلن الخيطان ويغنين انشودة حنونة ... ثم ماتت الضجـة في اذنيهـا ، فاذا هي في المراح بين اشيائه العتيقة واشلائه العفنة ، وقـد نفذ الصبـاح اليه شاحباً مكمداً ، فخرجت .

وانحدرت مع وجيها في الوادي الى مغارة الحورية .

٥

بعد الظهر اقبل طام من صوب بحرصاف ودخل الى الدكان ينادي امه لاهثاً :

ـ امي ، امي ! راسم بك يريد زينة الان .

ـ ماذا ؟ راسم بك قال لك انه يريد زينة !

ـ الآن ! قال لي ان ارافقها اليه الان . اين هي ؟ (وركض الى الداخل) زينة ! زينة !

ـ على مهلك ! انظر هل جدك هنا . لا تقل لها شيئاً بحضوره . هذه نعمة من السماء ! وفركت وردة كفيها سروراً . الضابط يريد ... ها هو اذن يتوسل بنفسه الى التقريب بينه وبينها . واي وسيلة خير من زينة التي لا يقع بصر احد عليها الا اعجبته سمرتها الجذابة وفتنته بنيتها القوية . وقد جاء الامر في وقته ، فليس في قلب زينة من الحب الذي كان يشغلها من قبل ويشمخ برأسها الا ذكرى لن تلبث حتى يحل محلها النسيان . يثبت اعتقاد وردة في ذلك خبرتها السابقة حينما كانت في اميركا ، والمعرفة التي تدعيها تامة بالنساء وبشؤون العشق والغرام . ثم ان زينة تتأبى من معاشرة الجنود ، وهم في الغالب غلاظ فقراء ، اما راسم بك الحاكم بامره في المنطقة

والذي يتسابق كبراء القوم وسيداتهم الى ابتسامة منه فسيكون الشأن معه مختلفاً .

وعزمت وردة ألا تتدخل ... كم من مرة قالت لزينة هذا ابيض ، فردت بل اسود ! الحكمة اذن في البقاء على الحياد . وصدق حدسها ، فلم يتشبطام ان خرج مع اخته من ظهر البيت ، فاطلت تنظر اليهما يسلكان طريق بحرصاف ، وقد شد الصغير بيد زينة يستعجلها ويقفز فرحا .

*

استقبلها الضابط بعبوس لم تكن تنتظره ، ولم يكن طام ينتظر كذلك ان يبقيه خارجا ، كما فعل به حينما عمل الفلق للجاويش كامل افندي .

مشت الى البهو وراءه ، ففتح باب غرفة ثمينة الرياش وادخلها . فسألته ، كالمتجاهلة ، لماذا لا يكون اخوها معها هنا . فلم يجب ، ولم يبتسم ، ولم يدعها الى الجلوس، وادار ظهره فاوصد الباب ، ثم وقف ازاءها بقامته الطويلة وخفض اليها عينيه ، وقال :

ــ اريد ان تفهمي قبل كل شيء انني لا اتدخل فيما بينك وبين سامي عاصم ، وانت تعلمين انني لو شئت التدخل لما وقف الامر عندك ، بل لتجاوزه الى عائلة كسار من الكبير الى الصغير . فقد كنتم تخبئون عن عيون الدولة عاصياً ، فانتم اذاً مشتركون بالجريمة. ولكنها شجاعة طام . فلولاها ...

فجعلت زينة تتساءل ما معنى هذه المقدمة .

ـــ متى وجهت من عاليه ؟

ـــ منذ ثلاثة ايام .

ـــ الموقف دقيق جداً . يجب ان تشكري لي انني وجهت اليك اخاك حين كان الواجب يقضي علي بان ارسل جنديين فيكبلانك بالحديد . (فنظرت اليه) على اني كنت على يقين انك ستأتين ، وحسناً فعلت . اقعدي ، اقعدي .

وقرب اليها كرسياً . فقالت في نفسها « ربما كانت هذه طريقته تهديداً فملاطفة » ، فقعدت .

ـــ كم يوماً مكثت في عاليه ؟

ـــ ليلة ونهاراً .

ـــ هل تعرفين شفيق افندي العلايلي ؟

ـــ لا ... اعني بلى . اعرفه ولا اعرفه . لماذا تسألني هذا السؤال ؟

ـــ رئيس الحراس في السجن الذي كان فيه سامي . هل تعرفينه ؟

ـــ رأيته مرة واحدة لما ذهبت لزيارة سامي . ولكن اسمه سمعته من الناس في سوق عاليه .

ـــ الم تريه بعد ذلك ؟

ـــ لا .

ـــ الم تريه بعد ان هرب من السجن هو وسامي ؟

ـــ رأيته جثة هامدة .

ـــ وسامي ؟

ـــ كانت الجثتان جنباً الى جنب .

ـــ اي طريق سلكت في عودتك الى ساقية المسك ؟

ـــ الطريق الذي ذهبت عليه .

ـــ اين بت ليلتك ؟

ـــ في بيت صاحبته امرأة عوراء .

ـــ الم تري سامي في بيروت ؟

ـــ ...

ـــ يجب ان تقولي لي الحقيقة . (وقطب حاجبيه)

ـــ اذا كنت قد دعوتني الى هنا لتسخر مني ومن لوعتي على هذا الشكل ...

ـــ امضى عليك زمان طويل لم تزوري مغارة الحورية ؟

ـــ ...

ـــ اذا كان سامي عاصم وشفيق العلايلي قد نالا جزاءهما من الدولة لمحاولتها الهرب من السجن فقتلا كما رأيت جثتيهما بعينيك فان ذلك لا يمنع الاجرآات القانونية ان تتم . هنالك امر تعترفين به وهو انك كنت في عاليه ليلة هربهما .

ـــ كنت نائمة وعرفت الخبر في الصباح من الناس الذين تجمهروا في السوق . اتريد ان تقول لي انني ساعدته على الهرب ؟

فتكلف راسم بك ابتسامة :

ــ الحقيقة انك لو استطعت لما ترددت . اليس كذلك ؟

وبسط كفه على كتفها فحاولت ان ترفعها ، فدنا حتى شعرت بانفاسه على وجهها .

ــ كنت تحبينه كثيراً ؟

فابتعدت ، فلحق بها .

ــ وهو ، هل كان يحبك ايضاً ؟

ــ ...

ــ استحين مني ؟...و كيف يمكنه ان لا يحب هاتين العينين!

فازاحت كفه عنها وقصدت الى الباب ، فعاد الى العبوس وقال :

ــ انا افتح لك . اصبري ، سأفتح لك . تذهبين الان وتبقين في البيت ،فقد اضطر الى دعوتك غداً استكمالا للتحقيق .

وخرجت فطلع في وجهها خليل الملا ! ولكنه ادار ظهره عجلا وسوى نظارتيه متظاهراً بالتحديق الى صورة في الحائط...

فلما توارت مشى الى راسم بك وقال :

ــ سمعت الحديث كله ... أرأيت ان الحق معي ؟ حاولت إقناع رشدي بك فلم يقنع . سامي عاصم ليس مجنوناً ، واذا كان مجنوناً فما أظن شفيق العلايلي يجاريه . هل فهمت الفتاة شيئاً ؟

ــ لا ، لا . ان هيبة الدولة تتوقف على هذا الامر .

ــ هيبة الدولة كم مرة انا انقذتها !

ــ ثلاث مرات ، اليس كذلك ؟

ــ بل اربع مرات . هٔ هٔ ... يا حسرتي عليك يا خليل الملا!

يا حسرتي ! يا حسرتي ! هٔ هٔ ! سيبكون علي كثيراً ايضاً !

ــ وانت تضحك مع رفيقك .

ــ الضاحك هي الدولة العلية يا رامم بك .

فتنكب الضابط عنه ثم قال :

ــ الحقيقة ان قلبي رق لها .

ــ هٔ هٔ !

ــ لماذا تضحك ؟

ــ قلت لك سمعت الحديث كله . ستدعوها الى هنا غداً . هٔ هٔ .

وطلع على الشرفة واشار باصبعه :

ــ انظر ، انظر ، وقل اليست جميلة ؟

كانت تمشي مخفوضة الرأس ، غارقة في تفكير عميـق . فكرر طام سؤاله للمرة العاشرة :

ــ اختي ، اختي ، ماذا قال لك رامم بك ؟ اذا كان قد ضربك فسأنتف له شاربيه غداً . اقعد في حضنه واتظاهر بانني سأفتلها له ، هكذا (وبرم باصابعه) واشد !

ــ لو كنت اكبر مما انت يا طام !

ــ لماذا اكبر ؟

ــ هل تحب سامي ؟

ــ كنت احبه كثيراً . هل قتلوه . . . اعني انه لن يقوم ابداً ؟

ــ ابداً ، يا طام .

ــ لو ذهبت حالا ، حالا عندما رأيته في عاليه ونشقته شيئاً ! وبما كان مغمى عليه مثل جارنا الذي اخذوه الى المقبرة على المحمل فعاش في الطريق !

ــ أترافقني يا طام اذا اردت ان اذهب الى بعيد ، الى بعيد ؟

ــ اذهب . الى اين ؟ الى انطلياس ؟

ــ سامي كان يقول لي . . . ولكنك ما تزال ولداً .

ــ ماذا كان يقول لك ؟

ــ انت لا تفهم هذه الامور . غداً تصير شابا .

ــ قولي لي ، ماذا كان يقول لك سامي ؟

ــ لا شيء ، لا شيء . . . انا مجنونة !

ــ سأقول لجدي . جدي يخبرني .

ــ وجدك ايضاً ليته كان اصغر مما هو !

ــ جدي كبير ، وانا صغير ! تحبين انت يا اختي . اعني تريدين واحداً مثل سامي ؟

ــ . . .

ــ ان تجدي . الخواجه سامي ما له مثيل في الدنيا . . . اختي اختي ، جاء جدي !

وكانا على امتار من البيت ، فالتفتت فرأت الشيخ يدفع عصاه

مصرعا ، فبادر اليه طام بلاقيه ، فشال ابو سعيد بحاجبيه فلما وقع بصره على زينة انحنى يبوس الارض . ثم اخذ يلومها على طيشها وقلة تفكيرها بالعواقب ، واراد ان يشفي غليله فصفق بالعصا على قفا حفيده وانذره لا يطأ صوب بحرصاف بقدم ولا يزر الضابط الى الابد !

ولما اختلى بها في غرفته اخبرته بما جرى لها فاحكم الخطة لابعادها عن واصم بك اذا كان من غد ووجه بطلبها .

٦

كان بيت كسار بيت تقى وصلاة ، لم يتجاوز الدنس الصالون الذي جعلته وردة حانوتا ، ولم تمد الرذيلة اصبعاً من اصابعها الى فكر او عاطفة عند ابو سعيد وزينة وطام . فلما طلع الصباح ارسل الشيخ حفيدته الى المخبأ الذي اتفقا عليه ، ثم خرج بالبقرة مع طام الى الحقل ليجمعا الازهار للمسيح . فقد كان اليوم الجمعة الحزينة ، وللجمعة الحزينة شأن في القرية يتعاقب كل سنة ، لا يذكر ابو سعيد انه فاته منذ طفولته مرة واحدة . كان ينطلق مع رفاقه وهو صغير ، ومع افراد عائلته لما كبر وتزوج ، حفاة في مباذلهم وثيابهم الرثة ، لا يتأنقون ولا يتزينون اماتة لكبريائهم ، تفرز الاشواك والحجارة

في اقدامهم ، فيجدون لوخزها لذة الايمان وسعادة مشاركة المسيح بالامه . ويوافيهم صبيان القرية وصباياها ، ورجالها ونساؤها ، يتسابقون الى الزهرة الجميلة ، ويباهون بعضهم بعضاً بالطاقات المنورة الفواحة .

اما اليوم فان ابو سعيد يمشي من الوادي المستوحش الى الرابية القفراء ليس الا طام والصبحا ، وهيكل فرس عظمي يلمع على الشمس ... قد قعد هم الرغيف بمن قعد في بيته ، ونفر بمن نفر الى بيروت وزحله وحوران ، وقتل البقية فما يجد الفادي العظيم من يمد كفنه .

كان يصعد ويهبط ، ويتزحلق ويتسلق ، فما يقع الا على شقيقة ملوية هنا ، وبنفسجة مدعوسة هناك ، وريحانة مقصوصة عن جذور ما تزال جراحها سائلة . كأن الربيع ، خير الارض ، ذهب مع سائر خيراتها ، ما عافه الجراد او لم يقدر عليه اتى عليه الاتراك وبغالهم الا الشوك والعوسج ، وبضع اعشاب خضراء اعتصمت وراء صخرة عاتية ، أو استخفت في زاوية بعيدة ، فطلعت مع زهرات لها اخوات ، جازعات ، منتظرات يدأ تقية في يوم الجمعة الحزينة .

وقف الشيخ ، وليس في يده الا طاقة هزيلة ، يسرح نظره في العراء ويطوي نفسه الى الماضي ، عهد الارض في عرس ، يضحك وجهها بالزهر من كل لون وتزقزق عصافيرها باغاني الحياة والبركة ويهيم نسيمها متموجا على بساط من سندس يلف الرابية ويمتد الى

السفح فالوادي ، غاسلا طرفه بالساقية . حتى الساقية جف ماؤها ، واسن ما تجمع منه في البرك ، وفاحت رائحة النتن القاتلة من جثث الحيوانات ، تموت فيلقيها العسكر في الوادي . حتى السماء تنكر وجهها فاربد بعد صفائه ، ومشت فيها اشلاء غيوم وراء اشلاء . وسكون في الجو كسكون القبور لا يصفق فيه ابو حن ، ولا بلونه حسون بريشه . ليس الا قرد المايش في العليقة القريبة الحاضنة الصخر ، عصفور صغير شائخ يتنقل بين القضبان ، تحت قدمي ابو سعيد ، تاركا على كل قضيب شيئاً من زغبه ، يتطلع الى السماء من خلال شبكته ويخفض دونها منقاره .

ورفع الشيخ حاجبيه يتفقد الصبحا فلم يجدها ، فنهض ونادى :

— طام !

فرد الصبي وتعانقت اصداء الصوتين . ثم انطلق كل منهما في جهة وراء البقرة . وما زالا يسعيان حتى لحاها في الكروم ، فلحقا بها فاذا هي في « النقبة » . والنقبة اسم اطلقه ابو سعيد على كرمه منذ عشرين سنة حين نقب ارضه فجدد شبابه ونصب قبابه ، حتى صار احسن كرم في المنطقة وذهب له صيت في الكروم .

هذا الكرم وحده يساوي مئة ليرة ذهبا ، وابراهيم بك فاخر يسترهن البيت والتوتات التي امامه ، والكرم والحقل الذي في طرفه بمئة ليرة ورقا ! ورطل الطحين بليرة قبل اسبوعين ، وبليرة ونصف اليوم ، وبليرتين او ثلاث بعد شهر ... واذا طالت الحرب ، ومن

يدري متى تضع اوزارها ، واستحق الرهن فلم يتمكن من دفع المبلغ ورباه الثلاثين بالمئة ، فهل يكون معنى ذلك انه سينفض يده من الكرم والحقل والتوتات والبيت الى الابد ؟

ومشى في الكرم ، قد فعل به الاتراك ما فعلوه بالحقول . قصوا اشجاره وسلطوا بغالهم على عرائشه قضماً ووطأ ، وخربوا حافاته التي رصفها بيديه حجراً فحجراً ، فتكومت الحجارة تلة هنا ، وتبعثرت فرادى في موضع آخر ... ولولا شفاعة طام لدى الضابط لشقوا فيه الخنادق كما شقوها في الكروم المجاورة خطاً معوجاً ينطق القرية بسخرية الدفاع عن الوطن اذا هاجمه العدو ! وجعل يرفع حجراً الى محله ، ويخرج وجه عريشة الى النور ، ويهز برأسه حزيناً .

ثم استكف الى الشمس ، ودعا حفيده ان يسوق الصبحا . فدار الصبي خلفها ، فأبت ان تنزع شفتيها عن الارض ، فضربها ، فاصرت ، فاستعان بجده فاقبل بعصاه وصفقها على ظهرها ، فرنت الصفقة على عظامها رنة خرساء ، ومالت برأسها اليه ، وعادت تجر لسانها على الارض وقد ألح بها الجوع فما تجد عشبة . فادركته لها رقة فمسح بكفه عليها ، وقد نتأت في ظهرها وكتفيها وعجزها رواب صغيرة ، وانخفضت ما بينها اودية عميقة ، وبرزت اضلاعها فالعين تأخذها عداً .

وقبل ان يصل ابو سعيد الى البيت عرج على احد الدكاكين فاشترى رطل شعير ووضع منه مقداراً في معلف الصبحا وقال لها :

— فتأكلين مثلما نأكل ، ويفرجنا الله !

وحمل طام طاقتي الزهر وقصدا الى سيدة المعونات .

— متى يطلع المسيح الى السماء ، يا جدي ؟

— في اليوم الثالث ... يتدحرج الصخر عن القبر ويقوم من بين الاموات كما جاء في الكتب .

فتألقت عينا الصغير ابتهاجا ، وسار بضع خطوات ثم قال :

— جدي ، جدي ! هل مات المسيح من الجوع ؟

ولما وصلا الى الكنيسة قبل الشيخ جدارها ودخل مشيراً الى حفيده أن يسبقه فيضع الطاقتين على المذبح ، فمشى الى المذبح ووقف يحدق بغيرة الى طاقة كبيرة اخاذة الاشكال والالوان . ولكن الثلاث الاحريات ادخلن الى قلبه العزاء ، فوضع ما في يده وانكفأ . فاذا في وسط الكنيسة رجل قد اكب يصك جبهته بالبلاط ثم يرفع عينيه وذراعيه الى العلاء ضارعا بصوت عال ، ثم يقرع صدره قرعا شديداً ليعود الى عض الارض ! فاقبل طام وئيداً حتى ركع بجانب جده وعيناه لا تفارقان الرجل . ثم جأر المصلي « يارب ! » فلم يستطع طام حبس ضحكته ، فحدجه ابو سعيد مؤنباً ، فعاد الى الوقار .

ولما استكمل الشيخ صلاته قام ولحق به حفيده ، فلم يصيرا الى الباب حتى سأله :

— جدي ، هل رأيت الطاقة الكبيرة ؟ لمن هذه ؟

— للذي كان يصلي وضحكت منه .

— ومن هو ؟

— ابراهيم بك فاخر .

٧

رجع ابو سعيد تواً الى المراح . وشد ما كانت دهشته اذ نظر فلم يجد البقرة فيه ، ووجد معلفها مقلوبا وراويتها محطمة ، فطار صوابه فخرج يدور حول البيت فالى الدكان :

— الصبحا ، اين الصبحا ؟

فضحكت وردة ضحكة استهزاء وسألته بدورها :

— اين زينة ؟

ثم اخبرته ان راسم بك وجه جنديين بطلب زينة ، فاجابته انها لا تعلم اين هي وان جدها ذهب بها . فانصرفا ثم عادا ومعهما الضابط ففتشوا في البيت ونزلوا الى المراح وساقوا البقرة وقال الضابط :

« تبقى عندي رهينة الى ان تأتوني بزينة ! »

كان الشيخ لا يستطيع ان يتصور دنياه خالية من الصبحا ، فهي الذكرى الباقية من ماضيه يتوكأ عليها ويجرجر ايامه العاجزة ناشقاً من انفاسها رائحة شبابه وعزه . فلما سمع من كنته ما سمع

نكس رأسه ونزل الى المراح فوقف ازاء اشياء البقرة كاسف البال ، يفكر بالضابط اين يضعها عنده وماذا يطعمها ، وهل يبقي عليها او يذبحها . وكان يعلم ان هذه ليست بالمرة الاولى يلجأ فيها راسم بك الى مصادرة حيوانات الناس . سبق له ان استولى على كديش ابن عمه طانيوس كسار ، وبغل جاره ، وثلاثة حمير لبعض المكارين باسم التكاليف الحربية . فتشرد المكارون بعد حميرهم ومات صاحب البغل جوعا . اما طانيوس فعرف سبيله الى الانتقام ، فها هو ، منذ ان سُلب كديشه ، يغزو مستودعات العسكر بالتواطؤ مع كبارهم فيسلمون اليه تحت جنح الظلام اكياس الشعير بالعشرات ، فيقضي الجوع كل اسبوع على اربعة او خمسة من خيل الدولة مقابل ذلك الكديش العاجز .

وكان ابو سعيد قد خبأ حفيدته عند طانيوس لبعد بيته ولبأسه ودهائه وكثرة مداخله ومخارجه . فعزم على الذهاب اليه لاطلاعه على ما جرى لعل له رأياً .

*

وذاع الحادث ، فلهج الناس به يتساءلون ايترك ابو سعيد بقرته ام يفديها بزينة؟ ورآه بعضهم في اليوم التالي يدور حول منزل الضابط ويقف قبالة الصبحا على باب القبو ، فقالوا : البقرة احب اليه ! وانتظروا ان يسلم زينة . ولكن اليوم الثالث انقضى والصبحا ما تزال معتقلة ، فقال قائلهم : سيزوج زينة من ابن عمه طانيوس فيكف

الضابط عنها ويفلت البقرة . وقال آخرون : ان وردة ستتولى تسوية المشكل فترضي راسم بك بما تملك من اساليبها ! ... الى غير ذلك من حلول كانت تصل الى اذني الشيخ فيقاسي من اجلها عذابا كبيرا .

وطال الحبس على الصبحا فرأى ان يقوم بمسعى ، فوجه طام الى الضابط يزعم له ان زينة هربت من القرية وان جده بذل فوق الطاقة لمعرفة مقرها فلم يوفق ، وان البقرة تجوع في القبو فهو يخشى عليها الموت ، وانه حرام ان تموت بقرة مثلها ، فمن الشفقة عليها ان تعاد اليه ، او يؤذن له على الاقل بان يرعاها ويقوم على العناية بها ، ولراسم بك لبنها كله في الصباح وفي المساء .

على ان المسعى اسفر عن نتيجة معكوسة . فقد رجع طام باكياً بين جنود ثلاثة هجموا على ابو سعيد وامروه بان يحمل معولا ورفشاً من عنده ، وصاحوا به :

— امش امامنا الى كرمك !

فلما وصلوا الى الكرم التفت فاذا جنود كثيرون يشقون فيه خندقا . وتسلمه جاويش يرأسهم فاجبره على المساهمة في العمل تحت وابل من التهديد والشتم والضرب .

*

وكان الضابط يأتي الى الكرم مرة او مرتين في اليوم فيسأل الشيخ عن زينة ، فيصر على الانكار ، فيبصق في وجهه ويأمر الجاويش بجلده على مرأى منه ... واستمر ذلك اسبوعا وابو سعيد

يتحمل راضياً بل يجد لذة غريبة أن القم الثرثارين حجراً وتبقى حفيدته في عصمتها ، ولو كلفه ذلك موته وضياع الصبحا .

على انه فوجيء ظهر يوم وهو يتناول غداءه في البيت بجنديين يسوقان البقرة اليه فقام مبهوتا يسألهما ، فتبادلا ابتسامة وقفلا . فترك الطعام واسرع الى بيت ابن عمه ، فاستقبله طانيوس على الباب كأنه كان ينتظر قدومه وقال له :

ــ زينة عند راسم بك !

٨

كان فرح الضابط لا حد له . زعمت له ان جدها هو الذي اوفدها لا طمعاً بالبقرة فهي هدية منه اليه ، بل تشرفا بالقائد الكبير والحاكم الخطير . وكانت تتكلم مخفوضة الرأس وفي صوتها ارتجاف الخوف . ولم يكن ذلك الا ليزيدها فتنة ويزيد راسم بك شوقا اليها والى التمتع بمحاسنها المصونة . فاندفع ينثر الوعود الطيبة ، ويبسط حبه في عبارات مختارة ، ويكشف بين هذا وذاك عن مخبآت طبعه ، حتى وقع في ذهنه انها استأنست به ، فرفعت وجهها اليه وابتسمت ابتسامة الاطمئنان . فكاد يطير مرحا ، وقام من فوره يريد ان يقفل الابواب ويطرد الحجاب ، ولكنها استمهلته الى الليل واوسلت اليه

غمزة ! فوثب لعناقها ، فردته بدلال . ومضت في البيت ترتيباً للاثاث ونفضاً للغبار ، تضاحكه فيعابث ، ويطاردهـا فتداور ، حتى ارخى الظلام سدوله .

قالت :

ــ لا يخدمك في البيت سواي .

ــ ليس عندي الا جنديان : الطباخ والحاجب . وقد صرفت الحاجب فهل اصرف ...

ــ لا اريد ان يزعجنا مخلوق .

ــ ومن يصب لنا كأس الخمر ويهيء العشاء ؟

ــ قلت لك انا أخدمك . ألا تحب ان اخدمك بنفسي ؟

فقام وعمل بما شاءت . ورجع حاملا طبقاً عليه زجاجة واقـداح وفاكهة، فانتصبت واخذته منه فحطته على المائدة ، فحمله من جديد واشار اليها ان تتبعه ، حتى وصل الى غرفة نومه فالقـاه على السرير ضاحكا وقال :

ــ هنا !

وجلس وضرب بيـده ليجلسها على حضنه فتمانعت ، ثم وقعت عليه وقعة واحدة فطوقها بذراعه فانفلتت منه وتناولت قنينةالعرق:

ــ لعن الله خالتي ، عودتني الشراب !

ــ أتلعنينها من اجل ذلك ؟ ان الشراب حياة الانسان . انـا ان لم اشرب في اليوم الواحـد زجاجتين مثل هـذه فليس اليوم من

عمري . الك هذا القدح ام لي ؟

ـــ لي انا .

ورفعته مشمئزة :

ـــ اف لهذا الجندي الذي يخدمك ! لا يغسل الاقداح .

وقامت بقدحها ، ثم حملت القدح الآخر وقالت :

ـــ أتعلم بماذا يغسل القدح ؟

ـــ ...

ـــ بما وسخ به !

ـــ العرق ؟ (وضحك)

فضحكت ، وتناولت الزجاجة ايضاً وذهبت الى المطبخ فحاول ان يلحق بها .

ـــ لا تزعج نفسك . اما قلت لك انا الخادمة هنا ؟

ـــ بل سيدة البيت .

ـــ اذن تبقى !

فكتف يديه ومد بفمه الى ابتسامتها ، حتى اختفت وراء الباب .

ومضت دقيقة فنفد صبره :

ـــ أأقوم واساعدك ؟

ـــ لا ! لا !

ومضت دقيقة اخرى :

ـــ انك تضيعين هذا الوقت الثمين .

ـــ سترى انني لم اضيعه .

وجاءت تحمل بيسراها كأساً وباليمنى الكأس الثانية والزجاجة. فنهض يلاقيها ، فادنت يمناها فتناول منها الزجاجة والكأس وقعد مكانه وجذبها اليه ، فقالت :

ـــ نشرب اولا .

وقرعت قدحها بقدحه . فلم ينزعه عن شفتيه الا فارغاً .

ـــ ما لك لم تشربي ؟

فانتفضت ثم ضحكت :

ـــ كنت احب ان نتناوب الشرب من القدحين ، فمن هنا مصة ومن هنا مصة .

ـــ هاتي اذن .

وشرب من قدحها فشربت بعده ، فشرب ايضاً . ثم ارسل ساعده خلفها به والقاها على صدره فاستسلمت لقبلته في سعادة لا حد لها !

ـــ صبي لي . العرق من يدك احلى .

فصبت ، فقال :

ـــ كانوا يقولون لي ان بنت كسار جميلة ، فلا اصدق .

ـــ من قال لك ؟ طام ؟

ـــ لا . طام لا يفهم بهذه الاشياء ولا يهمه الا الزبيب والجوز .

ـــ خليل المعلا ؟

ـــ ولكنه قال لي ايضاً انك تحبين ، او كنت تحبين . . . رحمه

الله الان ! رحمه الله ، اليس كذلك ؟ (وافرغ كأسه) صبي ، صبي ! احس بحلقي ناشفاً لا ترطبه الا الكاس العشرون .

ـــ الواقع ان هذا العرق حاد . انا ايضاً احس بشيء في حلقي .

ـــ بل هذا احسن عرق ! اثر فيك كلامي . اريد ان تشربي . اشربي ! اشربي ! كان علي ان لا افتح حديث سامي ، المرحوم سامي ! اما تزالين غضبانة علي من اجل الاسئلة التي طرحتها عليك يومذاك ؟ صدقيني ، كنت مضطراً بحكم القانون ... القانون لا يراعي احداً .

ـــ انا افهم موقفك جيداً . والحق انك كنت لطيفاً .

ـــ ـــ تصوري ، تصوري يا زينة : انا ضابط في جيش الدولة اشرب الخمر مع حبيبة ثائر على الدولة ؟ صحيح ان هذا الثائر قد لقي جزاءه كما رأيت بعينيك ... ولكن ما لنا ولهذا .

وقذف كأسه الى جوفه ثم قال :

ـــ اين كنا من الحديث ؟ آه ! لماذا انقطع طام عني ؟ لولا طام ... لولا طام ... الا يزال العسكر يسكرون ويقامرون في الدكان ؟ خالتك تعتقد انني اجهل كل شيء ... وابو زيد ؟ كيف حال ابو زيد بعد الديوان العرفي ؟...اف !ما هذا العرق؟ ان صدري يشتعل .

ـــ لا تشرب من هذه القنينة . اخاف ان يكون فيها شيء . أما عندك غيرها ؟

ــ بلى .

وقام يتهادى فامسكته .

ــ اتركيني . اتركيني !

ومشى الى الخزانة مردداً بقوة :

ــ انا لا اسكر من العرق ! (فاضطربت من ام رأسها الى اخمص قدميها) انا لا اسكر من العرق! ابداً ! ابداً ! انا لا اسكر .

ولكنه لما دفع بالمفتاح ابعده عن ثقبه شبراً . فتناولته وفتحت . فادخل يديه الاثنتين فترامت القوارير والاقداح بعضها على بعض بقرقعة عظيمة . ثم مال فاذا عيناه تجحظان ، فكادت رباطة جأشها ان تخونها . فاذا به يقهقه عالياً . ثم انحنى الى زجاجة وهتف :

ــ هذه !

واهوى بكفه على اختها ! ورفعها الى فمه ، فقالت :

ــ هات ، ازع لك السدة .

فلم يفعل ، وشد عليها باسنانه فنزعها . وظلت القنينة تقرقر فوق شدقيه حتى انصفت ، فتلمظ مسروراً :

ــ ها ! هذا هو العرق الزحلي الطيب .

وعاد فاستلقى على السرير :

ــ لو نفتح شباكا . أحس بحر شديد .

فتهيأت للنهوض ، فاردف :

ــ ابقي هنا . بل افك طوقي . يجب ان افكه .

وطفق يصاول طوقه فما تستقر اصابعه على زر ، فدنت تعاونه فضمها اليه ، فقالت :

— تفك طوقك قبل كل شيء .

— وسترتي كلها ، اخلعيها عني .

— وسترتك ايضاً !

— وطماقتي ، وكل ما علي ... كل ما علي !

— هوه ، هوه ! اني اخاف من هذا .

فثنى عنقه وقال :

— ا . . مسد . . س ! احذري . انه محشو !

فتناولته في سيره الجلدي اللماع ، ثم نزعته من غلافه برفق فسرت من حديده البارد الى اصابعها رعشة هائلة . ونظرت الى راسم بك وقد اغمض عينيه وفغر فاه ... وخيل اليها انه يتحرك صوبها ، فبهتت ! فاذا به يرد اللحاف عليه فلم تعد تسمع الا خنينه وخفقات قلبها . فعزمت ألا تتحرك حتى تأتي ساعته .

— اين انت ؟ تعالي .

فوضعت المسدس على المكتب وخطت اليه مسحورة ، واتكأت على حافة السرير . فشدها اليه ، فاحست بحرارة فراشه ناراً تدخل اليها حتى الصميم وتطلع شعلاتها الى وجهها فتحرقه .

— ها ها هه ! لو كنت سكران لاخبرتك اشياء عن سامي عاصم . ولكني لست سكران . انتهى كل شيء . لقد استرحت .

استرحت . الا ترين اني استرحت ؟ ولو كنت سكران لاخبرتك اشياء عن خليل المعلا تضحك ... تضحك ! مات خليل المعلا - يا حسرتي عليك يا خليل المعلا ! - اربع مرات ! ولكن لا استطيع ان اخبرك عن خليل المعلا وحده لان خليل المعلا ... ها ها ها ! ها ها هه ! لست سكران ... لماذا تعودين الى حديث سامي عاصم؟ قلت لك دعينا منه . سامي عاصم خائن الدولة ! خائن ! خائن!... في الواقع انني لست مستريحاً . عطشان ! عطشان ! اريد ان اشرب . تعالي . قربي هذا الوجه ... لن يبرد عطشي الا قبلة من هنا ، من هنا !.. آه ... آه ... آه ! قومي ، اعطيني الابريق... الابريق! ان امعائي تتمزق !

فانسلت من السرير ووقفت تدور بيدها خلف ظهرها وتتلمس بها على الكتب . ثم برقت عيناها وحدثتها نفسها للمرة الثانية ان تضع حداً لهذه الازمة التي لا تنتهي . ولكنها لم تفعل وهرولت الى المطبخ .

وجمدت وراء بابه تنصت حابسة انفاسها .

— الابريق ... الابريق !

فلم تتحرك . وعقب ذلك صمت طويل . فلم تشك ان الساعة دنت . واخذ يدغدغها سرور أشبه شيء بالنشوة . واطلت برأسها على عارضة الباب ، فاذا به يزحف نازلا عن السرير ، يقبض بطنه بكف ويبسط الاخرى الى سترته المعلقة على الكرسي ، وقد توثبت

على وجهه تهاويل من عذابه زرقاء ، حمراء ، سوداء ، وكشر عن اسنانه . فلم يبق لها ان تتردد فتناولت الابريق ومشت اليه . فحاول ان يسند مرفقه الى حديد السرير ، فسقط على الحضيض فابتعدت .

ــ قربي ! قربي !

فقدمت الابريق ، فاختلجت اصابعه اليها . ثم جعلت عيناه تكبران ، وهي تقدم الابريق شيئاً فشيئاً حتى اذا حسب انها على متناوله وثب هادراً :

ــ سم ! سم ! سأقتلك ...

ولكنه قبل ان يتمكن من شمالها كانت يمينها قد اطلقت الرصاصة الاولى فالثانية ، فانطوى على قدميها ، فتراجعت تنظر الى الدم يدفق من جبهته وصدغه نبعتين فوارتين .

وتقلصت رجله العارية المكسوة بالشعر .

ثم انبسطت على البلاط البارد وهدأت ...

*

وفي ساعة متأخرة من الليل قرع الباب المطل على السطيحة من بيت كسار قرعا متداركا فقام ابو سعيد وفتحه ، ولم يكد حتى اقتحمه شخص بلباس عسكري فظنه الجاويش فهتف به :

ــ كامل افندي ! ما يجيء بك في هذه الساعة ؟

ــ انا زينة ! زينة ! يجب ان تخرج معي في هذه الدقيقة ، وربما لن نعود ابداً ! احمل المال فقط واترك كل شيء .

ـــ ماذا عملت يا زينة ؟

ـــ سأخبرك عندما نبتعد من هنا. كنت اريد ان اكتفي بالسم، واما وقد اضطررت الى الرصاص فلم ار بدآ من ان امر بك . اخاف ان يأخذوك بي .

ـــ زينة ! زينة !

ـــ عجل ! عجل !

ـــ وطام ؟ ماذا نفعل بأخيك طام ؟

ـــ طام صغير ... وخالتي تتدبر امرها . اين طام ؟

فاخبرها ان الصبي ترك امه ونام معه لانها ضربته لرغيف اخذه من الدكان دون علمها ، فاشترى له كعكة . فاضاءت المصباح ، ومشت الى الزاوية تتأمل في اخيهـا . كان شابكا يديـه على الكعكة وقـد ادناها الى فمه لم يمسها بعد باسنانه . وكانت خصلة من شعره الاسود مسبلة على جبينه ، فانحنت تردها باطراف اصابعها وتمتم :

ـــ لن آخذك معي يا طام .

وعادت تتأمل فيه ، ثم :

ـــ هو ما قلت لي يا طام : انت صغير وجدك كبير .

ومسحت بشفتيها موضع الخصلة من جبينه ...

٩

طلع الصباح ...

واكتظ العسكر في منزل الضابط ، ومشى الخبر من بحرصاف الى ساقية المسك ان راسم بك مقتول في غرفته .

وانبث الجنود في البيوت وجاء الفريق الاكبر منهم الى بيت كسار بصحبة طاهي الضحية ، ففتشوا وبعثروا وحطموا وداسوا ونهبوا . كل ذلك على مشهد من وردة ومسمع ، تحاول ان تردهم عن الدكان وترتمي على اقدامهم متوسلة حيناً وتنبش شعرها مولولة حيناً آخر . حتى ضاق بها احدهم ذرعا فضربها بالبندقية على رأسها فوقعت مغمى عليها ، فانحنى يصفعها ففتحت عينيها وقامت متهادية ، فاعاد عليها الكرة لكما على ظهرها . وسحبوها وطام الى الثكنة .

بدأ هذا الحادث عهداً جديداً في حياة طام لم يكن يتوقع من غرائبه شيئاً ، ولم تكن نفسه البريئة قد تهيأت بعد لتحمل فظائعه وموبقاته . فكأن الايام التي تتدرج بالناس في دنياهم تدرجا ، فتقطع بهم انجادها واوديتها على مراحل محسوبة ، شاءت ان تشذ به عن القاعدة فتناولته كما يمسك الراعي حصاة بمقلاعه ، وقذفته من عل قذفة هائلة ، فلم ير نفسه الا وسط المعركة لا سلاح لديه من قوة

او خبرة ، ولا تمتد اليه يد بمعونة .

وصلوا به وامه الى الثكنة فاجتمع عليهما العسكر ، ووقع نظره على كامل افندي فصرخ اليه فتنحى الجاويش وابتعد . واستمرا يمشيان محتوثين بالشتم والضرب والتهديد ، الى ان وقفوا بهما على عتبة غرفة فيها ضابط لم ير طام له وجهاً من قبل . وتقدم الضابط فكلم الجنود بالتركية فادخلوا وردة اليه ، وساقوا ابنها الى حجرة مجاورة واغلقوا عليه الباب .

كانت الحجرة خالية ليس فيها الا حقائب محطمة واكياس فارغة مع بعض احذية ضخمة عتيقة. وكان اكثر ما اقلقه ابعاده وافراده ، فالتصق بالباب يقرعه وينتحب عالياً . فانفرج فجأة ودخل جندي وصفعه بلا شفقة ، وخرج .

ومضت دقائق طويلة يختنق فيها الصبي عذابه ويترك دموعه تنهمر على خديه صامتة ، هادئة . ثم اذا خبط على الباب ، وما هي حتى افتتحه جنديان يدفعان وردة من ظهرها فوقعت على الارض فحاول ان ينحني اليها ، فاجتذباه وساقاه الى الضابط . فوقف بين يديه يرتعد من ام رأسه الى اخمص قدميه ولا يتجاسر على رفع بصره .

اخذه الضابط باللين اولاً ثم بالشدة ، فلم يستطع ان ينيره بشيء . فامر باخراجه ، فوضعوه في حجرة خاصة قضى فيها ليلته فريسة الخوف والالم . وفي الصباح جروه الى الضابط مرة اخرى فصف امامه قطعاً من الحلوى ، فلم يمد اليها يداً على شدة جوعه وذوبان قلبه

على واحـدة . فاوّل امتناعه بان لديه سراً يخفيه ، فالح عليه ، فلم يأكل ، فتناول عصا وانهال بها على ساقيه حتى كاد يهلكه .

ولكن اتعاب الضـابط ذهبت سدى ولم ينتزع من الصبي الا صراخا واسترحاما ودموعا ، فامسك عنه . وجاء الجنود فاخذوه عند امه . وشد ما كانت دهشته اذ رآها تستقبله بالضحك منبوشة الشعر زائغة البصر ، فارتمى يلتمس في حضنها العزاء عمـا اصابه ، فقذفته وقامت تذرع الغرفة ذهابا وايابا وتخاطب نفسها بكلمات غير مفهومة ، وهو يلحق بها ويتمسك باذيالها فتهرب منه وتعود الى القهقهة .

في اليوم الثالث قرنوا شمالها الى يمينه في غـل واحـد ووضعوهما في طنبر من طنابر العسكر وساروا بهما في طريق لم يمر عليه طام في حياته . وكانت وردة تغفو تارة ثم تنتبه فتشد بالقيد محاولة الانفلات فيهوي عليها الجنود فتهدأ ... وظـل الطنبر يكر بهما نزولا حتى اظلم الليـل . ولقد برح العطش بطـام فطلب من الجنـود ان يسقوه من القربة الكبيرة التي معهم فلم يردوا عليه . ثم اجتمع عليه الجوع والبرد فاحتمى بصدر امه النائمة يرتعش وتصطك اسنانه ، والطنبر يهبط في الاخاديد ويعلو على تلك الطريق المخربة برجرجـة تخلع قلبه وتقض عظامه ، حتى خيل اليه انه في رحلة لا نهاية لها .

*

وزج طام ووردة في السجن .

وتكررت رواية التحقيق بفصليها لطفاً وشدة .

على ان اشد ما آلم الصغير انه اصبح ابن مجنونة ! وتطور جنونها فلم تعد تضحك ولم تعد تتمتم بل تلتزم الصمت وتنتبذ ركناً تقعد فيه مسددة الى الارض عينين فارغتين . وتأتيها النوبة بين ساعة وساعة ، فترفع ازارها الى وجهها وتزغرد باعلى صوتها :

ـ للللللي !

تقوم الزفة في الصباح ، وعند الظهر ، وفي المساء ، وفي منتصف الليل احياناً . فيجتمع عليها السجناء هازئين ، ويتحرش بها خبثاؤهم وتقوم المشاجرات بينهم وبينها فيتدخل طام ، ويتدخل حارس السجن . ويتكرر الشان كذلك حتى يغلبها النوم .

وكان في القاووش نحو من عشرين سجيناً ، يختنق الجو بانفاسهم وروائحهم ، وتحفل ارضه باقذارهم ، فهي لزجة عفنة أشبه بزريبة الخنازير . اذا كان النهار تمنى الصبي الليل تخلصاً من مأساة امه ، واذا كان الليل تمني النهار تخلصاً من البق والقمل والبراغيث .

وكان بين السجناء رجل شرس يهابونه ، يقال له كركور . وكان يتولى تنظيمهم وقيادة الحملات على المجنونة . يرتبهم صفاً ويشير عليهم بالسكوت ، ثم يختلس الخطو من ورائها فيفاجئها بقبلة ، فتهب غاضبة مرسلة من الشتائم افظعها ، لاحقة به من الحيط الى الحيط ، والسجناء يحرضونها ويضحكون ، حتى يمد لها احدهم قدمه فتعض الارض . وقد يدخل السجان مهدداً فلا يقع بصرها عليه حتى ترفع ازارها :

— للللللي !

فما يتمالك من الابتسام ، وترتج ارجاء القاووش بالقهقهات .

واستفاق طام ذات ليلة فرأى رجلا يدب الى امه ، فحدد نظره فاذا هو كر كور . فلم يأت بحركة وحبس انفاسه ... فالفاه ينزع ثوبها برفق ، ثم ينقض على وجهها لثما . فانتفضت زاعقة ، وهجم الصغير على الاثيم يصده ، وانتبه السجناء من نومهم مذعورين وكثر اللغط ، فاقبل الحارس بقنديله ، فانطرحوا متناومين . فالتفت فاذا طام في الزاوية يتفجر لكما ورفسا على كر كور وقد انبطح يشخر عالياً . وكانت لا تفوت السجان شاردة ولا واردة من حيل كر كور فتقدم منه ودق رأسه بالارض ، ثم اخذ بيد طام وخرج به الى الرواق يسأله عن الحادث فيتلعثم مستحيياً ، حانقاً ، مسرورا ان وجد مخلوقا يعطف على والدته ويدافع عنه . ولم يكتف السجان بحسن الاصغاء والوعد بتأديب كركور حتى ربت على كفل الولد وقبله .

وفي الليلة التالية اخرجه ولاطفه ايضاً ، ثم شرع يشده اليه وينفخ على خده ، وما زال حتى فهم طام ما يراد به فافلت يركض في الرواق مستغيثاً . فافاق بعض الجنود فزعم لهم زميلهم ان هذا الشرير قد حاول الفرار فتعاونوا على القبض عليه ، ثم قذفوه الى القاووش بعد ان ادبوه بقسوة .

١٠

قضت وردة وابنها اربعين يوما في السجن . فرأى القائمون على الامر ان يتخلصوا منهما فاطلقوا سراحهما . فراحا يخبطان في الارض ، يزرعها هو بالدموع وتواكبه هي بالزغردة ... يبيتان في العراء هنا ، ويقعد بهما الجوع هناك ، ويرميهما التعب على حافات الطرق وفي الاقنية ، ثم يقومان فيسحبها بيده مستهديا ، مستعطياً حتى انتهيا الى ساقية المسك .

اما وردة فلم تر شيئاً ...

واما طام فوقف حيال البيت مبهوتاً ، ينظر اليه وينكره . فقد نزع النازعون ابوابه ونوافذه ، والقرميد عن سقف الدكان ، واكثر الاخشاب من سطح الغرفتين الترابي ، وتكدست الحجارة والاوساخ ... وليس اثر للفرش واللحف والخزانة والمقاعد والصناديق والخوابي... وحُفرت الارض عن بلاط احدى الغرفتين فلم يبق منه بلاطة .

وداز الى ظهر البيت فرأى التوتات قضت من اعقابها واقفرت الساحة ، وذهب باب المراح ، وكل ما كان في المراح من المحراث الى المعاول الى المناجل الى المعلف . ولم يبق من آثار الصبحا الا

رمة حبل تتدلى من حلقتها في الحيط .

ـــ للللللي !

فوثب يسترها عن العيون بجسمه الصغير ويشد بازارهـا سدلا ، فما ترخيه الا ان تأخذ الزغردة مداها وتحط على قرارهـا . وكان الجـيران قـد اجتمعوا عليها ، يحـاولون ان يكلموهـا ثم يبتعدون مذعورين . منهم من شمت ، ومنهم من تحنن ، ومنهم من ضحك . صفان عن اليمين والشمال يتهـامسون ، ويقلبون الشفاه ، ويشيرون بالاصابع . فاخذ طام يجيل فيهم عينيه ويسأل هذا وذاك وتلك ، وهم ينظرون اليه في شعره الطويـل المنفش ، وقميصه المشقوق عن فخذه المزيلة . ثم وقف في الساحة وصرخ باعلى صوته :

ـــ جدي ! جدي ! اين انت يا جدي ؟

ووقع يبكي . فاخذ الفضوليون ينسحبون جماعات وافرادا ، ولم يتخلف الا بعض النسوة يحطن بوردة ويحثثنهـا على رفـع ازارهـا ويمسكن الخواصر من الضحك .

ومست الشفقة قلب احداهن فدنت من طام فرفعته عن الارض واخذته الى بيتها واطعمته . ولكنهـا خافت من المجنونة فـلم تدعهـا تتخطى الباب ووضعت لها صحنها على العتبة .

وعلم طام من الجارة ان ما عافـه الجنود في الدكان والبيت ، بعد اعتقاله وامه ، قد سرقه السارقون ليلة بعد ليلة ، وان خبر السرقات اتصل بابراهيم بك فاخر فارسل من قبله من اخـذ الابواب والنوافذ

والبلاط قبل ان يأتي عليها اللصوص ، وان ابو سعيد وزينة لم يعودا الى القرية ولم يعرف احد فيها مصيرها ولا سمع عنها شيئاً . ولكن طانيوس كسار الذي اختفى معها جاء مرتين وسألها عن وردة وابنها . فاجابته انها تجهل اهما في السجن ام خرجا منه . فأكد لها في المرة الثانية انهما ماتا ، وهز كتفيه وتوارى .

ــ الم يقل لك شيئاً عن جدي ؟

ــ لا .

ــ ولا عن زينة ؟

ــ طانيوس يحب اختك منذ زمان . واظن انهما تزوجا وذهبا الى زحله .

ــ زحله ؟

وتأهب للقيام ، فقالت :

ــ يقول آخرون هما في بيروت . الحقيقة انني لا اعلم ، ولا احد في الدنيا يعلم . اقعد واكمل صحنك قبل ان يأتي زوجي .

ثم مضت تواسيه ، ووعدته باعطائه شيئاً كل يوم . على انها حذرته لا تأت بحضور زوجي ابداً . وانتهزت فرصة غيابه في تلك الساعة فحملت فراشاً ولحافاً عتيقين واعطت طام مخدة ، وسارا ووردة خلفها الى البيت المخرب ، فلم يكن الا المراح يستطاع فيه النوم تحت سقف ، فسوت المحسنة موضعاً للفراش على الدكة التي كانت معلفاً للصبحا ، ونصحت الصبي ان يذهب من غد عند ابراهيم

بك فاخر ، فلا بد متحن الغني عليه .

١١

ذهب الجنون بعقل وردة وعوضها منه فطرة عجيبة . كانت ترى ان الرزق لا يأتي الا على يد ابنها فشرعت تلحق به كأنها مربوطة اليه برسن . لا تكلمه ، ولا تنظر اليه ، ولا ترى احداً من الناس ولا من الاشياء حواليها . تلتزم السير خلفه فاذا وقف وقفت ، وتميل معه اذا مال ، يميناً وشمالا كما يشاء ، وادعة مطمئنة ، لا تأمر ولا تتوسل ، ولا تؤذي احداً ما لم يتعرض لها .

كانت الجارة قد لقنت طام ما ينبغي له ان يقوله للبك . فلما بزغ الفجر مضى في طريق بكفيا ، وامه تتأثره ، يجتمع عليها الناس فيشير اليهم ان يسكتوا كلما صوتت وهموا بالضحك .. حتى وصل الى الضاحية حيث يقيم الغني .

وقف دون قصر فخم له حديقة ملتفة الاشجار ، تتعرش على سورها ضروب من النبات والزهر بعدة لون واسم . كان يعتقد ، لسذاجته ، انه قادر على مواجهة البك من فوره ، وانه عائد منه بالبشالك ، حتى لقد سبقها هم التصرف بها ووضع الخطط لانفاق ما ينبغي انفاقه والحبس على ما يجب حبسه . فاذا بالبستاني يلمحه ووالدته

في اسمالها وقذارتها فيهش لهما بمعوله ويطردهما عن البوابة . فاجفل الصبي وقال :

ــ جدي رهن بيتنا عند البك بمئة ليرة ورقا . بارك الله له به ! ولكني جئت ...

فلم يدعه يكمل وهدده بالمعول ، فدار حول السور يلتمس مدخلا آخر . يقف بين الحين والحين ويرفع برأسه جهده ، لعله يرى البك او احداً من اهله فيناديه ويقول له « انا طام ابن سعيد كسار ! » فيأذن له بالدخول ... وظل يمشي حتى بلغ بابا صغيراً مشبكا بالحديد، فاطل فرأى دجاجا واقفاصا وحبيشيا يتبختر في الساحة وغزالا له قرنان طويلان ، وطيراً له ريش ملون وذنب عظيم بالوان ورسوم اخاذة . ولم يكن يعرف الطاووس ، فدفع انفه بين القضبان ، ونسي البك والبيت المرهون وما اوصته به الجارة ، وفتح عينيه يرافق مشية الطاووس ، ويدخل وجهه في الشبكة من هنا ومن هنا ، والطير العجيب يفرج ذنبه ويعلو به حتى صار اكليلا .

ــ للللللي !

ولم تكد حتى ارتد مذعوراً على كلب يقفز من وراء الباب عليه . ومضى الكلب نباحا ووثباً الى القضبان، ففرت الطيور واطل رب المنزل على الشرفة .

ــ يا بك اجدي رهن البيت عندك بمئة ليرة ورقا . بارك الله لك به ! ولكن ستعطيني لآكل انا وامي .

فادبر الغني ، فظن انه ينزل للقائه ، فعاد يحاول الدنو من الباب ثم يحجم خيفة الكلب الاسود الكبير ، المتربص به ، وقد استلقى الآن وقدم يديه مسدداً نظراً احمر . ولكن البك لم يأت ولم يرسل من قبله احدا ، فهتف طام من جديد وضمن هذا الهتاف كل امله :

— جدي رهن البيت عندك ، يا بك !

فظهر البك وفي يده شيء يفرك به اسنانه مكشرا .

— يا سعادة البك ! انا طام ابن سعيد كسار .

فنزع الفرشاة من فمه وبصق بعنف . فارسلت المجنونة زغردتها فهجم الكلب ، وظلت عينا طام تترددان بينه وبين سيده ، ثم نظر فالفى البك قد دخل ، فثنى عنقه كاسفاً ومشى . ثم سمع صوتاً من خلفه فالتفت ، فاذا رغيفان تمد بهما يد من الباب ، فركض وركضت وردة تسابقه ، فلم يستطع ان يأخذ الا بطرف رغيف ، واستأثرت بالباقي وهرولت تلتهمه .

جاء طام في اليوم الثاني فاعطته الخادمة رغيفين ايضاً ، فدفع الى امه واحداً واكل نصف نصيبه ، وغافلها فاخفى النصف الاخر للمساء . ثم ذهب مطمئناً الى انهما نائلان من البك كل يوم رغيفين يسدان بهما الرمق مع ما يجمعانه في الحقول من اعشاب .

على انه في اليوم الثالث دلف اليه ابرهيم بك بنفسه ، وكان يتنزه في الحديقة ، وقال له عابسا :

— جدك اخذ ثمن بيته ، والمجنونة تزعج الست في نومها الضحى .

ولوح له بعصا في يده وادار ظهره .

كانت الخيبة موجعة . فهام الصبي على وجهه اياما يقف بابواب الناس فيطردونه . ولقد قصد الى جارته التي احسنت اليه فقالت انها لا تجرؤ على اعطائه شيئا خوفا من زوجها ، وان لها اولاداً عليها اعالتهم .. وجاءها مرة اخرى فاغلقت الباب في وجهه ... فلم يبق الا الرجوع الى ابراهيم بك فاخر .

وكان للبك امرأة عاقر قد ناهزت الاربعين . وكانت قد نزلت في ذلك الصباح الى الحديقة فاستوت على مقعد ، تحتها طنفسة ، وخلفها طنفسة ، والى كوعها طنفسة ، والنارجيلة امامها تسحب بيزها المذهب الشحطة بعد الشحطة وتمج الدخان من جانب ... فلم يشك طام انها ستحسن اليه . فدنا من البوابة الكبيرة ينظر هل البستاني او الكلب يترصده ، فلم ير هذا ولا ذاك فهم بالدخول . فاذا فقيران يزاحمانه ويحاولان ابعاده . فالقت الست النربيش وقامت اليهم مغضبة تنادي زوجها والخادمة والبستاني ليعاونونها على طردهم . فاقبلت الخادمة ثم اقبل البستاني فاقفلا البوابة ، فلم يكن من وردة الا ان رفعت ازارها وزغردت . فوقفت الست مبهوتة وقد وجد المشهد من نفسها هوى . ثم طلبت من المجنونة ان تعيد الكرة شرط ان يبتعد الصبي عنها فلا يحجبها . ودعت البك فلم يسمع ، فاوفدت اليه الخادمة فاتى . ولكن طام أبى الا ان يسد ما بين العيون وعري امه . فقالت الست وهي تمد باصبعها اليه :

ـ اعطيك رغيفا !

وامرت الخادمة فاحضرت بضعة ارغفة يابسة . فلما اخذت عينا المجنونة الخبز تلوح به اليد من وراء البوابة تناولت اطراف ثوبها وطفقت تثب هاربة من ابنها وهو يتكمش بها ويشد بالثوب ، والست والبك يتضاحكان ، فيضحك معهما البستاني وتزم الخادمة بشفتيها . حتى اذا استوفت الست حظها من المزاح القت الارغفة من فوق السور على مد يدها ، فتراكض اليها الفقراء الاربعة يتضاربون .

١٢

رأى طام ، وهو عائد الى البيت ، الجاويش كامل افندي جالساً في دكان مع احد الجنود ، فاقترب هاتفاً :

ـ كامل افندي !

فازور عنه .

ـ انا طام ابن وردة ! وهذه امي ، أما عرفتها ؟

فتفرس بها مدهوشاً . وهم طام بالدخول ، فمنعه الحانوتي من اجتياز العتبة ، فقام الجاويش ورفيقه الى الطريق يماشيان الصغير فيقص عليهما ما جرى له ولامه ، وهي تقف بين الحين والحين لنوبة جنونها المضحكة المبكية ، وتجمع عليها الناس . فلما بلغوا بيت

كما انحنى كامل افندي على طام فوضع في كفه شيئاً ثم همس في اذنه . وتبادل ورفيقه نظرة واستأنفا السير الى الثكنة .

وانقلب طام الى دكان قريب فاشترى بالمتليكين رغيف ذرة وشده تحت ابطه ، وعدا ووردة تعدو وراءه ، حتى اذا وصل الى زاوية البيت نط الحافة الى المراح ، فطلعت من تحته يدان ونشلتا الرغيف .

— ابو زيد ! ابو زيد !

ولحق به قافزاً فوق الحافات ... فلما ايقن انه فاته ارسل صوته الدقيق الباكي ليصنعن به ويفعلن ، ورماه بحجر .

قضى بقية نهاره يرافق الشمس ، ينتظرها بصبر فارغ ان تغيب فيرفع عينيه اليها حانقاً حيناً ، وضارعا حيناً ، وهي ترد طرفه في الحالين كليلا . فيدخل الى المراح يحاول طي الوقت بالنوم فيقلبه الجوع على مثل الجمر ، ويقتله الانتظار صرفا بالاسنان وبلعاً بالريق ... ووردة تدور حول البيت تحفر باظافرها عن عشبة عافتها الحيوانات ولم يهتد اليها بنو آدم . وخيل اليه ان هذا النهار لا آخر له فساؤه لن يأتي ابداً ، فقام فغافل المجنونة وانسل لاصقاً بالجدار ثم ركض صوب بحرصاف .

كان الاتراك قد احتلوا دير مار يوسف وانزلوا اجراسه وطردوا رهبانه وجعلوا منه ثكنتهم . فجعل يدور حولها مفتشاً عن كامل افندي بين الجنود الرائحين الغادين . ثم دنا فرأى صفاً من الحلل الكبيرة قد اتقدت النيران تحتها وصعدت اللهبة منها متاوجة على الحيط

تدخـل في شقوقه السـودة ، وتذهب ذؤاباتها في الفضـاء وتضيع . وملأت رائحة القيروانة خياشيمه ، يتنشقها ويتلمظ ، ويرسل عينيه الى الخلل بانفتـاحة مفترسة . وكان الطاهي ينقل مرغفته الجبـارة من حـلة الى حلة حتى حانت منه التفـاتة فهجم على الصبي يطرده ، فاطلق ساقيه منحدراً الى قبو الدير الذي صار اصطبلا للخيل ووقف ينظر لعل كامل افندي فيه. فلم ير الا جنوداً يمسحون الخيل والبغال المزيلة ، والحيوانات ترفع برؤوسها وتميل ذات اليمين وذات اليسار، فتلمع عيونها في العتمة لمعانا .

وانه لفي وقفته تلك اذ حك به شخص وقال :

ــ اما قلت لك لا تأت الى هنا ؟ اذهب وانتظرني في المراح. وتابع كامل افندي طريقه حريصاً .

*

وفي ساعة متأخرة من الليـل دخل الجـاويش الى المراح وعلى خاصرته كيس كبير . ثم ادلج في الظـلام عائداً ، بعد ان وعد صديقه الصغير بمثل هذا كلما استطاع اليه سبيلا .

وثابر مدة من الزمن يحمل الى المراح كل اسبوع كيساً من الشعير يختلسه من علف الخيل ، ويطرحه احيـاناً في خندق اتفقـا عليـه ، فيزحف طام اليه في عماية الصبح ويوصله الى البيت فيخبئه في حفرة حفرها له في الزاوية . ويأكل منه مع امه قضما ، ويجرشـان منه بين حجرين املسين ، ويعجنان في جرن كان في المـاضي لصبغ

الديما ، ويشويان خبزاً خشناً فتيتاً ، يجدان في التهامه سعادة امساك الرمق التي ليست بعدها سعادة .

ووقع في روع طام ان الحياة ستتابع سيرها على هذا الشكل الى ما لا نهاية له . لم يكن يتحسر ولم يكن يترجى ، قد ملأ فراغ بطنه رأسه فلم يدع فيه محلا لذكرى او منفذاً لامل . وربما خطر له جده وخطرت له اخته ، فيمثلان شبحين مبهمين ثم يتواريان في الضباب .

١٣

جاء الجاويش ذات مساء بكيسين معاً ، في الاول شعير على جاري العادة ، وفي الثاني اشياء نائتة اخذ الصبي يجسها متعجباً مسروراً . ودس له كامل افندي في يده شيئاً فنظر طام على ضوء قدة صنوبر كان يشعلها سراجا :

ــ بشلك !

ــ خذ ... وثلاثة متاليك . لست في حاجة اليها .

ــ لماذا هذا كله ؟ يكفيني كيس الشعير . والكيس الآخر ما فيه ؟

ففتحه له ، فاذا اصناف من القددات والجففات ! فنظر اليها ثم اليه فقال الجاويش :

— هذا كله لك . خبيء المال عن امك . مسكينة ! (وكانت تغط في نومها) اندري كم احبك يا طام ؟

فرفع اليه عينين فيهما افصح جواب . فاطرق ساكتاً .

— ما لك يا كامل افندي ؟ هل عمل لك الضابط الجديد قلقاً ؟

— الضابط الجديد لا يعمل قلقاً لاحد .

— ...

— ولا يسلب الناس بقراتهم لئلا يحل به ما حل براسم بك . ألم تأت اختك قط ؟

— لا .

— في ضواحي عاليه يا طام عصابة خطفت حتى اليوم ضابطين وسبعة جنود ... طام ، طام ! ستأكل بعد ان اذهب ، أتسمعني ؟

فبلع الصبي بقدة من لحم .

— هذا لحم طيب . لحم اي حيوان ؟ ... العصابة البيضاء !

— من قال لك اسمها ؟

— كل الناس يعرفون .

— انا اعرف شيئاً لا يعرفونه هم ولا تعرفه انت !

— ماذا ؟ عند العصابة بيضة فيها خاتم سليمان ! انا اعرف ذلك .

— لا ! لا يا طام . اظن ان زينة ... (وجرض بريقه)

— اختي تحب طانيوس اكثر مني ! أخذته وراحت .

— طانيوس كسار مع زينة ؟ لقد جرد الاتراك حملة تتألف من

مئة عسكري تفرقوا في الجبال والاودية وراء العصابة البيضاء وجعلوا مكافأة مئة ليرة ذهباً لمن يأتيهم برئيسها حياً وخمسين ميتاً . واذا كان جنديا صار جاويشاً او جاويشاً صار ضابطا .

— لماذ لا تذهب معهم ، يا كامل افندي ، فتقتله وتصير ضابطا ؟

— انا لا اقتله يا طام لانه يقتل الاتراك . ارأيت انك كنت مشغولا بالاكل فلم تسمع ما قلته لك ؟

— هه هه ! انتهيت .

— طام ، اتعلم لماذا جئتك بكل هذا ؟ كيس وبشلك ...

— لانك تحبني .

— هذا صحيح ، ولكن ...

وامسك ، فقال طام :

— لكن ماذا ؟

— في الصحراء البعيدة ، البعيدة ، حيث ولد النبي الكريم ، في السهل الكبير على مد النظر ، وحيث الشمس تكوي كياً ، والرمال التي لا آخر لها ... هنالك قد نشبت ثورة على الاتراك .

— ومن غلب ؟

— النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ... العرب سيغلبون يا طام .

— ويذهب الجوع ، اليس كذلك ؟ ونعود نأكل خبزاً ابيض .

— قل انشاء الله يا طام !

— الله لا يحب الاتراك الظالمين .

ــ لذلك قلت لك العرب سيغلبــون ... ولكن انا لن اكون مع العرب ، يا طام .

ــ مع من اذن ؟

ــ انا جاويش في جيش الدولة ساضطر ان احارب مع الاتراك .

ــ وتقتل العرب !

ــ غصباً عني .

ــ انا اقول لك ما تفعل . ضع في المارتينة باروداً وانزع الرصاص . البارود لا يقتل .

ــ انت ستكون جنديا في الجيش العربي .

ــ ساكون ضابطاً واقتل الاتراك !

ــ انا زعلان جداً يا طام ، لانني مضطر ان اتركك واذهب .

ــ الى اين ؟

ــ الصحراء البعيدة التي ذكرتها لك اسمها الحجاز . سيرسلونني غداً اليها مع كثيرين من الجنود .

ــ ومتى تعود ؟

ــ من يعلم ؟ ربما لن اعود ابداً .

ــ ابداً ؟ ... ابداً ؟ !

ــ اتكل على الله . ان الحرب ستنتهي قريبــاً .. بيتنا في الشام فيه خبز ابيض ، وارز ، ولحم ، وعنب وكل شيء ! اذا قــدرت ان تذهب الى الشام فاذهب الى حي « الميدان » وسل اين بيت الشيــخ

محمد ابو كامل الوراق . قل لي أحفظت الاسم ؟ بيت الشيخ محمد ابو كامل الوراق ، اياك ان تنسى !

ــ وتكون انت هناك يا كامل افندي ؟

ــ ربما . واذا لم اكن فقل لهم : انا طام من بحرصاف ، وكان كامل افندي صديقي . ولكن الشام على مسيرة اسبوع . تذهب مع مكاري يركبك على بغل او في طنبر ... واذا لقيت زينة فقل لها كامل افندي يسلم عليك ، ولتذهب الى الشام . تذهبان معاً ... وجدك ايضاً ... لا تبك يا طام . ساعطيك في الشام مهرة حمراء لها غرة ، وكوفية من حرير وعقالا مقصباً . لا تبك ! ان الله مع الصابرين .

*

انتبه طام من غد على قرع الطبول تتجاوب اصداؤها وترج سكينة الصباح ، وكأنها ترج في قلبه . فخرج الى الطريق مسرعا فاذا فصيل من الجنود آت من صوب بحرصاف ، فتسلق الحافة ، فلم يعجبه الموقع ، فاراد ان يبحث عن سواه ، ولكن الجنود كانوا مسرعين وقرع الطبول يقترب ويقوى ، فجمد حيث هو ، فوصلوا واخذوا يمرون تحته ، فنظر الى الصف الاول ... فالثاني ... فالثالث ... فالاخير ! فكاد صوابه يطير ! فركض حتى سبقهم ، يستعرضهم من جديد جنديا جنديا . فزاغ بصره واختلطت عليه الصفوف . فسبقهم مرة ثانية حتى واجههم فاذا كامل افندي في

الصف الثاني الى جهته ، لا يحجبه عنه احد ، فخفق قلبه ومشى الى محاذاته معلقاً عينيه بوجهه حتى التقت عيون الاثنين ، ولكنه لقاء قصير كالومض واسرع ... والصبي يمشي ، يقلد الجنود في مشيتهم ، ثم ينتبه الى نفسه فيمسك ، ثم يغلبه التوقيع فتعود قدماه الحافيتان تخفقان خفقاً متوازناً . وربما عثر بمدرة او شوكة فما ألوى ولا بالى ... حتى نظر فاذا كامل افندي يشيل بحاجبه ويرد برأسه الى الوراء رداً خفيفاً . فادرك ما يريده ، فوقف مكانه ، فابتسم الجاويش ابتسامة رضى وظل مائلا برأسه نحوه اكثر فاكثر حتى ادبر ...

وطام يشيعه ...

ظهره ، والحقيبة المربوطة عليه ، والقربة على جنبه تنط لكل خطوة ...

وتوارت القربة والحقيبة فما تظهر الا فوهة البندقية ...

ولا تلبث هي الاخرى ان تضيع بين العشرات من اخواتها ..

حينئذ احس طام ان قلبه يسقط عن موضعه ، فاندفع يركض وينادي باعلى صوته :

ــ كامل افندي ! كامل افندي !

ولكن الفصيل كان قد ابتعد .

١٤

رجع طام الى البيت حزينا .

ولم يكد يطل على باب المراح حتى رأى وردة قد اخرجت كيس المقددات والمجففات فبعثرتها في حضنها وحواليها تلتهم وتزدرد وتنادي ابو زيد . فاستدار على العتبة فاذا ابو زيد يقفز غير بعيد شاكلا قبازه على شيء ، ثم يرفع يده الى فمه . ففهم طام الحكاية فهرع الى الحفرة فوجد كيس الشعير مكانه فشكر الله وارتد الى امه ينتزع من حضنها ما ينتزع ويلم عن الارض ما يلم ، ويأخذ كل ذلك فيضعه فوق كيس الشعير ويقعد عليه حتى المساء .

وفي جوف الليل ، بعد ان غرقت المجنونة في نومها حمل الكيس وتلك البقايا فحفر لها مخبأ في حافة امام المراح وسوى الحجارة كما كانت . وجعل له ولامه حصة كل يوم ، وهو يرجو ان تنتهي الحرب ويغلب العرب الاتراك قبل ان يفرغ الكيس .

وفيما هو يدخل يده في المخبأ مرة سمع صوتا من خلفه يناديه باسمه فتحول ينظر من بغته ، فقال الصوت :

ــ انا طانيوس .

ولكنه لم يطمئن فتراجع يسأل :

ـــ اي طانيوس ؟

ـــ اخفض صوتك ، طانيوس كسار .

ـــ عمي ! عمي !

ـــ ظننتك مت وتحت عظامك ! وها انا اراك مثل الشيطان ! ماذا تعمل هنا ؟

ـــ ابن اختي ؟

ـــ لا اقدر ان ادلك .

ـــ كل الناس يقولون انها خطفتك وتزوجت بك .

ـــ الناس يقولون هكذا ؟ !

ـــ اي .

ـــ يا ليت !

ـــ وجدي ، اين جدي ؟

ـــ كنت احب ان يشاهد وردة ويسمع زغردتها ولو مرة واحدة !

ـــ انت ايضا تعرف ...

ـــ ارسلتني اختك منذ مدة الى هنا فلم اجدك ، وطلعت المجنونة بوجهي .

ـــ لم تقل لي اين جدي !

ـــ جدك ؟ الم اقل لك انه مات ؟

ـــ ما . . . ت !

ــ تركنا وجاء ليرى الصبحا... وضيعناه، واتفقنا انا واختك على انه مات... أتريد ان تبكي ام ان تأكل؟ خذ، هذا كيس ملآن بالخبز. اين اضعه لك؟ لا ادخل الى المراح لانني لا احب المجانين.

ــ خذني عندها يا عمي.

ــ الى اين؟

ــ عند اختي.

ــ ألم تقل لك انك ما تزال صغيرا؟ تصرع راسي صباح مساء: «لو كان طام كبيراً! لو كان طام كبيراً!»

ــ لقد كبرت يا عمي، لقد كبرت!

ــ ولكنك لا تزال اصغر من المارتينة... هل ارسل اليك ابراهيم بك فاخر مئة ليرة؟

ــ مئة ليرة! اخذها منه جدي.

ــ غيرها، غيرها.

ــ غيرها؟ لماذا؟

ــ لم يرسل اليك شيئا!

ــ لا.

ــ ولم يقل لك شيئا؟

ــ اعطتني خادمته رغيفين.

ــ وبعد ذلك؟

ــ لا شيء.

-- اسمع يا طام ، هذا الكيس من الخبز يكفيك من الان الى ان يرسل اليك البك مئة ليرة ، لانه سيرسلها ما من ذلك بد . ولكن اياك ان تقول له او لاحد في الدنيا انك كنت عارفا بانه سيرسلها اليك !

-- انت قلت له ؟

-- هذا لا يعنيك . سيرسلها مع احد رجاله او يدعوك الى بيته ويسلمها اليك يداً بيد .

-- تكذب علي ، لكيلا تأخذني معك عند اختي . اريد ان اروح معك . وحياتك ! خذني معك يا عمي .

-- هس ! انا ليس لي جلد على الاولاد الصغار . ستأتي اختك وتأخذك هي بنفسها .

-- متى ؟

-- ستأتي ، لا اعلم متى ولا هي تعلم . المسألة تتعلق بابراهيم بك فاخر وعلى دفعه المبلغ او على منعه . على كل حال لا خوف عليك ان تموت من الجوع . انت مثل عمك : يلوكه الموت ويلوكه ثم يبصقه !

-- وكيف يدفع ابراهيم بك ؟

-- انا اتمنى ان لا يدفع .

-- . . .

-- اي ، اتمنى ان لا يدفع . لكي يفهم ان العصابة البيضاء تقول

وتفعل !

— العصابة البيضاء ! اصحيح يا عمي ان رئيس العصابة من الجان

— من قال لك ذلك ؟

— سمعت . جني ، يقولون ، لا هو رجل ولا هو امرأة !

— ها ها ها !

— الا تصدقني ؟

— عمك وحده الذي يصدقك بين الناس اجمعين ! وماذا يقولون ايضا ؟

— خذني معك ، خذني معك !

— عدنا ؟ ! خبيء هذا الكيس وكل منه حتى تأتي اختك . قلت لك ستجيء هي وتأخذك ... انا مضطر ان اعود . لا تقل لمخلوق انني جئت الى هنا ولا رأيتك ولا كلمتك عن ابراهيم بك فاخر ولا عن العصابة البيضاء . واوصيك : اياك ان تموت !

وراح في الظلام .

١٥

انتظر طام اسبوعا فلم تأت زينة ، ولا المئة الليرة ! وتحول شكه الى يقين بان عمه انما هزأ به .

وفرغ كيس الخبز ففكر في حاله فلم يجد الا ان يقصد الى البك مرة اخرى . فشى من فوره واقتفت وردة خطاه .

وكان يتمنى ان يجد البك وحده لما ثبت في قلبه من المقت للست منذ الحادث الاخير . وانه لفي بعض الطريق اذ جاءت المجنونة نوبتها فلم يتمكن من الوقوف دونها لبعدها عنه ، فاجتمع الناس ينظرون ويضحكون ، فلم يقل شيئا واستأنف سيره ، يتخيل الست تقهقه وفي يدها الخبز الابيض الشهي ، ويكاد يسمعها تقول له « اعطيك رغيفا شرط ان تتركها ! » من يدري ؟ ربما كان وحده لا يزاحمه احد من الفقراء ، فيستأثر بالارغفة الثلاثة . ولتشاهد الست ما تحب وليتظاهر بانه حاول منعها فلم يستطع . او فليكن بينه وبين امه مسافة كالتي كانت بينه الان وبينها . . ثم ماذا بعد هذا كله ؟ اليست مجنونة ؟ والمجنونة لا يد لها فيما يفعل ولا عيب تؤخذ به .

ومضى يحاور نفسه كذلك . وفجأة فطن الى حقيقة ما يفكر فيه فصدمته فظاعته صدمة احس لها مثل الصداع ، والتفت عفواً وراءه فلم يجد لامه اثراً .

لم ينطلق في طلبها ، ولا تساءل اين قصدت بل هرول مسرورا بانه تخلص منها .

كان لابراهيم بك فاخر « تك » ، عربة بحصان واحد يطيب له ان يسوقها بنفسه لنزهات مسائية في الضاحية . وصل طام فرأى السائس يجهز التك ، فانتظر على البوابة قليلا ، فاقبل البك حديث

الوجه بالحلاقة ، على رأسه طربوش قان تنحدر ذؤابته الى الامام وتتفرش ، وتختلج جفونه بحركة عصبية دائمة كأنه يقول لرائيه: انا لي عينان ! لانهما كانتا صغيرتين جداً .

ـــ أعطني متليكا يا بك .

فصمد الى العربة .

ـــ يا بك ! يا بك ! الله يخل لك اولادك ! انا طام بن سعيد كسار ، جدي رهن البيت عندك ، يا بك ! الله يخل لك اولادك ، يا بك !

ولكن الغني تناول الكرباج وصفقه به ، ثم رده الى الجواد فدرج التك خبباً . واستمر البك يضرب بالكرباج على مؤخرة العربة يميناً حيناً ، وشمالا حيناً آخر ، الى مسافة بعيدة .

حينئذ ادار طام وجهه فاذا السائس يضحك بين كفيه ويردد :

ـــ الله يخل لك اولادك ! الله يخل لك اولادك !...

فانتصب الصبي يتحدى مقلده . فنظر السائس الى الجهة التي ذهب فيها سيده وهز رأسه وقال :

ـــ سبحانك يا الله ! لو اعطيته بالغلط واحداً من الدزينة التي عندي! (ومشى .)

فذهب طام مع سور الحديقة حتى وصل الى الباب الصغير المطل على الطيور والحيوانات ، وقد قنع بان يلقى الست . فاذا المقعد خال ليس الا الكلب مربوطاً هذه المرة الى كوخه الاحمر يغفو اغفاءة

سعيدة ، والدجاجات تنقل أرجلها نقلات بطيئة . شبعانة ، الحب منثور لها كوما ولا تمد اليه منقاراً ، بل تغمض عيونها وتجوز . ولكن دجاجة هناك تعالج شيئاً في التراب وتتخبط وتمرغ رأسها وترفعه وتخفضه وتعود الى التخبط ، ثم تقبل يتدلى من فمها خيط طويل ، فتدور في الساحة ثم تقف منصرفة الى شأنها الاول ... ثم تستأنف الدوران ، لتقف مرة اخرى تعالج الخيط لعله يخرج ، فما يزداد الا ولوجا ، وطرفه المجرور على الارض يقصر شيئاً فشيئاً ، وطام ينحني على الباب يرافق تطورات الحادث ، فاذا الباب يصير منفتحاً تحت دفع جسمه ، فمد يده عفواً وردّه وترفق في الاستلقاء عليه . ثم لمعت في ذهنه خاطرة كالبرق فنظر فلم يجد احداً ، فاخذ يفتح الباب متمهلا ويخرس صريره ، حتى كانت الفرجة على قده فاندس الى الجنينة ونظر ايضاً من هنا ومن هنا ، وحاول ان يرفع عينيه الى الشرفة فاحس رقبته كأنها مشدودة بثقالة ، فاستعاض ارهافا لاذنيه ، فلم يسمع نأمة . فجرى وراء الدجاجة المعذبة ، فنفرت منه ونفرت اخواتها قافزات مرفرفات ... هبّ من كل شيء ولا يفيق الكلب ! وجد طام هنيهة ليعيد حواليه الطمأنينة التي لا غنى له عنها ، حتى اذا ظن انه نال من ذلك غاية تأهب لاستئناف سعيه وراء الدجاجة فلم يكن الا ان اقبلت والخيط في منقارها ، فارتمى القرفصاء في وجهها ففاتته ، فضرب بكفه وراءها فاثبت طرف الخيط الى الارض ، فجرها به اليه ، فالتقطها وانسل بها ...

١٦

منذ تلك الغزوة اعتاد طام ان يغشى حديقة الغني . وقد ساعفه الحظ فوفق مرة ثانية الى الدخول من الباب ، وفي الثالثة وجده موصداً . فتسلق السور وادلى بخيط احتاط به فعقد طرفه على دودة وجعل يرجحه ويدفعه ، فمدت الطيور رقابها وحامت المناقير على الدودة تتزاحم ، وتتضارب ، ويلتف بعضها ببعض ، حتى تمكنت دجاجة منها فاخذتها وهرولت ناجية بها . فانحنى يذهب معها ما استطاع ليترك لها ان تبلع السنارة . فاقبلت دجاجة اخرى من بعيد ووثبت عليها فخافت هذه والقت ما في منقارها ، فنقدته تلك نقدة واحدة ، فجذب طام ... رويداً ... رويداً ، والدجاجة تدنو حتى انتصبت مشنوقة . فخفق قلبه وجعل يسحبها كالدلو من بئر ، فاذا يدان جبارتان تشدانه من رجله ، فيسقط على الطريق وقد سلخت حجارة السور المسنونة كفيه وثلمت انفه .

وساقه البستاني من اذنه الى البوابة حيث اقيمه البك بعصاه وضربه ضربا مبرحا ، وهو يقع على الارض فيرفعه الآخر من اذنه حتى كاد يصلمها ، فيعود الغني الى ضربه وشتمه ويعيره بالحرامي . ولم يتركه الا بعد ان تعبت يداه وخيل اليه ان اعصابه هدأت .

حينئذ انقلب يتنفس الصعداء ويمشي في الحديقة ذهابا وايابا . ثم وثب الى الدرج فارتقاه ودخل الى غرفته فتناول رسالة كان القاها على مكتبه واخذ ينظر فيها حيناً ، ويهم بتمزيقها حيناً آخر .

وكان في الغرفة مرآة كبيرة فوقف قبالتها فهاله اصفرار وجهه ، فذهب الى الباب ففتحه ونادى :

— فيروز !

فاقبلت امرأته فدفع اليها الورقة وقال :

— اقرأي .

فاخذت تقرأ :

« الى ابراهيم فخر .

وجهنا اليك مكتوبا قبل هذا نبلغك فيه ارادتنا . ولما كانت المهلة التي حددناها لك ، وهي اسبوع ، قد انقضت ولم تنفذ اوامرنا رأينا من باب الرحمة ان نكتب لك ثانية ونستمهلك ثلاثة ايام ايضاً . فاذا لم تبادر خلالها الى اعطاء اصحاب البيوت المرهونة عندك والمذكورين ادناه المبالغ المعينة تجاه اسمائهم نعدمك الحياة :

اولا :	بطرس الضاهر	٢٠٠ ليرة
ثانياً :	حنا ناصر	١٠٠ «
ثالثاً :	ابو سعيد كسار	١٠٠ «
رابعاً :	بولس ماضي	٧٥ «
خامساً :	ارملة عيسى فدعان	٧٥ «

تعطي هـذه المبالغ كاملة الى هؤلاء والى غيرهم كثيرين ممن استرهنت بيوتهم او اشتريتها بعشر اثمانها ، وانت تعرفهم اكثرمنا ، وفي حالة موت احدهم الى ورثائه .

ونعيد ما قلناه في مكتوبنا الاول اننا لسنا قطاع طرق ، والا كنا طلبنا شيئاً لانفسنا ، بل نحن قضاة عـدل نحب ان يصل لبعض المظلومين ولو بعض حقوقهم التي اغتصبتها باطماعك .

تنبيه : ليس لاحـد الراهنين علم بهذا فاذا حاولت الانتقـام من احدهم سقطت المهلة وهدرنا دمك حالا .

العصابة البيضاء

ــ العصابة البيضاء ايضاً ! العصابة البيضاء !

كان هذا الاسم على كل شفة ، بمجرد التلفظ به يبعث الذعر في السامعين . وكانت تروى عن العصابة البيضاء روايات غريبة عجيبة . يقول بعضهم ان على رأسها شخصاً يرتدي ثوبا ابيض ، وهو لا يظهر الا في الليل ، يجلس على قمة جبل فيراه القـاصي والداني ، ويصوب اليـه الجنود بنادقهم فلا يتحـرك ، لان الرصاص لا يفعل فيه لدرع يلبسه تحت ثوبه ... ويقول آخرون بل يحمل ذخيرة عود الصليب ، وهي تحميه من كل شر وتذيب الرصاص قبل ان يصل الى جـلده ، فطلقه عليه كضاربه بوردة سواء بسواء ... وتذهب جمـاعة الى القول انه ساحر يستخدم الارواح الخبيثة ، ويستدلون على ذلك بان الدرك دهموه يوما ثم نظروا فاذا هـو قـد استحـال الى عمود دخان

تلاشى بين الارض والسماء ... والانكى انه بينما يكون اليوم في صنين مثلا يؤكد آخرون انهم رأوه في الوقت نفسه في ضهر الوحش فوق عاليه ، فهو لا يستقر في مكان ، ولا يعرف احد له بيتاً ولا يفهم اسرار تنقلاته بين الجبال والاودية وفي طول البلاد وعرضها .

كانت فيروز تردد على زوجها هذه الاساطير وهو يصغي اليها مذهولا ثم صاح :

— امجنونة انت لتعتقدي بهذه الخرافات ؟ الضابط مدعو الى العشاء عندنا الليلة ، سأعطيه هذه الورقة وهو يتدبر مرسليها مع خليل المعلا .

— اعطيته المكتوب الاول ، فماذا عمل لك هو وخليل المعلا ؟

— وماذا عملت العصابة ؟ لقد انقضت المدة التي حددوها ... ها ها (وحمل نفسه على الضحك) انقضت المهلة منذ اسبوع واكثر ، فلماذا لم يقتلوني ؟ وستنتهي المدة الجديدة وانا بألف خير .

— لو اعطيت كلا من هؤلاء المساكين ...

فقاطعها غاضباً :

— ماذا ! اعطيهم ايضاً ؟!

— انا لا اقول لك اعطهم بالمئات . ولكن ارسل الى كل واحد ثلاث ليرات او ليرتين . أنظن انهم سيذهبون الى العصابة ...

— تعودين الى العصابة ؟ اقطعي هذا الحديث . فليرهنوا بيوتهم واملاكهم عند سواي ... هذه نتيجة المعروف مع الفقراء .

ـــ اما قلت لي انت ان بيت ابو سعيد كسار واملاكه تساوي ستمائة ليرة عثمانية على الاقل فاسترهناها بمئة ورقا ؟

ـــ تساوي ! ماذا تساوي ؟ قلت لك انت لا تفهمين بهذه الامور . انا ذاهب .

ـــ الى اين ؟

ـــ يجب ان اوصل هذه الورقة السخيفة الى الضابط الان ، في هذه الدقيقة !

ـــ اخاف عليك . يجب ان لا تخرج من البيت .

وامسكت بتلابيبه ، ولكنه اصر على رأيه ، فافلت منها وانطلق ينادي السائس ان يحضر له العربة .

١٧

كان طام قد ابتعد عن منزل الغني ووصل الى السوق .

وقف امام واجهة يلمع فيها صف من الخبز . ثم خطا يدفع انفه حتى لامس زجاجها . كانت الارغفة كثيرة يستلقي بعضها على بعض من طرف الواجهة الى الطرف الاخر في عرض جميل ... بيضاء لها اطر موشاة ، وخدود محمرة عليها شامات سوداء ... رغيف رافع الى جانب رغيف ضامر الى جانب

آخر قد اعوجت يد الخباز به وفاتته النار فهو عجين جامد لا لون له ولا شكل. تجيء عينا الصغير وتروحان على الارغفة ثم تستقران على هذا المسخ من بينها جميعاً ، فيثني عنقه اليه ويسيل لعابه عليه ، ويتشممه من وراء الحاجز ، واصابعه تتفرك على جنبيه من هنا ومن هنا ، ثم تلتقي على فمه فيعض عليها ... حتى تنبه له الحانوتي فقام وطرده .

كان يمشي بقدميه المشققتين ، وقمبازه الوسخ المقدود ، وشعره الطويل المبعثر ، من الحافة الى القناة ، ومن القناة الى الحافة ، يلتقط عن الارض ويزاحم القطط والكلاب على الاقذار ، والطريق مزروعة عن الجانبين بعشرات الجياع امثاله ، شيوخا ونساء واطفالا ، بعضهم يستطيع المشي ، والاكثرون انطرحوا لا يملكون الا الانين .

وانه لهائم على وجهه اذ اقبلت عربة ، فالتفت فاذا هي عربة البك يسوقها بنفسه والست الى جانبه تتقي الشمس بمظلة ملونة . فاقتحم الجياع العربة من كل صوب يمدون الايدي . لكنها كانت تنهب الارض نهباً واوشكت ان ترهس امرأة منهم لولا ان صفقها الغني بسوطه فارتدت تصرخ من الالم . وفجأة توقف الحصان لحاجته ، فحاول البك ان يحول دونه ودونها ، فذهبت ضرباته سدى . وهرع الفقراء مرة ثانية فتولى الكرباج ابعادهم . ثم كرت العربة فانقضوا على اطباق النفاية اللاهبة يتضاربون ويتصايحون . وخف طام فدفع كتفه بين الاكتاف واخذ ما وسعت كفه ونجا الى ناحية ،

يلقط حبة الشعير وينفضها على صدره ثم يقذفها الى فه طيبة شهية •
وكانت التفاتة من بعضهم اليه فهجموا عليه ، فدفع بما في كفه الى
شدقيه فالتهمه بما فيه قبل ان يصلوا •

قضى بقية نهاره متنقلا منقباً في الارض كالحيوان • وكانت امه
قد كفت عن اللحاق به منذ حبست الايدي الرزق عنه فعنها •
ففتش عليها يوماً فوجدها في الوادي تأكل من جيفة بغل منتنة. وبغتها
يوماً آخر تذبح قطة وتلتهم لحمها المطاط نيئاً • ثم دب الورم في رجليها
فعظمتا وقعدتا بها لا تقوى على الخروج ولا على القيام من مطرحها
على باب المراح • وكأن الجوع افترس جنونها فيما افترس ، فانقطعت
عن الزغردة واعتصمت بصمت هائل ، لا يتكلم فيها الا عينان
تنفتحان كبيرتين على الاشياء حيناً وفي عرض الفضاء احياناً ، تناديان
شبح الرغيف •

وفي المساء حاول ان يصل الى البيت فلم تحمله رجلاه ، فجر
نفسه الى كنف قنطرة بجانب الطريق فانطوى في الزاوية ونام •

*

كانت الليلة قاسية ، تقطع فيها نومه بنوبات الجوع تقطعاً لم يعرفه
في لياليه السابقات • ما يكاد يغفو ، او يخيل اليه ، حتى يفيق متقلباً
على البلاط البارد ، يبلع بريقه بلعاً متواصلا ، وكأن هذا الريق
عصارة من قلبه الذائب • وكأن بطنه الخاوي طبل فهو يصوت بين
الفترة والفترة ، ويسمع قرقرته فتؤذيه ، فيشد عليه بيده ويطبق

أجفانه ، فتطلع في ذهنه ذكريات من ماضيه مبهمة ، وتتوالى اشباح في موكب عجيب من ارغفة تمزقها اشداق وحوش ، الى افاع رؤوسها برتقالات موردة ، الى صحون عدس تكر على الطريق مسرعة كالدواليب افلتت من عربة ، الى زبيب وجوز وعنب تتدلى بحبال من السماء تملأ الجو ، فيمد اليها كفيه فتتلاشى ويقبض الهواء .

وطال به عذابه حتى تمنى بينه وبين نفسه لو رقد ولا يطلع عليه صباح ابداً . ودغدغته هذه الامنية القصوى دغدغة حلوة ، فاستسلم لها . ولكن موكب الاشباح عاوده بافاعيه ووحوشه وطيباته المستحيلة ، فاجهش بالبكاء ، ينادي جده واخته وامه .

ثم ضعف جهشه رويداً رويداً . ثم جمدت دموعه .

وهدأت اخيراً في زاويتها كومة العظام والخرق ...

انتبه باكراً على شيء يسحبه من قبازه وعلى صوت يقول :

— اقلبه !

وقلبه رجلان على خشبة ، فانتفض مذعوراً .

— قلت لك ان فيه حياة بعد .

وانصرف الرجلان الى الزاوية الاخرى من القنطرة ، فوقف طام ينظر ما يفعلان ولو كان قد رأى مثل ذلك مرات من قبل . كانت في تلك الزاوية امرأة مطروحة على ظهرها يسرح عليها القمل ويعلق على صدرها العاري طفل له عينان هائلتان . تقدم الاول فرفسها على خصرها وانتظر ... فعض طام اصبعه وخطا خطوة.

اخرى . كان رأسها ملقى الى جانب ، وشعرها منسدلا على البلاط ، وقد اندلق من صدرها ثدي فيه اخاديد ومشحات ، تعبث به اليدان الصغيرتان، وينقض عليه الفم الصغير ويجذبه عصراً ثم يفلته ويبكي.

ورفس المرأة ثانية . ونظر الى رفيقه وقال :

— لقد شبعت موتا .

ثم انحنى على الطفـل فازاحه ، فانقلب عن صدر امه متململا في خرقة تلف وسطه وتقصر عن ستر عورته العظيمة ،واخذ يصرخ .

وقلب الرجلان الجثة على الخشبة وحملاها فكفآها على المحمل المنتظر الى جانب الطريق وتهيآ للسير بها.ولكن احدهما استدار الى صاحبه وقال مشيراً برأسه الى الطفل :

— نأخذه الان .

— معك حق . سيموت !

— نوفر على نفسنا نقلة .

وكان الطفـل قد تفقد امه فحبـا صوبهـا حتى وصل الى افريز القنطرة فسقط على الشارع بين اقدام الرجلـين فتنـاوله الاول من ذراعه المزيلة ولوّح به في الفضاء ثم رماه فوق امه .

كان طـام ما يزال ينظر . ويظهر انه ازعـج الموكلـين بحمـل الموتى ، فضرب احدهما بيده اليه فركن الى الفرار وهو يصيح :

— انا ما مت ! انا ما مت !

وعزم ألا ينام خارج البيت ابداً .

١٨

قبل ان تنادي الشمس اشعتها الاخيرة عن الاكمة الجاثمة جنوبي ساقية المسك رأت شبحاً اسود يطل على صخرة ثم يدور خلفها ويختفي ، حتى اذا غطست في البحر وخيم الليل اطلع رأسه وعاد الى الشفير ، فقعد شابكا يديه على حضنه ، يطوف بصره في القرية الميتة المسجاة تحت قدميه : في هذه البيوت التي كانت مملوءة بالاهل والمحبة والبركة ، فاستحالت سقوفا مخربة وجدرانا مدكوكة ، لا يتردد فيهما نفس حي ، ولا تطأ عتباتهما قدم ، اللهم الا بعض انوار تلوح في بيت ... وبيت الى جانبه... وفي كوخ ابيض في الوادي... ضئيلة شاحبة تغالب الظلام كبقايا الجمر خلال الرماد الكثيف .

وفجأة امتد على طرف القرية ، وعلى التلال القائمة عن جانبيها والمتدرجة تحتها حتى الشاطىء البعيد ، بساط اصفر كبير تقطعه على الاودية ثغرات سود ، وتطلع الاشجار القليلة الباقية هناك وهنالك نقوشاً فيه ، فالدنيا سجادة سحرية لا عهد بها لايران ولا ليد انسان. كان القمر قد اشرق خلف صنين قرصاً من ذهب ، يصعد على رأي العين في الجلد الازرق الصافي ، فمال اليه الشبح يستقبله بوجهه مستسلماً الى اضوائه تتدفق في عينيه وتذوذو حباتهما المتألقة على

كوفيته المقصبة وعباءته الفضفاضة .

ثم انتصب وانحدر الى القرية في درب ضيقة يتلمسها بيديه ويكور حصاها تحت قدميه . حتى اذا شارف بيت كسار وقف .

وقف يتأمل فيما ابقت الايام منه ، في هذا الحيط الذي تهدم جانب منه وتكومت حجارته تحته ، وصعد الجانب القائم درجات من سلم الى الفضاء ... وفي هذه النوافذ وقد انفتحت اشداقا عظيمة يدخل فيها الليل ويسرح اخيلته الخرساء في ارجاء الغرفة التي كانت موئل النار ومجلس حكايات الجد وفرك الاكف والوحوحة ... وفي هذا السقف المبقور تتدلى خشبة طويلة منه وكأنها حربة جبارة سددتها السماء طعنة الى الدكان ... وفي هذه المحدلة التي انقلبت على الارض ، يلمع بياضها على القمر ناصعاً ، قد ضاع جرارها الحديدي وقعدت هنا ساكتة ، لن يرتقي ابو سعيد الى السطح ملفوف العنق بشملته ليدلكه بها ذهابا وايابا تحت وكف المطر ، ولن تهتز اركان البيت تحت الحدل تلك الاهتزازة الحلوة ... وفي هذه الساحة القفراء التي قصت توتاتها فليس منها الا كعوب مهترئة طالعة من الارض وكأنها اقدام بشر دُفنوا رأساً على عقب ... وفي باب المراح وقد شغر واستوحش فلن تطل الصبحا برأسها خارجة منه الى الحقل ، ولن تدبر عائدة اليه ، ولن يتكىء على عتبته سطل الحليب مرسلا لبنته الدافئة في صباح ولا مساء ابداً ...

وخطا الشبح الى باب المراح ونادى :

ـــ طام ! طام !

فلم يرد عليه احد ، فرفع صوته مكرراً فتجاوب الصدى في المراح على صمت شامل ، فهم بالدخول ، فطلع في انفه رائحة ، فدنا من الباب يتحسس مصدرها فلم تكن في المراح فذهب يميناً فخفت ، فمال الي الشمال فجذبته . وما زال يمشي الى جانب الحيط حتى بلغ زاوية البيت فعثرت رجلاه بشيء كبير رخو فانخلع قلبه وجمد ... وكانت غيمة دكناء تمر بالقمر اذ ذاك وتحجبه فلا يستطيع النظر ان يتبين الاشياء . فانحنى يتلمس بكفيه ، وارتد على الاثر ينفضهما مذعوراً . ثم سقط القمر على جثة ! ... بل هما جثتان ! أتكون هي وطام ؟! ولكن الجثتين كلتاهما طويـلة . ودنا ... هـذا قباز ابو زيد ، وهـذه شعرات وردة ، وهاتان يداه ... بل يداهـا هي ملقيتان عليه ... واسنانها في فخذه ، والفخذ معروقـة قد انكشط لحمهـا عنها وعلقت قطعة منه بتلك الاسنان المكشرة ... وانفرجت رجلاه هو في الاستسلامة الاخيرة ، وانضمت قدماهـا هي وتجمعتا وغابت احداهما تحت حجر .

وملأت رائحة النتن خياشيمه ، تصعد دفعات وتدخـل الى صدره وتزحم حلقـه بقلبه . ولقـد عن له ان يرفع يده فيسـد انفه ، فلم يفعل . ولبث لا يتحرك ، معلقاً بالجثتين نظرة لا تنتهي .

ومال القمر فلمعت عيناه ... عيناه هو ... عينا ابو زيد ، كأنه يتحدى السماء تحدياً فارغاً مخيفاً . وكأن هـاتين العينـين تبتسمان ،

وكأنهما تضحكان ، وكأن الشاربين تحتهما يختلجان ويستقيمان ثم ينعقفان . وكأن اليد ، يده هو ... بل يدها هي تسقط عن فخذه وتضم اصابعها الجرداء .

ولكن القمر لملم ملاءته الشفافة فجأة ، وعاد الظلام يلف الجثتين الهامدتين بكفنه الاسود العظيم .

فانتفض وهرع الى المراح فدخله واضاء عود كبريت وهتف بصوت متهدج : « طام ! » ووقع عود الكبريت فاشعل غيره ، فاذا شيء يتململ على الدكة ، فوثب اليه : « طام ! طام ! »

ففتح الصبي عينيه فاهوت عليه ذراعان جبارتان :

ـــ اخي ! اخي ! انا زينة !

السنابل

١

انطلقت زينة باخيها الى مغارة الحورية حيث كان طانيوس بالانتظار . وفتح طانيوس كيسا للصبي ، فجلس يلتهم الزاد ويصغي الى اخبار العصابة البيضاء ولا يصدق ان العصابة البيضاء هي هذه . فلقد طبعت الاساطير في نفسه صورة عنها ابعد ما يكون لا عن زينة وطانيوس فقط ، بل عن البشر اجمعين . فجعل يحدد النظر اليهما يقيسهما ويهز برأسه ، حتى اذا انس منهما الجد ولم يبق من التصديق مفر هبط قلبه بخيبة عظيمة .

وتحول كلام زينة فجأة من اللين والملاطفة الى الشدة والتأمر ، فاحس بخوف يبعده عنها ، فانكمش يستمع الى تعليماتها وتوصياتها وتهديداتها . وربما خالجته ريبة في امرها ، فينكرها بينه وبين نفسه ويقول : « كلا ! ليست هذه زينة ! » ثم يرفع بصره الى وجهها يتصفحه من جديد ، فتلتقي عيناه عينيها في نظرة محبة ، فيعود اليه الاطمئنان .

ثم فطنت زينة الى انه يأكل بلا حساب فسحبت ما تبقى في حضنه من الطعام وقالت :

— نجوت من الموت جوعا فهل تريد ان تموت تخما ؟

اما هو فكان يريد ان يأكل ايضا ، لا ليملأ بطنه الذي امتلأ ، بل ليشبع عينين حفر فيهما الجوع هوة من النهم لا قرار لها . فمد بيده الى كسرة اخرى فضربته عليها ضربة لم يكن ينتظرها فحملق بها مبهوتا . ولكنها كانت قد تحولت عنه تطوف في المغارة نظراً تائها ، وتقول كأنها تخاطب نفسها :

— هنا كان الاخ حنانيا !

وكان القمر يتسلل الى المغارة ، فتجثم صخورها كالاشباح ، ويلتجيء الظلام الى زواياها . فانفلتت ذراع زينة عن اخيها واستوت واقفة كأنها مأخوذة بسحر ، وراحت تلمس في هذا المكان اشياء وذكريات ، وتنصت الى كلمات واصداء يخيل اليها انها ما تزال تتردد وان من المستحيل ان يتغلب عليها الموت كما يتغلب على فانيات الدنيا . .

ثم انقلبت فجأة وقالت :

— اما تزال تحب سامي يا طام ؟

— ولكن ، ألم تقولي لي انه مات يا اختي ؟

— . . .

— احبه ، بلى احبه !

— طام ! طام ! لقد كذبت عليك .

— باي شيء ؟

— كذبت عليك كذبة كبيرة . انا لست « رئيس » العصابة

البيضاء .

ــ من ؟ من هو ؟

ــ هو كما تقـول لا يستطيع ان يقبضه احد على وجه الارض ، ولا ان يراه احد .

ــ ألا اقدر ان اراه انا ؟

ــ ... وانا وعمك طانيوس جنديان عنده . وستصير انت مثلنا جنديا من جنوده .

ــ ويعطيني مارتينة كهذه !

ــ ساقول له ان يدبر لك عملا في العصابة البيضـاء ، لانك لا تستطيع ان تراه الان .

ــ ولماذا ؟ خذيني معك اليه .

ــ هو في مكان بعيد ، بعيد يا طام ، وانت صغير جداً . غـداً عندما تكبر ...

ــ أما تزالين تقولين انني صغير ؟

ــ عندما تكبر تصل اليه وتراه .

ــ اريد ان اراه اليوم .

ــ ستراه يوما من الايام يا طام . قلت لك ستـراه ، ما من ذلك بد... (وتهدج صوتها بالبكاء) .

ــ وحدي ؟ ستكونين معي ، اليس كذلك ؟

ــ من يدري ؟ ربما كنت وحدك .

ـــ لماذا لا ترافقيني .

ـــ ربما سبقتك انا .

ـــ ...

ـــ واذا سبقتك فانني لن اعود . أتخاف ان تذهب وحدك ؟

ـــ ومن يدلني ؟ هل يعرف عمي طانيوس الطريق ؟

ـــ سادلك انا . طانيوس يعرفها ولا يعرفها .

ـــ كيف !

ـــ اريد ان اقول انه يشرد بعض الاحيان ، لان الطريق تطلع وتنزل بين الجبال والاودية ، وفيها شعاب كثيرة .

ـــ انا لن اضيع . افعل مثل الشاطر حسن في حكايات جدي : اعبيء جيوبي بالرماد وارش منه على الطريق لاعرفها فيما بعد ... اصحيح يا اختي ان رئيس العصابة البيضاء يتكلم بلغة غير لغتنا ؟

ـــ اي ، له لغة خاصة .

ـــ أتفهمينها انت ؟

ـــ افهمها .

ـــ وانا ؟ علميني اياها .

ـــ سأعلمك اياها يا طام .

ـــ علميني .

ـــ هي قريبة من لغتنا نحن ، يا طـام . ولكن يجب ان تخفض صوتك وتوشوش وشوشة وتجثو على ركبتيك وتضم يديك .

ونظرت حواليها فاذا طانيوس ما يزال غارقاً في نومه ، فدنت من اخيها وقالت له :

— اركع .

فركع على ارض المغارة وركعت الى جانبه وضمت يديها الى صدرها ، فضم يديه . فقالت :

— قل معي : « ابانا الذي في السموات ... »

٢

في مساء اليوم التالي ابتدأ عمل طام في العصابة البيضاء . فقد تشاور طانيوس وزينة في امر ابراهيم بك فاخر ، فكان رأيه ان يدهمه في منزله ، وكان رأيها التربص له بعيداً . اما هو فيطمع بالاستيلاء على شيء من مال الغني ، ولا يتيسر له ذلك الا في بيته . واما هي فلا تريد الا الانتقام . على انها اقنعته باقناعه ، فامتثل كالكاره ... وخرج الثلاثة فكمنوا في ضاحية بكفيا ، بالقرب من طريق قال طام ان البك يركب عربته عليها كل يوم عند الغروب ، لا يتخلف الا في النادر عن هذه النزهة الرائقة .

انبطحت زينة وراء صخرة كبيرة . وقبع طام الى جانبها يحبس انفاسه ويمد برأسه بين الحين والحين الى اول الطريق ، ويعود

ينظر الى اخته في اتكائها على البندقية ، والى البندقية في اتكائها على الصخرة ، فتخالجه خشية فيها شيء كثير من السرور . كانت تلك المرة الاولى يخرج فيها الى مثل هذه المغامرة . وكان يشعر بالشفقة على ابراهيم بك ، بالرغم من كرهه الشديد له ، فيود ان يلتمس له اسبابا مخففة :

ـــ الناس يقولون ان رئيس العصابة البيضاء لا يقتل الا الاتراك وابرهيم بك ليس تركياً .

ـــ ابراهيم بك فاخر عدو لا يقل شره عن الاتراك ، بل ان شره اعظم . رئيس العصابة البيضاء كان يقول لي : البك وامثاله هم العدو الداخلي والاتراك العدو الخارجي . الاتراك يسلبون الناس حريتهم ، وابراهيم بك فاخر وامثاله من الاغنياء الجشعين يسلبونهم خبزهم . الخبز والحرية ، هل يستطيع الانسان ان يعيش بدونهما .

فجعل الصبي يبلع بريقه محاولا فهم هذه الاشياء ...

وطال الانتظار . والتفتت زينة الى دغل قريب كان يختفي طانيوس وراءه ، ونادته فلم يجبها . فدنت تزيح القضبان بالبندقية ، فلم تجد له أثراً . فارتقت الى تلة واجالت بصرها حولها ، فلم تر احداً . فادركت انه غافلها ، فتعبق وجهها بالغضب والحدوت فاخذت بيدطام وقالت له :

ـــ انت تعرف بيت ابراهيم بك جيداً . أليس كذلك ؟

ـــ ايه .

ـــ يجب ان تذهب دون ان تلفت الانظار . در حول الحديقة وادخل اذا قدرت واستطلع كل ما يحدث ، ثم تعود الى هنا وتخبرني. واذا رأيت طانيوس فتظاهر بانك لا تعرفه ، فلا تقرب منه ولا تكلمه . افهمت ؟

ـــ فهمت ، فهمت . أخفض رأسي هكذا (وثنى عنقه) وامد كفي كأنني اطلب حسنة .

ـــ واياك ان تقول لاحد ان اختك زينة ارسلتك او انك تعرف اين هي ! انا انتظرك فلا تتأخر . وسأقول لرئيس العصابة البيضاء ان يعطيك مارتينة صغيرة .

وكان بين الكمين وبيت الغني مسيرة عشر دقائق . فانطلق طام مسرعا ، يدير بين الفترة والفترة وجهه الى الوراء بغريزة تغلبت على حذره .

وما عتم ان غاب في المنعطف ، فقعدت زينة تنتظر على احر من الجمر . ثم ساورتها المخاوف على هذا الصغير ، ان دفعت به في هذه المخاطرة مع ما تعلم من طيش ابن عمها طانيوس ، وتعرضه للمشاكل ، وقلة تفكيره بالعواقب . وندمت على ما فرط منها ، وجعلت قدماها تجذبانها الى الجهة التي مشى فيها طام ، فمشت مستخفية بالصخور والادغال ، تنظر وترهف اذنيها . وكان المساء هادئاً جميلا فسرت في بدنها قشعريرة ، وخفق قلبها خفقة كبيرة لا تدري لاي شيء خفقتها. على انها كانت تعتقد بمثل هذه الخفقة ، ترى فيها شعوراً سابقاً

لحدث من الاحداث . فصلت في سرها الى الله ان يحرس طـام من الاذى .

وفجأة شق الجوازيز رصاصة غير بعيـد . فوثبت الى الطريق ، فاذا طقطقة ووقع حوافر ، فتوارت . فاذا العربة تمر فارغة وجوادها ينهب الارض ! فرفعت رأسهـا ترافقـه فلم يزل يعدو ، والعربة تعلو وتهبط بين الحفر والحجارة ... ثم انطلقت رصاصـة اخرى فاجفلت وادارت وجهها ، ولكن ضجة عظيمة ردتها ، فالتفتت امامها فاذا الحصان قد اجفل هو الآخر وانقلب بالعربة الى جانب الطريق رافعاً قوائمه الى السماء .

لم يبق عندها ادنى ريب بان طانيوس هو بطل هـذه الحـادثة . فذهبت في الجهة التي اتى منها الطلق الناري . فلم تسر الا قليلا حتى سمعت حركة ، فخففت وطأها وانصتت . وكانت قد وصلت الى تلة صغيرة ، فعن لها ان تنادي طانيوس ولكنها حسبت للمفاجآت حسابا فآثرت ان تستكشف بعينيهـا ، فحبت على الاكمـة دافعة فوهة البندقية امامهـا ، واطلت من القمة فرأت طانيوس مكباً على جثة عسكري يفتش في جيوبه منهمكا لاهثاً . فهتفت :

ـــ اين هو ابراهيم فاخر ؟

ـــ يا ضيعة الرصاصة في هذا العسكري !

وانحدرت زينة فاذا صوت :

ـــ اختي ! اختي !

فالتفتت فرأت طام على خطوات منها وفي يده حبل يشد به الى جذع شجرة ضخمة رجلا لم تكد عيناها تقعان عليه حتى صعقت في مكانها . وقال طانيوس :

ــ هذا خليل المعلا ، تركته لك .

فتقدمت منه . طالما سعت وراءه ، فاذا الاقدار تضعه بين يديها باعجوبة من الاعاجيب . اما هو فحملق بها وصرخ مسترحماً . فلبثت ساكتة ، تغرس فيه نظرة فيها من الاشمئزاز والشماتة ، وفيها من غبطة الظفر وسعادة الانتقام ونشوة خمر من غير هذه الدنيا . وكان طام ما يبرح ممسكا بطرف الحبل ، وعيناه تترددان بين اخته واسيره وقد لمع فيهما سرور غريب . واذا بزينة ترفع يدها وتنزع الكوفية التي كانت تتلثم بها ، فيعلو صدر خليل المعلا بدهشة لا حد لها وتزيغ عيناه حتى لكأنهما تطيران من وجهه :

ــ زينة !

ولم يكن احدهما يطمع من صاحبه باكثر من هذا . فدنت منه دنوة ، وقد امتلأ فمها بلعاب حدثتها نفسها بان تقذفه به على وجهه شتيمة كبرى . وضربت بكفها على البندقية ، فاصطكت ركبتا المعلا واسترخى في وثاقه يقول بلسان لعثمه الخوف :

ــ كلمة . . . كلمة واحدة !

فدفعت عقب البندقيـة بين شدقيه فسال منهما دم وزبد ، وبين الدم والزبد استغاثة اخرى :

— . زينة ! قبل ان تقتليني • • •

فناولته الضربة الثانية •

— سامي عاصم • • •

— أتلفظ اسمه بهذا الفم الوسخ ؟

وقذفته بضربة اخرى • وتراجعت ، فصرخ :

— سامي عاصم لم يمت !

ولكنها نادت اخاها :

— ابتعد يا طام •

وسددت البندقية •

— سامي عاصم لم يمت ! انتظري • انتظري • الجثة التي رأيتها امام ديوان الحرب في عاليه ليست جثة سامي عاصم •

فانفرجت اصابعها عن الزناد • وجاء طانيوس فنكس بندقيتها بيده ، واقترب من خليل الملا يخطى بطيئة وهزه من كتفه :

— ماذا تقول ؟

واقبلت زينة وقد ثاب اليها ما غرب من عقلها ، فاخذ الجاسوس يقص عليها قصة هرب سامي عاصم ورئيس الحراس شفيق افندي العلايلي من سجن عاليه ، وما كان من الخدعة التقليدية التي دبرتها الدولة بعد ان فات العسكر اللحاق بهما ، وذلك بان انبطح خليل الملا في الساحة على انه جثة سامي ، وانبطح احد الجنود الضخام الى جانبه على انه رئيس الحراس ••• وزينة تصغي مشدوهة ، وتعيد الى

ذهنها صورة تلك الجثة الضئيلة المسودة المغطى رأسها بكيس خيش ، وتحدق الى قدمي الاسير تتعرف فيهما على تينك القدمين ، والى كتفيه الضيقة الواطئة تتعرف فيها الى تلك الكتف . ثم يخامرها ، بالرغم من ذلك ، الشك فيما تسمع فتشتعل احشاؤها ثانية ، وتحدثها نفسها ان هذا الجبان انما يختلق هذه الحكاية وينسج ثوبها الجميل البراق التماس النجاة ، فتتذكر دعوة الضابط راسم بك لها ، على اثر عودتها من عاليه ، وتطن في اذنيها من جديد اسئلته المريبة « ان بت ليلتك في عاليه ؟ هل رأيت سامي بعد هربه من السجن؟... » ثم تتذكر هذيانه عندما اسكرته في تلك الليلة وقوله « لو كنت سكران لاخبرتك اشياء عن سامي عاصم ... ولكنني لن اخبرك ... مسكين خليل العلا ! لقد مات اربع مرات ... ! ! ! » حينئذ يعاودها الاطمئنان الى ما تسمع ، فتجتاح كيانها موجات من الغبطة ليس لها بها عهد من قبل ، وتهدر هذه الموجات في داخلها هديرا وتصعد الى حلقها دفعات من شهد اثر دفعات ، فتلبث جامدة تصغي اصغاءة حلوة اذا عكرها عليها معكر فانما هو من اسئلة طانيوس الذي كان يطرحها على المعترف بالحاح وعنف ، فتود لو يسكت ويدعه يتكلم وحده ... وربما كبر هذا الذي تسمع فلم تسعه نفسها ففاض حتى غمرها بجو الحلم ، فنسيت تعتقد انها في يقظة بل ان هذا الذي تكاد تلمس حقيقته وبراهينه لمس اليد لا يمكن ان يكون الا هاجساً من هواجس الحب او طارقا من طوارق الاماني . ولو لم يكن

الا هكذا لشاءت ان لا ينقطع حبله ولا ينصرم عهده . بل لكان اقصى ما ترجوه ان يمتد بها فلا تفيق الا في ظلام القبر .

— يجب ان تصدقيني يا زينة . صدقيني ثم افعلي بي ما بدا لك . انا اعلم ان حياتي التي قضيتها في التجسس على بني قومي خدمة لاعدائي واعدائهم الاتراك قد قاربت النهاية ، بل يجب ان تنتهي . تستطيعين ان تضعي لها حداً بيدك انت . على اني احببت ان اكفر عن ذنوبي فاعترفت لك بكل هذه الامور . كنت آتياً مع الضابط في العربة لا تحسس مدى ما تريد العصابة البيضاء بابراهيم فاخر . فاذا العصابة تقع علي وعلى الضابط . . . انا لا اطلب منك شيئاً . لا انا لا اطلب منك شيئاً . كلمتي الاخيرة لك : صدقيني ! صدقيني ! لقد طالما كذبت ، ولكن كلمتي في هذه الساعة فيها من الصدق ما يخف بكل ما كذبت في حياتي . انا جاسوس ، مطلع على كثير من اسرار الدولة وواقف على سير الثورة العربية في الصحراء . ان العرب يتقدمون من ظفر الى ظفر ، وسيتقلص ظل الاتراك قريباً عن هذه البلاد . . . سامي عاصم وشفيق العلايلي هما في طليعة الثوار ، وقد تقلد كل منهما رتبة ضابط في الجيش العربي . ان التقارير الواردة الى الاتراك من ميدان القتال تؤكد ذلك . ولو كانت لدي خارطة لعينت لك اين وصل سامي وصديقه ، ووضعت اصبعك على مكانهما .

. . . .

٣

في الارض الواسعة... في السهل الكبير الذي لا حدود له... وقد خلع عليه القمر حلته الفضية الساحرة، وتوشت القبة الزرقاء بآلاف النجوم، قافلة تدلج بين السماء والصحراء. خيط قصير على طوله، ضئيل على ضخامته، يذهب مستقيما حيناً، وينعرج حينا، ويصعد على الكثبان ويهبط. والمطايا تخفق على الرمال اللينة الوثيرة، ترتمي اخيلتها تارة الى اليمين وتارة الى اليسار قافلةً اخرى الى جانب تلك تلازمها ابداً، الخف على الخف والغارب على الغارب، أشد ما يأخذ فيها صمتها الماشي كأنها من بنات الحلم وطوارق الارواح. وفي المقدمة هجينان متحاذيان، يرفعان رأسيهما بكبرياء، ويميل راكباهما الواحد على الآخر فيتبادلان نظرة. وقد يهمان بالحديث فلا يجدان له سبباً، فيعودان ساكتين، متهاديين على السنامين، مستسلمين الى هذا الجمال الهادىء ينبسط امامهما ملء السماء والصحراء.

كان سامي وشفيق يقصدان بقافلتهما الى اقرب محطة للقطار الحديدي، ومعهما مدفعان خفيفان وكل ما يحتاجان اليه لقضاء المهمة الدقيقة التي انتدبهما القائد لها. وفي المربع الثاني من الليل اشرفت القافلة على المحطة، وهي واقعة في واد صغير تحت رابية يمتد الخط

حواليها ويلفها ، كالحية لا ذنب لها ولا رأس . فرأى سامي اعتلاء الرابية فانحرف وقاد المقدمة ، واشار على شفيق ان يضبط المؤخرة .

وكانت الغيوم قد حجبت القمر ، وترطب الجو بنسمة باردة واطئة تحت الارض . ثم اذا الهواء يشتد فجأة ويتحول الى ريح تنفخ الثياب وتعوق اصحابها عن الصعود . ثم جعلت تصفر في آذانهم وتصفع وجوههم ، فيتهاوى بعضهم على بعض . ثم تعاظم الصفير فاذا هو ليس صفيراً بل دمدمة بزغردة بنواح بعزيف بعواء : اصوات تجتمع متنافرة ، وتتنافر مجتمعة ، كالحسان الجحيم ، تجتاح وتقتلع وتذري في الفضاء ، وتذهب باحمالها مجنونة ، تضرب بها الآفاق طولا وعرضاً ، وعلوا وسفلا ... ثم سقط الجو بالامطار زخا كالرصاص يجرّح الاكف المتواثبة المتمسكة بالرمل والحصى ، والفحول تهدر من الفزع ، بعضها يحرن ويأبى التقدم ، والبعض الاخر يقطع اللجم شارداً او يزل متدحرجا الى السفح ، وقد جن الليل فلا يرى الرائي الا هولا ، واختلطت استغاثات البشر بصيحات الحيوانات بزغردات الف الف جنية ، وقرص البرد الجلود وشل الاعضاء فهي تترامى عاجزة وتود لو تلتصق مواضعها ، لولا ان الرياح تنفضها ، فتعود الى الارتفاع لتعود بها الرياح سيرتها الاولى .

فصاح سامي :

— على بطونكم ! على بطونكم ، ولا تتحركوا !

فمن سمعه ممن كانوا قريبين منه انبطحوا على بطونهم يغرسون

اظافرهم في الارض صامدين للعاصفة . وانحدر هو يتابع صياحه :

ــ اضطجعوا على بطونكم ! على بطونكم ، ولا تتحركوا !

على بطونكم !

فترددت الاصوات من بعده ناقلة الامر من جماعة الى جماعة .

ثم هدر صوت شفيق فوق اصواتهم :

ــ على بطونكم ! على بطونكم !

فلصقوا جميعاً بالارض . وبركت الجمال ، الا بعض اشباح ظلت تدور على نفسها وتلوح بغواربها المروعة في وجه الليل المجنون .

*

بعد ربع ساعة هدأت العاصفة بمثل السرعة التي هبت فيها ، وانقشعت الغيوم هاربة الى الشرق ، متدافعة متراكبة ، واطل القمر ، فاصدر سامي امره بالسعي وراء الحيوانات الشاردة ، فانطلقوا يبحثون عنها ، ولم يلبثوا ان عادوا باكثرها لم يفقدوا الا اربع نياق . ثم استأنفوا الصعود ، وسبقهم سامي فاشرف من القمة فلمح اضواء المحطة . ودار حول المكان فاختار منصباً للمدفعين . ثم ارسل جنديين يستكشفان الاعداء ، فغابا ساعة ورجعا يقولان ان الاتراك ينامون ملء عيونهم . وكان العرب احق منهم بذلك فاستسلموا الى نوم هنيء .

ولما اطمأن سامي عليهم حمل شفيق معدات الانفجار ونزلا معاً يتلمسان على الخط الحديدي أصلح موضع للغمه .

٤

عند بزوغ الفجر اخذت الحركة تدب في المحطة ، واستطاع سامي ان يرى الجنود الاتراك يستيقظون على صوت البوق، يروحون ويجيئون بين بنايتين واطئتين في احداهما برج يعلو في الفضاء ، له عيون عمودية سوداء تطل على الجهات الاربع . ثم رأى ستة جنود حاملين البنادق قد خرجوا من البناية الاولى على الخط الحديدي الى ناحية الرابية ، حتى اذا وصلوا الى السفح انقسموا ،فذهب ثلاثة الى اليمين وانعطف الثلاثة الآخرون الى اليسار ، وسامي يتناوبهم بمنظاره ، ويشير على رجاله بالهدوء التام .

وفجأة غاب الثلاثة الذين الى اليمين ، وتفرق الثلاثة الباقون كل واحد اخذ جهة . وصعد احدهم تواً الى الاكمة يدفع بندقيته في الارض متكئاً عليها ، مسدداً خطواته الى مكمن العرب بكل اطمئنان وهو يتوقف بين الفترة والفترة ويطوف ببصره حواليه ، ثم يتنفس الصعداء ويتابع طريقه. حتى لم يبق بينه وبين القمة الا بضع خطوات وبان شارباه المعقوفان ، ينفخ بينهما لاهثاً من شدة التعب .

وكان شفيق واقفاً غير بعيد من سامي والبندقية بين يديه ،فنظر اليه كأنه يستشيره « على اطلق ؟ » فشال بحاجبه سلباً . ان اقل طلقة

في تلك الساعة تفسد على العرب خطتهم ، ففرضهم الرئيسي نسف القطار لا الاشتباك مع حامية المحطة . وكان التركي يتقدم دائماً ، فاشار سامي على شفيق بالاستتار جيداً كيلا تنفر الصاعد اليها ريبة . فاذا هو يقف ويدير وجهه الى الوراء كأنه ازمع الرجوع . على انه لم يلبث ان استأنف الصعود . وكان الى جانب سامي وشفيق فرجة بين صخرين لم يشكا ان صاحبها والج فيها . فلم يكد يفعل حتى وثب سامي اليه فاعتلاه ضاغطاً عنقه وطرحه ارضاً فعركه بفخذه فاندلق لسانه ، واقبل شفيق يدفع فوهة مسدسه فوق ذلك الوجه المذعور . واخذ سامي يستنطق اسيره عن قوة الاتراك ، ففتح فاه يأوي ، فحسبه شفيق يتعمد الصمت فضربه بالمسدس على جبينه ، فطفرت الدموع الى عينيه وتراقص شارباه ، وتلعثم يطلب الكلام فلا يطيعه . فهم شفيق بالضربة الثانية فمنعه سامي لما تحقق لديه من ان الرجل استحوذ عليه الخوف فعقد لسانه ، فافهمه انه لن يقتله شرط ان يعترف بكل شيء ، بل يكرمه كاحسن ما يكرم العربي ضيفه . فاطمأن واخبر ان الاتراك يبلغون الخمسين ، وان القائد ارسل عند الفجر الكاذب من استكشف سفوح الاكمة ، فوقع المستكشف على جثتي ناقتين ، فاستدل منهما على مرور العرب بالقرب من المحطة ، ولكنه ظل في جهل للناحية التي سلكوها بعد العاصفة او الموقع الذي اناخوا فيه ، وانه قلق من اجل ذلك قلقاً شديدا لانه ينتظر قطاراً بعد طلوع الشمس يحمل نحواً من مائتي جندي وعدداً من

الضباط قاصدين الى معان للدفاع عنها ، بعد ان تفاقم حصار العرب لها ونفدت فيها المؤن والذخائر .

ولم يكد الجندي يفرغ من افادته الثمينة حتى استغاث بسامي طالباً قوتا ، معترفا انه لم يذق منذ يومين الا رغيفاً اسود وقليلا من الحساء . فسلمه الى شفيق فساقه والقى بين يديه طعاما ، وتركه يلتهمه بنهم الذئب في حراسة بدوي . واوصى البدوي ان يقتله لاول صوت يحاول ان يطلقه او حركة مريبة يأتي بها .

وكان سامي في تلك الاثناء يتفقد المدفعين ويهيء رجاله . حتى اذا رضي عن كل شيء تسلق القمة من جديد يصوب منظاره الى اطراف الصحراء .

كانت الشمس قد ذرت وانتشر البهق في الافاق . فلاحت في الابعاد دخنة ظنها بادىء ذي بدء تلويحة من تلاويح الصباح ، فسوى المنظار وحدد بصره ، فاذا هي مثل الغمامة ... بل اذا هي دخان وتحت الدخان مثل النقطة الطويلة السوداء . فلم يشك انه القطار الموعود . فدعا بشفيق واعطاه المنظار ، فوضعه على عينيه فطار قلبه فرحا . ثم تراست عيون الصديقين عفواً الى السفح حيث وضعا اللغم :

— أأنت واثق منه ؟

فابتسم سامي واجاب :

— سترى بعينيك مشهداً عجباً .

وكان القطار ما يفتأ يقترب منسابا على الرمال ، نافثاً دخانه المتكاثف ، متعاظما على رأي العين . ثم حمل الهواء قرقعة دواليبه فاحس لها سامي ارتعاشة في بدنه . وابى شفيق الا ان يذهب الى الاسير ويسخر منه مشيراً بيده الضخمة الى القطار . ثم لم يبق بين القطار والرابية الا رمية حجر ، والدخان يخرج من فوهة المحرك متدافعاً متقطعاً بنغمة بطيئة متوازنة . فلم يستطع شفيق كبح نكتته وقال :

ـ حازوقة الموت !

ثم تداركت النغمة ، واختفى المحرك يجر خلفه سلسلة طويلة من الحافلات تبلعها الرابية واحدة فواحدة . فقفز سامي الى الجهة الاخرى من القمة ، وتبعه شفيق وقبعا ينتظران بروز القطار ، وقد خفتت ضجته وراء الاكمة ، ثم اخذت تهدر ، وشق الفضاء صفير ارتج له قلب سامي ارتجاجة مفاجأة وغبطة معاً . وكر القطار على الاثر مسرعا ، فمر المحرك فالحافلة الاولى فالثانية فالثالثة ...فالتفت شفيق الى صديقه فرآه يحملق مأخوذاً ... فالرابعة فالخامسة فاذا دوي كالرعد قلقت له الصحراء في سكينتها ، وجبل من الدخان يتعاقد في الجو حتى حجب الانظار ، واخشاب وحدائد واشلاء ودواليب تدور لتهوي في خليط عظيم من الدخان والغبار والرماد . وعقب ذلك سكوت رهيب ، واخذت السحابة الكثيفة تنقشع شيئا فشيئا عن مركبات محطمة هنا ومنقلبة هناك ، وقطعة من الخط

قد اقتلعها اللغم ورفع رأسها الى العلاء ، وقتلى يتمددون على الارض بلا عد ، ويملقون كالحشرات الكبيرة على بقايا القطار ، وصيحات ذعر ، وانات ألم ، وهتافات ...

على ان سامي لم يكن لديه متسع من الوقت لكي يتملى من هذا المنظر الرائع ، فانقلب الى رجاله يوزعهم ، وينظر بين هـذا وذاك الى الجنود المبادرين من المحطة الى نجدة اخوانهم . حتى اذا دنوا من السفح وتكتل الاعداء جميعاً ، قتلى وجرحى واحياء ومنجدين ، نادى باطلاق النار ، فدوى المدفعان بقنابلها واز الرصاص من المثنى البندقية المتحصنة فوق ، فقامت الضجة بين الاتراك وضاع رشدهم بين هول ما ينظرون بين الاقدام وهول ما يسقط على الرؤوس ، فصاح بهم قائدهم وسحب سيفه وتقدم وهو يرجو ان يتبعوه . فاذا هو يرتد رأسه الى الوراء منقصفاً ، وتتدحرج جثته على السفح . فما كاد جنوده يرون مصرعه حتى ادبروا . فشهر سامي سيفه وانقض ، فوثب رجاله من اكنافهم وانقضوا معه ، يعملون سيوفهم بالصامدين ويتعقبون الفارين .

واستعجل بعضهم الغنيمة فهجموا يغزون الحافلات ، ويستولون على ما فيها من ذخائر ومؤن . وشفيق بينهم يحطم ما تبقى من اجزاء القطار . وحانت من سامي التفاتة فاذا بجندي تركي يزحف على تلك المركبة المهشمة ويدلي برأسه فوق شفيق ، ثم يمد يده بمسدس كبير ويحملق ، كأن الرصاص سينطلق من عينيه ! وشفيق

ما يبرح لاهياً ، مزهواً بعمله ، وقد تقوس ظهره وانصب المسدس فوقه . فسدد سامي بندقيتـه ، فاجفل شفيق للطاقة القريبة ، ورفع بصره فاذا اصابع الجنـدي التركي تنفرج عن المسدس فتلقاه منه ، ونظر الى سامي بابتسامـة . ثم سحب الجثـة الى الارض ، ورفسهـا برجله ومشى .

وادار سامي وجهه ، فجمع جنوده فحملوا ما استطاعوا تحميله على جمالهم وجمال حامية المحطة ، وساقوا اسراهم وانطلقوا يهزجون لا يبالون بالحر ، لاضطرارهم ان يلتحقوا بفرقتهم قبـل الوصول الى وادي ابي اللسان .

٥

عند الظهر تضرمت الهاجرة وجعلت الشمس تضرب الرؤوس ، فيتراجع صدى الضربات في الاصداغ ، وتحترق الاجفـان حتى لتكاد تنفض من الوهج المتصاعد من العراء ، المترامي من الفضاء ، المتلاقي بينهما عمودا عرض الصحراء ، حاجزاً هائلا لا جسم له تخترقه الجمال باجسامها القاسية الجبارة . والطريق لا معالم لهـا ولا رسوم ، تذهب القافلة جنوبا وكأنها تذهب شمالا ، وتتقـدم وكأنها تتقهقر ، تتيه ساعة فتقف متجمعة ، وتدور العيون الى كل صوب تستهدي بالظن

والتوهم ، حتى يرفع الدليل ذراعه ويهتف مشيراً اليهم ، فتكر الابل كما يكر الخيط من بكرة ، وتستأنف القافلة السير .

*

صخور تذهب في السماء قبابا ، وتنبطح كحيوانات الاساطير ، تتعاقب قوافل ، وتتحاذى صفوفا ، تتباعد هنا كالقطيع السارح ، وتتراكب هناك كبقايا مدينة دمرها الزلزال . . . وشمس الاول من تموز تعربد على الافق العاري ، وتكسر اشعتها الحادة على الصخور ، فتلتمع فيها الف مرآة ومرآة ، وتمتد لها اظلال اغرب من اشكالها واعجب ، فيتألف من ذلك كله وسط الصحراء عالم رهيب هو الذي تصوره المتصورون مواطن للجن ودهاليز لائتمارهم وسحرهم .

في ظل صخرة من هذه الصخور الجبارة استلقى شفيق على ظهره الى جانب نبمة ، يرفع رأسه بين الحين والحين يتفقد الجنود وقد تمددوا في الفيء يتقون الحر ، وشردت خيلهم وجمالهم غير بعيد تلتمس الكلأ ، ثم يعود الى الاستلقاء عاقداً يديه تحت رأسه مستسلماً الى اغفاءة حلوة .

وانه لكذلك اذ انتبه على ازيز رصاصة فتناول بندقيته وزحف الى الشفير . فاذا شيء من الوراء يسحبه من قدمه فالتفت وقال :

ــ سامي ، هل سمعت الطلق ؟

فاكتفى من الجواب بايماءة ، وانحنى على الماء يعب منه ويمسح شاربيه مبترداً . ثم خلع مسدسه من وسطه والقاه على الارض

واضطجع بالقرب من صديقه .

ومضت دقيقة سكوت . ثم مال شفيق وقال :

ـــ الرصاصة من الوادي ، أليس كذلك؟

ـــ كانت مرسلة الي فضلت الطريق. اظن انهم يبلغون الاربعمائة .

ـــ ولكننا نحن فوق ، وهم تحت .

ـــ وهذا ما يجعل واحدنا بعشرة منهم .

ـــ اذن ؟

ـــ القائد يفضل ان نحاربهم بالنوم .

ـــ يريد ان يرغمهم على الاستسلام ؟

ـــ او ان يدفعهم الى الصعود الينا فنصطادهم كالعصافير .

وعاد سامي الى اطباق عينيه . حتى اذا اخذه النعاس تسلل شفيق وقصد الى القائد .

وفجأة استيقظ سامي على صهيل وجلبة . فوثب ينظر فاذا شفيق على الكتف المحاذية من الوادي قد علا جواده ، واذا هو يزعق زعقة تجاوبت اصداؤها في الارجاء ، وبندفع نزولا . وما هي الا ان انصب الوادي من جهاته الثلاث بالرجال، البعض على الخيل والبعض على الجمال ، وهي تنقض بهم كأنها بعض الصخور حطها السيل ، وهم يطلقون النار من على ظهورها ، وهو في الطليعة يترك ذؤابة كوفيته الحريرية للهواء ، ويرتد بين الفترة والفترة كخطف البرق ليزعق زعقة اخرى . . . ونظر سامي فرأى الرعب يدب في قلوب

الاعداء وبعضهم ، فهم لا يدرون كيف يتقون الرصاص وقد زخ عليهم كالمطر من كل صوب . فنسي ، في نشوة هذا المشهد ، هوس صاحبه ومجازفته بما يجازف به ، فبادر الى بندقيته ، ففرسه الشهباء فامتطاها ولوى عنقها ، فانحدرت تلحق بالسابقين ، وكأنها غضبت لما كان من امساكها فهي تحمحم وتمد برأسها وما تكاد حوافرها تطأ الارض . وهو من فوقها يسلم اليها تسليما ، قد اعمى الوغى عينيه وسد منخريه ، ولغط المعركة يضج في اذنيه صراخا وهديراً ودوي رصاص وهوي اجسام ، فيحاول ان يرى فتلمع الشمس خلال الغبار والبارود المنعقدين طبقاً بين السماء والارض ، فتؤذي بصره ويحس لها بين اجفانه مثل الجراح ، حتى لكأن هذه الجراح قد سالت بدماء محرقة لو رفع كفه الى خديه لالتقط حباتها المختلطة بعرقه المتصبب . . . والفرس ماضية به هائجة مجنونة ، تشق الحجاب الكثيف كالصاروخ منطلقاً بلا وعي ، واذا بها تزل على حين غرة وتنقلب رأساً على عقب ، وتقذفه من عظم ذلك وحيداً في الفضاء فيقفز ثم يسقط وسط المعركة ، لا حراك ولا شعور .

٦

لم يكن سامي يهاب الموت . ولكنه ، لما ثاب اليه وشده بعد

قليل ، عجب كيف انه لا يزال في قيد الحياة . وبلغ به العجب ان لم يجرؤ على فتح عينيه ، فبقي ساهما يتلمس في ظنه الم جرح ما ... فاذا هو لا يحس الما البتة ، الا دوارا في رأسه ، فهو لا يقدر على تحريكه كأنه جلمود او جبل . ثم سمع اصواتا تتردد في اذنيه آتية من بعيد ، غامضة ، عميقة القرار ، بينها انات قريبة ، واضحة ، موجعة الوقع ، محددة النبرات . ففتح اجفانه فبهرته الشمس فعاد الى اطباقها ، يصغي الى هذه الانات المتواصلة ويتملى منها . ثم نظر من جديد فواجهته جثة فرسه وقد انطرحت مقصوفة العنق وتمددت قوائمها الامتداد الاخير .

وتململ يريد القيام ، فاذا هو بحركة من ورائه ، فارتد فرأى جنديا تركيا بين القتلى يزحف ساحبا ساقه المشلولة وكلما مد يده ارسل انة من اعماق صدره وعض شفته . فتناول مسدسه وهم بالاجهاز عليه ثأرا لمئات الجرحى والاسرى من العرب الذين فتك الاتراك بهم بلا حق ولا رحمة . وكان التركي مدبرا ما يفتأ يجرجر نفسه على الحصى ويغرس اصابعه في الارض تارة ويزحل على كوعه تارة اخرى . فرفع سامي رأسه يرافقه في هذه المرحلة البطيئة الشاقة ، فاذا هو يتحول شمالا ويظهر جانب من وجهه الابرص تبرق الرقشات فيه على الشمس بالقرب من قطرات قانية تتحدر من صدغه . ثم يدنو يحملق بجثة عربي بارزة بعباءتها الصفراء بين عشرات الجثث المتزملة بالثوب التركي ويضرب اليها بكفه ملهوفا ،

فتقع الكف دونها عاجزة قد سمع سامي وقعها الخائب على الارض . ثم دنا الجريح دنوة اخرى وتناول اطراف العباءة بكلتا يديه يشد بها . فتعجب سامي من فعلته وصوب المسدس . ثم قال « بل انتظر ماذا يريد » والاخر ما يزال يعالج العباءة وهي تأبى ان تطيعه لضخامة الجثة وعجزه عن تقليبها . ثم انكب على الاطراف التي بين يديه يمرغ فيها وجهه تمريغاً غريباً ، وكأنه يتشممها ، ويمسح عليها بشفتيه بمثل القبلات ، ثم يعلو بذقنه جهده متصفحا وجه القتيل .

فلم يشك سامي ان الرجل مجنون فادركته عليه الشفقة ومشى اليه هاتفاً :

— هيه ! ماذا تعمل يا هذا ؟

فانتفض الجندي رافعاً يديه :

— انا عربي مثلك !

ثم فتح عينيه فالتقتا عيني سامي . كان يرتجف من الذعر منتظراً ان يتلقى الموت بين الحنية واختها . ولكن سامي ظل خافضاً كفه بالمسدس ، يحدق اليه تحديقة طويلة ، وقد استفاقت في ذهنه صورة بعيدة يجتهد في ان يدنيها ويستجلي شبه ما بينها وبين هذا الوجه ، فتغيب في ظلمات الماضي وتضيع في مجاهل الذاكرة ، فيبلع ريقه ويرفع كفه الى جبينه ، والجريح يتمتم مستغيثاً ويقول :

— انا عربي مثلك ، لا تقتلني ! وقد كنت زاحفاً الى هذه العباءة لالبسها وانضم اليكم . انا من الشام ، حاولت الهرب مراراً من

الجيش التركي لما كنت في لبنان فلم استطع . . . ارسلوني بالرغم مني الى هنا مع رفاق لي يكرهون الاتراك مثلي.. ان العربي اكرم من التركي . العربي لا يقتل اسيره ولا يجهز على جريحه .

وكان سامي يصغي نائماً وهو ما يزال يتذكر . ثم انحدر بصره عفواً الى قدمي الجريح واستقر عندهما ، وارتد على الاثر هاتفاً :

ــ كامل افندي ! الجاويش كامل افندي .

فغمرت قلب الاخر موجة من الدهشة ، وطفرت دموع الفرح الى عينيه :

ــ كامل الوراق . من اين تعرفني ؟

ــ انا سامي عاصم .

فخيل الى كامل افندي انه في حلم لما ثبت عنده ان سامي عاصم قتل وهو يطلب الفرار من سجن عاليه ، وقتل معه رئيس الحراس . واردف سامي :

ــ وشفيق العلايلي معي ، هنا . وهو بطل هذه المعركة الجميلة . هل نسيت قلق الضابط راسم بك وبيت كسار في ساقية المسك ؟

ــ الاخ حنانيا !

ونهض على قدميه كالشيطان ! وتعانق الصديقان اشهى من عناقهما الاول في بيت كسار .

ثم اراد سامي تضميد جرح كامل ، فمسح الجاويش صدغه

ضاحكا :

— لا شيء . لا شيء . لست مجروحا . انا صبغت وجهي بالدماء !

واخذ كل منهما يقص على صاحبه قصته . . .

ولاحت في فم الوادي عباءة شفيق وارتفعت ذراعه في الفضاء يلاعب بندقيته . فلوح له سامي ، فهمز مطيته اليه .

ووقف شفيق ينظر الى مرافق صديقه متسائلا من هو . فبادره سامي بتعريفه اليه ، وكان قد ذكره له فيما ذكره عن عهده بساقية المسك . فانفرجت اساريره ، وبسط كفه يربت على كتف كامل افندي ، ثم قال :

— انتظراني في الخيمة .

وانطلق بجواده يصعد ويهبط ويعد القتلى .

ثم رجع الى الخيمة فقال :

— ثلاثمائة مقابل ثلاثة منا وستة جرحى .

ثم اشار الى عباءته وتابع :

— واربع خروق في هذه العباءة الثمينة .

وقعد الى جانب سامي يستمع معه الى اخبار الجاويش عن ساقية المسك وبيت كسار .

٧

في ذلك الوقت كانت زينة جالسة في احـدى الخرائب في ضاحية بكفيا وقد انحنى طانيوس عليها يقول :

ــ زينة ، انا ابن عمك . هـل تذكرين ما كان المرحوم جدك يقول ؟ « يللا يا طانيوس ! شد حيلك ! زينة عروسك ! » ... لماذا تضحكين هكذا ؟ لو تعلمين كم تؤذيني هذه الضحكة ! لو تعلمين عـذابي من اجلك يا زينة ! ألا تشعرين بعـذابي ؟ كان عليك ، في الاقـل ، ان تشفقي علي . انا اطلب منك ان تشفـقي علي ... زينة ، زينـة ! التفتي الي . سافعل ما تريدين . اعدك انني ان اسلب احـداً قرشا ، ولن انهب رغيفاً ... تعودين الى الضحك ! انت لا تؤمنين بكلامي ، تعتقدين انني خلقت لصاً . ولكنك غيرتني . تستطيعين ان تغيريني . بماذا تفكرين ؟ اديري وجهك الي . اصحيح انك لا تحبينني؟ قولي ، قولي . اتتجاسرين على القول انك لا تحبينني ؟

ــ من قال لك انني لا احبك يا طانيوس ؟

ــ كيف تحبينني ؟

ــ كما تحب كل فتاة ابن عمها .

ــ ليس هذا هو الحب الذي اريده .

— احبني انت كما تريد ، وأحبك كما اريد .

— ولكننا نختلف .

— ابداً .

فاقترب منها ملهوفا ، فقالت :

— اسمع حركة . هس ! هس !

ولكنه انقض عليها ، فضربته على يده فتراجع ذليلا :

— ترين اننا اختلفنا حالا .

— اذا اردت ان نبقى متوافقين فحافظ على المسافة (واشارت الى ما بينه وبينها) .

فحرد وانتحى زاوية .

ثم قال :

— ساذهب وحدي .

— الى اين ؟

— ساذهب وحدي . اقول لك ساذهب وحدي الى منزل ابراهيم فاخر .

— بل لا تتحرك من هنا .

— لو تركتني البارحة ، لصلينا اليوم لراحة نفسه .

فضحكت ، وكاد يضحك .

— بل قل لكانت جيوبك ملأى بالذهب .

— هو يهزأ بنا ولا شك . وحقه ان يهزأ . فقد انذرناه اولا

وثانياً وثالثاً ... انت افسدت سمعة العصابة البيضاء .

— خير على كل حال من تلطيخها باعمالك .

— تريدين ان نعيش عيشة النساك . انت تتغذين بالغرام . وكان ينقصك ان يأتي هذا الملعون خليل المعلا ويقول لك ان سامي عاصم ما يزال حيا ! الحق علي . كان من واجبي ان اقتله قبل ان تريه . ومن يضمن لك انه لم يخترع هذه الحكاية من بطنه ؟ هذا جاسوس والجواسيس يكذبون كما اشرب انا الماء. وربما كان يعتقد ، المسكين! انه اذا لفق لك هذه الكذبة عفوت عنه . ولكنك قتلته بلا رحمة . انت تقولين عني انني بلا ضمير اذا قتلت واحداً لاستولي على ماله . انت التي بلا ضمير . والا فلماذا قتلت خليل المعلا بعد ان بكى بين يديك واستغفر ؟ ألانه بشرك بان سامي لم يمت ؟ ! أهذا جزاؤه منك ؟ ! انا ان قتلت فلي غاية ، هي ان آكل. اما انت فتقتلين لوجه الشيطان . قلت لك ان غرامك يجعلك وحشة ، وحشة ضارية ! فهل اعجب ، بعد ذلك ، اذا لم يكن عندك عاطفة نحوي ؟ لا ، لا . لا اريد هذه العاطفة . انت غولة ، انت حجر ! ... ومجنونة انت اذا كنت تظنين ان سامي يفكر بك وبساقية المسك وبمغارة الحورية وبذخيرة عود الصليب . ها ها ! ذخيرة عود الصليب تمنعه من حب النساء ! ام تعتقدين انه لم ير على شكلك؟ بيروتي ، وابن جاه ، وغني ! اذا انتهت الحرب وطلعت في الطريق بوجهه فسيحيد عنك الى الطرف الآخر ... هذا اذا كان حياً . ولكن اطمئني بالا . ان

مئات والوفا من العرب قتلوا في الثورة ويقتلون اليوم وسيقتلون غداً. ذخيرة عود الصليب تنجيه من الموت! ها ها ! اسمحي لي ان اضحك هذا دوري في الضحك عليك .

ــ اسكت !

ــ لا اسكت . لا اسكت ! انني اتساءل ما معنى وجودي معك ؟ انا ابله ! ابله ! ابله ! وفوق هذا تجبرينني على دفن الموتى . اطوبيا البار انا ؟ ... اضحكي اضحكي ! ادفنيهم وحدك . انا لن اوسخ يدي بعد اليوم ابداً ! وفوق هذا لا تدعيني آخذ من احد شيئاً . لولاك لاصبحت من اكبر الاغنياء ، ولتزوجت بنت اكبر غني . لا لا . لا استطيع ان اعيش معك . يبس بطني من الخبز الجاف .

ــ نعمة من الله ! الناس يموتون جوعا .

ــ ما يهمني من الناس انا ؟ ماتوا أو عاشوا على حد سواء .

ــ ألا تتألم لهم ؟

ــ اتألم ؟ انا ! ولماذا اتألم ؟

ــ ضع نفسك مكانهم قليلا .

ــ انا ؟

ــ اي ، انت . والاغنياء كابراهيم بك فاخر قد استولوا على بيوتهم وارزاقهم ببضع اوراق تركية او ببضعة ارطال من الطحين المغشوش ، ولم يبق حولهم عمل ، وانقطعت عنهم الاموال من اميركا

ماذا كنت تصنع ؟

فهز برأسه ونظر اليها شزواً وكرر :

ـــ انا ؟

قالها هذه المرة بلهجة غاب فيها الخوف على الاستخفاف، فتحدته :

ـــ قلت لك اي انت !

ـــ كم هو عدد الاغنياء ؟

ـــ اين ؟

ـــ في بكفيا وضواحيها .

ـــ اربعة او خمسة .

ـــ وكم هو عدد الفقراء ؟

ـــ الباقون كلهم .

ـــ يعني كم ؟ يعني انه مقابل اربعة او خمسة اغنياء الفا فقير .

ـــ واكثر .

ـــ افهمت ماذا كنت افعل لو كنت فقيراً ؟

فبرقت عيناها محدقة اليه ، فعاوده الجزع فخفض رأسه وقال :

ـــ لا شيء ، لا شيء ...

٨

كان طانيوس من طينة غريبة عن الطينة التي جبلت منها زينة ، لم يفهم يوما من الايام المثل الاعلى الذي تجاهد له ، ولم يتذوق قط حلاوة ما كانت تجده هي في ذلك السبيل . ولقد بذلت ما في وسعها لرفعه الى مستواها ، وتنشيقه الهواء النبيل الذي تتنشقه ، فيخيل اليها احيانا انها وفقت ، ثم ما تلبث ان تتبين خيبتها ، اذ يعود ابن عمها الى الحضيض الذي ارتضته نفسه .واستقرت عند حدوده الضيقة اطماعه وامانيه .

عاش طول حياته لا يعرف احد من الناس ما يشتغل ولا كيف ولا اين . وكل ما يعرفونه عنه انه رجل قليل الاختلاط ، على ظرف حديثه اذا ضمته الصدفة الى مجلس . ولم يكن صاحب املاك تدر عليه ، ولكنه لم يشك مرة فقراً . يقيم في بيته البعيد المنعزل ، ناظراً الى الدنيا كما ينظر الولد الى صندوق الفرجة ، يبهجه ما فيها من غرائب وعجائب فيقف دونها مبهوتا ، ويسيل لعابه على نعيم المترفين بقصورهم وعرباتهم ، واثوابهم الجميلة وما كلهم الطيبة ، فيلمه ويكتفي بالتحسر .

اجل ، كان عنده في ماضيات الايام كديش . وكان اهل

القرية يقولون له « ابو كديش » لان هذا الكديش كان يؤلف عائلته بعد ان فقد ابويه صغيراً ، فخلفاه الى خالة ربته الى ان صار يافعاً ، ثم ذهبت بوجهها المحزون الى القبر . ويؤكد بعضهم انه هو الذي استعجلها اليه لفرط ما عذبها بشراسة طبعه ، حتى كان يربطها الى عمود في البيت ويغلق عليها ويروح . وكثيراً ما عرض عليه ابوسعيد ان يعمل في صناعة الديماء فيعمل يوما ويتغيب اسبوعين... وتبلعه الارض فجأة فيدخل في الظن انه مات او هاجر الى غير رجعة ، فاذا هو يطل بكتفيه العريضتين معافى ، مسروراً ، بالف خير !

ولما اقتنى الكديش لم يبدل شيئاً من طراز معيشته . يكاري عليه حيناً ويقعد اكثر الاحيان مفضلا الكسل والتأمل تحت الشمس ، والكديش يسرح على مقربة منه ملتقطاً الاعشاب .

حتى كان مقتل الضابط راسم بك فالتحق بزينة . وكان يسمع اخبار الطياح ، فتستهويه مغامراتهم وامجادهم ولا يمل من ترديد اخبارهم ، على قلة نصيبه من الشجاعة وصمود القلب . ولكنه كان يعتاض عن سلاح الاسود بسلاح الثعالب .

وقد سبق لزينة ان تعرفت الى صنوف من حيله واحابيله حالفها التوفيق في كل مرة . وما هي ان عاد الى هدوئه حتى جلست تصغي اليه وتبادله الرأي في تدبير الانتقام من الرابي...

٩

تقدم العرب في الايام التالية يحتلون المواقع واحداً اثر واحد ، ولا يلاقون من الاتراك مقاومة تذكر . كانوا يخلونها قبل وصولهم ويهربون متجمعين في « الحضرة » ، والحضرة حصن العقبة يتوقف على احتلالها مصير عظيم من مصائر الثورة .

وادرك العرب ما يُعد لهم ، ووزنوا ما لديهم من رجال وعتاد مقابل ما يظنون ان الاتراك قد جهزوه في الحضرة من رجال وعتاد فرجحت كفة الاتراك . فرأوا ان لا يجازفوا بالهجوم ، وانتهى بهم التشاور الى وجوب اخذ الاتراك بالخدعة ، والتهويل عليهم بانتصار ابي اللسان والانتصارات التي تلته ، فان صدقوا واستسلموا فذلك . والا فينتظرون مدداً ، او يفتح الله عليهم بابا من عنده .

وكان الوقت آخر الليل ، والقمر بدراً . فارسلوا من قبلهم من تقدم فانذر الاتراك بالاعلام البيضاء فاجابوه باطلاق الرصاص . فاعقبوه بجندي فرده الرصاص ايضاً ، فحاروا في امرهم . فانبرى كامل وقال :

ـــ انا لها !

وكان ينتهز الفرصة ليثبت اخلاصه للثورة ، وليدهش اول عمل

له في الجيش العربي الذي طالما تمنى الانضمام اليه . فطلب ان يوضع تحت امره بضعة جنود ، فسئل عما يريد بهم . فبسط حيلته ، فلم تعجب القائد . فاكتفى بجنديين فعارض ايضاً . ولكن سامي تدخل فاقنع القائد . فسر كامل سروراً عظيما وابتدأ بنزع ملابسه ، فلم يبق الا ما يستر عورته . ثم انسل كالطيف الساري ، مترفقا في خطاه محاذراً ان تراه عيون الاعداء قبل الاوان ، واوصى الجنديين ان يلتزما مسافة دونه لا تقل عن مئة متر .

مشي ، ومشيا خلفه كما اوصى . حتى اذا اقترب من الخطوط الامامية ارتمى يحبو ، مبالغة في الحرص . والجنديان ينظران اليه يدب عاريا كالحيوان ويتضاحكان . ثم انبطح يزحف ... فلما كان بالموضع الذي ظن انه موافق استدار على عقبيه ، وهي الاشارة التي عينها للجنديين ، فاخذا يطلقان الرصاص ، فانتصب في وجه الاتراك رافعا ذراعيه . فلم يشكوا انه منهم ، لعادة البدو المعروفة : اكثر ما يستهويهم في الجندي ثيابه ، فما يقع بين ايديهم واحد منهم حتى يجردوه منها . . وحسبوا انه ناج اليهم بخبر خطير فالعرب يتعقبونه خشية ان ينفذ به . فصوبوا بنادقهم يجيبون الجنديين بمثل خطابهما . فدنا كامل وطلب مقابلة القائد . فارسل اليه القائد احد ضباطه فقال له :

ـــ انا رسول من عند العرب . جئت انذركم باسم قائدهم النبيل بوجوب الاستسلام حالا . انذرناكم بالاعلام فاجبتم بالرصاص ،

وارسلنا اليكم اسيراً من جنودكم فاطلقتم عليه النار كذلك . وكان علينا بعد هذا ان نقابلكم بالهجوم ، ولكن رجحان عددنا وعُددنا على عددكم وعُددكم يجعل ظفرنا غير مجيد . وليس من شيم العربي ان يقاتل الا كفؤه . ان القبائل كلها انضمت الينا . وقد علمتم ، ولا ريب ، ما حل بعسكركم في وادي ابي اللسان ، لم يبق منه العرب من يخبر ، فمن قتل قتل ، ومن جرح جرح ، ومن اسر اسر . فاذا كنتم تحرصون على دماء من الحرام ان تذهب هدراً فعليكم بما ارسلني به قائدي : الاستسلام بلا قيد ولا شرط . ان العرب لا يقتلون اسيراً ولا يجهزون على جريح . وقل لقائدك ان قائدي يقسم له بشرفه العربي انه يؤمن على حياته وعلى كرامته كقائد ، وعلى حياة ضباطه وجنوده جميعاً . تأكلون من طعامنا ، وتشربون كما نشرب ، وتنامون كما ننام . . .

كان كامل يتدفق في خطبته معجباً بطلاقة لسانه ، والضابط التركي يقيسه من ام رأسه الى اخمص قدميه ، حتى اذا فرغ رأسه ارتج عليه فالتجأ الى عبارة من عباراته التقليدية الجاهزة فختم قائلا :

— اجل ، وتنامون كما ننام . . . الى ان يقضي الله امراً كان مفعولا .

واستوى بادب وفخر عاقداً بين حاجبيه ، منتظراً الجواب . فقال الضابط :

— نقبل بالاستسلام بعد يومين اذا لم تأتنا نجدات .

/37

فحيا كامل وادار ظهره . ثم انكفأ وحيا من جديد وقال :

ــ ان قائدي يطلب الاستسلام دون قيد ولا شرط .

ــ قل له القائد التركي يطلب يومين .

ــ وبعد يومين تستسلمون دون قيد ولا شرط .

ــ اذا لم تأتنا نجدات .

ــ ولكن العرب في هيجان عظيم . وقد عانى القائد مشقات كبيرة في كبح جماحهم وايقاف هجومهم .

ــ هذا جواب قائدي الى قائدك ، واذا شئت كتبته لك ، وليس لي ما أزيد عليه او انقص حرفا . واذكر أنه قيل « ما على الرسول الا البلاغ »

فحملق كامل بالضابط مدهوشاً واردف كالغاضب :

ــ وقيل « لقد اعذر من انذر »

وحيا وشيكا وهم بالانصراف . فناداه الضابط ، فعاد عابساً .

ــ أعند كم طعام كاف ؟

ــ كثير ! كثير !

فتلمظ ، واستمهله دقيقة لاستشارة القائد ، ثم عاد وقال :

ــ تقول ان قائدك يتعهد بمعاملة قائدي معاملة حسنة ؟

ــ هذا ما قلته .

ــ قل لقائدك اننا نستسلم عند شروق الشمس .

كان الزهو يملأ كامل ، ويفيض في كل جارحة من جوارحه .

فلم يكد يغادر الاتراك ويطمئن الى إنه صار في منجاة عن عيونهم حتى انطلق يقفز، ويرقص، ويدندن باغنية حماسية سمع شفيق العلايلي في الليلة السابقة ينشدها بصوته العريض الحار . فاذا رصاصة تدوي في الفضاء، فهم بمناداة الجنديين وقد حسب الرصاصة من احدهما . فاذا اختها تصفر في اذنيه ! فابتلع افرودته وارتمى يزحف على بطنه وهو يلعن القائد التركي ويشتمه اقذع شتم ... وتتابعت العيارات النارية تمر فوق رأسه وتغرز في الارض حواليه . فاستلقى حابساً انفاسه، فلما خرست البنادق استأنف زاحفاً، فحابياً خبباً . ثم استوى على قدميه راكضاً، يأبى عليه فرحه الا ان يستعجل الوصول . فعادت الطلقات سيرتها الاولى . فلم ينخفض لها، ولجأ الى حيلة جديدة : يذهب يميناً ثم يذهب يساراً في لفتات ودورات مخادعة، وهو يلوح بيديه كالشجرة في مهب العاصفة .

وشرع العرب يردون على الاتراك بالمثل، فبات بين نارين حاميتين، ليست حسرته على الحياة كحسرته على خدعة كانت على وشك ان تؤتي ثمرها . وفيما هو يفكر في الامر، ساخطاً لاعناً اذا برصاصة قد نفذت في ظهره، فتهادى، ثم انطوى ساقطاً كأنه ينغرس في التراب . ودفن وجهه في صدره هنيهة يتمتم الفاتحة، ثم رفع انفه يتنشق بملء روحه نسمة آتية من بعيد . فعاد اليه العزم، فاخذ يسحب جسمه المدمى على الحصى سحبة بعد سحبة . ثم خارت قواه فالقى ذراعيه يستريح على يأس لا حد له ...

138

وكان الفجر قد بدأ يحل سدول الظلام خيطاً فخيطاً ، ويغيب النجوم في آفاقها البعيدة نجمة فنجمة ، وسقط الجو بانداته الرطبة على الجريح العاري المنبسط في القفر ، فارتعش من البرد . ثم حمل اليه الهواء حمحمة خيل ، فادرك انه صار على امتداد ، فبعث الامل القوة فيه . فتابع الطريق يبذل لكل شبر منها دفقة من دمه . ثم لمح شبحاً يلاقيه فجعل يستحث نفسه اليه ، حتى اذا تبينه هتف :

ـ سامي !

فدنا منه واحتمله بين ذراعيه .

وعقد القائد والضباط مجلساً فاستمعوا الى كامل فقال سامي :

ـ يجب ان لا يداخل الاعداء شك فيما ابلغهم رسولنا اياه .

وكر العرب في جلبة عظيمة ، فتبودلت بعض الطلقات . وجازت الحيلة ، فاشرقت الشمس على الوف الايدي التركية مرفوعة الى السماء بالاستسلام .

١٠

لم يصب الاتراك من كامل مقتلا . ولم يمض عليه مدة بعد وصول العرب الى العقبة حتى التأم جرحه وتماثل الى الشفاء . ولكن الطبيب منعه من مفارقة الفراش قبل استكمال دور النقاهة ، فكان

سامي وشفيق يعودانه ويجاذبانه الحديث ساعات حلوة من النهار والليل .

وكانت القوات العربية تتوارد الى العقبة لتحصينها وجعلها قاعدة من قواعدهم ونقطة الاتصال بالانكليز في السويس وفلسطين . فترة راحة وانبساط انصرفوا خلالها الى الاستعداد لوثبتهم الكبرى الى سوريا واحتلال دمشق ، مطمح انظارهم وقبلة آمالهم منذ الرصاصة الاولى .

— الله اكبر ! الله . . . . . اكبر !

كان هذا الاذان يتجاوب مرات في اليوم ، وكان الاصدقاء الثلاثة مجتمعين ذلك المساء في خيمتهم ، فلما سمعوه ركع كامل يصلي ، وقعد شفيق صامتاً ، ووقف سامي على الباب يصغي مأخوذاً بتردد الاذان بين اشجار النخيل وقد انتصبت في غبشة المساء اعمدة لهيكل عظيم قبته الجوزاء ، وانبسط البحر وراءها في زرقته الضاربة الى السواد ، وهدأت امواجه في تخفق على صخور الشاطىء خفقاً لطيفاً . كأن البحر يصغي هو الاخر ، او كأن له صلاته يؤديها بلغته لذلك الذي هو اكبر منه . كلما سمع سامي الاذان وقف عند هذه اللفظة « اكبر » وتمنى لو ان المؤذن يمد بها صوته الى ما لا نهاية له ، فتشمل الشاطىء والبحر ، وتستوعب الجبال والصحاري ، وتبتلع الارض والسماء . . . والظلام .

ولم يكد كامل يفرغ من صلاته حتى قال :

ـ هذا المؤذن يقتلني . يصيح كالديك الابح ، ولا يرضى حتى يلحن . أمؤذن ويلحن ؟ !

وكان كامل صاحب صوت رخيم ، ومجوداً حسن التجويد . وقد طالما هم بالوثوب من فراشه واعتلاء المأذنة مكان ذلك الشيخ الابله . فرفع شفيق اجفانه الكثيفة وقال :

ـ طرد هذا الشيخ من المأذنة أهم لديك من طرد الأتراك من دمشق !

ـ يفسد والله علي صلاتي ، حتى لأتمنى لو مت قبل سماعه .

ـ برصاصة ابي اللسان . قه قه قه !

واسعفه سامي :

ـ ها ها ها !

ـ بل برصاصة الحضرة هذه ! (واشار الى ظهره)

ـ انت بطل الحضرة غير مدافع .

ـ جرح في ظهرك افتديت به جراحا .

فاتبعه كامل بالسجعة :

ـ وارواحا .

فعاد شفيق الى المزاح :

ـ انا عربي مثلك ! انا عربي مثلك ! لا تقتلني ! لا تقتلني !...

فاشتعل وجه كامل خجلا والتفت الى سامي يستنجده على صديقه القاسي ، فلباه ولكن على غير ما يشتهي :

— احمد الله على انه ارسلني اليك ولم يرسل شفيق ، اذن لقتلك .

— ربما كان يفضلني عليك ، تصوّر انه كان الساعة في الجنة .

— رصاصة العربي لا تصعد العربي الى الجنة رأساً .

— آه ، صحيح . ذلك فضل الرصاصات التركية ...

— الوحيد ...

— اذا اصابت اهدافها .

— ما اقل العرب اذن في الجنة !

— والاتراك ؟ أكلهم الى جهنم ؟

فأكد سامي ضاحكا :

— هكذا يقول كامل .

ولكن كامل الذي كان قد لزم الصمت منذ اخجله شفيق رأى الواجب يدعوه الى التدخل :

— انا لا اقول هذا ، استغفر الله ! انا لا اقول هذا . ان بين الاتراك من هم مسلمون موحدون يؤمنون بالله وبرسوله وباليوم الآخر ، هؤلاء لهم ثوابهم عند الله . ولكن الالمان والنمساويين ومن لف لفهم ...

فقاطعه شفيق :

— ماذا تفعل بالانكليز والفرنسيين ...

— اولئك لا يحاربوننا ، بل يحاربون معنا .

/١٤٥

ـ لهم ثوابهم عندالله طبعاً .

فقال سامي:

ـ وعندنا ايضاً .

فاستأنف كامل :

ـ نحن أعلنا الجهاد على الاتراك .

ـ والاتراك قد اعلنوا علينا الجهاد . فاي جهاد يا ترى أصح؟

ـ نحن أمة الرسول .

ـ ولكنهم كفّرونا .

ـ كذبوا ، بل هم الكافرون . ان الخلافة يجب ان تعود الى العرب . سينتصر العرب ويعودون سيرتهم الاولى ، ويبعثون عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين ، وتجدد دمشق شبابها ، ونبايع فيها الملك حسين اميراً للمؤمنين فيجمل فيها مقره ، ونحوطه بالشعراء والعلماء واهل الرأي فينا .

ـ وتكون انت شيخ الاسلام . قه قه قه !

فامسك كامل وارخى رأسه على المخدة ، وشفيق يسدد اليه ضحكته الساخرة الهائلة . ثم التفت الى سامي وقال :

ـ أليس كذلك ؟

ولكن سامي ظل مطرقا ، يمج بدخان لفافته غارقا في التأمل . فضرب شفيق بيده الجبارة على كتفه ، فرفع بصره اليه ببطء كأنه يحاول قراءة ضميره . ثم عاد الى خفض رأسه ، فسأله شفيق :

— بماذا تفكر ؟

— ...

— بزينة ايضاً ؟

— ربما !

فانبرى كامل :

— بطعام ؟

— ربما بالاثنين ... وبواحد آخر .

— من ؟

— انا ... افكر في نفسي ، وافكر في امثالي من الذين علقهم الاتراك على اعواد مشانقهم في بيروت ودمشق ، وفي الذين نفوهم الى اقاصي الاناضول او زجوهم في اعماق السجون ، وفي الذين يحاربون معنا هنا في جيش الثورة او انضموا الى الحلفاء في مهاجرهم . منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال حياً ... هؤلاء جميعاً ، يا كامل افكر فيهم عندما اسمع كلامك . كلا ليس بين العرب والاتراك جهاد ديني . الاتراك في اكثريتهم مسلمون والعرب في اكثريتهم مسلمون . ليس هنالك مسلمون يحاربون مسلمين او غير مسلمين . بل عرب يقاتلون اتراكا لاسترداد حريتهم ، واتراك يقاتلون عربا لاستبقاء سلطانهم عليهم . اليوم قد ولدت القومية العربية الصحيحة . ان امها هي هذه الثورة التي امشي فيها انا المسيحي العربي الى جنبكم انتم المسلمين العرب ، لنحارب عدواً مشتركا لبلادنا هو التركي ،

سواء اتبع محمداً او المسيح او الشيطان . وان اباها هو ذلك الاستشهاد الذي لقيه شبان العرب وابطالهم السابقون ، اخذهم اليه الاتراك على انهم عرب فلم يسألوا المسلم عن قرآنه ولا المسيحي عن انجيله . اكبر الظن انك يا كامل تستوحي تاريخنا القديم ، وهذا التاريخ قائم معظمه على الاسلام ، وليس يعيبه انه كان كذلك فلم يكن يستطيع ان يكون الا كذلك . وقد طالما كانت الاديان ، عند مختلف الامم الحافز الاول لم شعثها وتوحيد كلمتها وتكوين شخصيتها . ولكنه يعيدنا نحن ، في هذا العصر ، ان نبني دولتنا الجديدة على اسس الدين . ان قوميتنا العربية التي ولدت اليوم ، اقول ولدت اليوم ، لا يهمها من الخلافة الا بمقدار ما يهم الايطاليين من البابوية . الذين يقاتلون الاتراك اليوم يقاتلون معهم الالمان وهم لا ينازعونهم على خلافة ، وقد يقاتلون الانكليز غداً والفرنسيين اذا طمعوا ببلادهم وحاولوا اذلالهم ...

كان سامي يتحدث بحماسة الى رصانة ، فاوقعت لهجته المهابة في نفس كامل فتلعثم لا يدري ما يقول ، وبعثت الزهو في نفس شفيق الذي لقنه سجن عاليه هذه الامثولة عمليا ، فلم يزد صديقه على ان كررها عليه بالكلام والقى على بعض نواحيها الخافية نوراً .

وساد بين الثلاثة صمت طويل ، فابى كامل الا ان يعلق على الحديث شيئاً ، فابتسم الى سامي وقال :

— انت فقيهنا السياسي .

فاندفع شفيق في مزاحه :

ــ انا عربي ! انا عربي مثلك ! لا تقتلني ! لا تقتلني !

واطلقها ضحكة من ضحكاته الفضية الكرارة . وعاد جو المرح من اوله .

ثم التفت سامي الى شفيق وقال :

ــ نحن مستعدون لغد . اليس كذلك ؟

ــ يكاد العث يقتلنا هنا ... اسمع ، اسمع !

فهتف كامل :

ــ طيارة ! طيارة !

ومد رأسه ينظر . كانت الطيارات تعجبه كثيراً ، وكان الانكليز قد ارسلوا من مصر الى العقبة بضع طيارات لمساعدة القوات العربية على استكشاف مواقع الاعداء وازعاجهم . قال كامل :

ــ بساط الريح في الف ليلة وليلة ، هذا هو والله العظيم !

فقال سامي :

ــ بساط الريح كان ينقل العشاق الى معشوقاتهم .

فاردف شفيق :

ــ والطيارة تنقل عشق الانكليز الى الاتراك !

فقال كامل :

ــ ومن العشق ما يقتل ! انني ما ازال افكر في الطيارة التي حلقت فوق معان والقت قنابلها على مقر القيادة فطاحت برأس

الطاهي وكسرت القدور والصحون .

فقال شفيق :

ــ لو كسرت رأس القائد التركي لوجدت فيه ارنبيطاً !

فضحكوا لهذه النكتة طويلا . ثم استأنف كامل :

ــ وعندما حلقت فوق الوادي والقت قنابلها على مربط الخيل فقطعت الخيل اعنتها وانطلقت مجنونة في الصحراء ... سنوصي الانكليز عندما نقيم دولتنا ان يرسلوا الينا من هذه الطيارات الشيطانية فنجهزها بها . ونوصيهم ان يرسلوا الينا بواخر لها مدافع .

فقال سامي :

ــ اما انا فاخشى ان تكلفنا هذه الطيارات وهذه البواخر غالياً جداً .

ــ لو دفعنا ثمنها مال الدنيا لساوت مال الدنيا !

ــ المال يهون . اخشى ان يتقاضونا ثمنها ما هو اغلى من المال. بل اخشى ان يكونوا قد بدأوا يفكرون بتقاضي ثمن هذه الطيارة التي تهدر الساعة فوق رؤوسنا . لانهم لم يرسلوها حباً لنا .

ــ لا حباً لعلي بل كرها لمعاوية .

فصاح شفيق :

ــ اي ، بل كرهاً للاتراك والالمان .

وصوب الى سامي عينين تنتظران ايضاحا ، ولكن سامي هز برأسه وقال :

— هذه اشياء يحين اوانها .

ثم نهض حاملا نفسه على الابتسام .

— اتذهب معنا غداً يا كامل ؟ رحلة جميلة في الصحراء .

وقال شفيق :

— والعهد الذي بيني وبين سامي يكون مثله بيننا وبينك . أتقبل ؟

— ما هو ؟

— اذا جرح احدنا في المعركة ولم يستطل حمل جرحه اجهز عليه رفيقه .

— لماذا ؟

— لئلا يقع بايدي الاتراك فيموت بدل المرة عشراً .

فاشرق وجه كامل وظل ينقل عينيه الصغيرتين المدهوشتين بين صديقيه ، ثم ابتسم لسامي وقال :

— رأيتك في الحلم ، يا سامي ، واقفا الى جانب زينة وكلاكما في حلة العرس ، ورأيت شفيق قد تحول قسيساً يبارك اكليكما ...

فانعطف شفيق على سامي وضرب بيده الى صدره هاتفاً :

— ارني ذخيرة عود الصليب .

فشد سامي على الذخيرة ونجا هاربا ، وعدا شفيق وراءه يتضاحكان ...

143

١١

انطلق طام في الاسواق المغطاة بالجياع يهمس في الاذان :

ــ ابراهيم بك فاخر يوزع الطحين ! ابراهيم بك فاخر يوزع الطحين ! ...

فيتناقل السامعون البشرى ، ويستأثر بها بعضهم طمعاً . يهب الشيخ المتهدم ململماً قواه ، ويرفع الشاب الذليل رأسه ، وتنتفض المرأة في اسمالها ، ويخف الولد طائراً ... جماعات وفرادى يتراكضون ، الام تجر طفلها ، والاخ يترك اخاه . هذا يدلج بورمه ، وذاك يقع على وجهه ، يتصايحون لاهثين ، حفاة نصف عراة ، باقدام مشققة وسخة ، ووجوه بارزة العظام ، وشعور منفشة طويلة ، وعيون فارغة مخيفة . موكب متصل الحلقات هنا ، منفصلها هناك ، يثب ويمشي ويزحف ، ولكنه يتقدم دائماً . لا يفكر احد الا بالكلمة الحلوة « الطحين » ، ولا يرى الا الصورة الشهية « الطحين » تشدد عزيمة من ارتخت عزيمته ، وتضاعف قوة من عنده قوة ، تمسك الارماق في الحلوق ، وتجدد دفقات الحياة في الصدور .

ــ ابراهيم بك فاخر يوزع الطحين . اسرعوا ! اسرعوا !

حتى التفت طام فلم يبق حواليه احد ، فمشى في مؤخرة الجيش

يستحث المقصرين . ثم نفد صبره فاخذ يعدو . فلما شارف الحديقة المزهوة في تلك الضاحية المنعزلة ، راعه ذلك العدد المديد وتلقاه لغطهم من بعيد . فدنا ينظر بحرص بين الجمع ، يتطاول على رؤوس اصابعه ، ويندس بين الاجسام المتراصة ، فاهتدى الى زينة واقفة وسط الجمهور بقمباز عتيق كانت قد انتزعته عن جثة دفنتها قبل يوم ورأت ان تتخفى به . فبادل الاخ اخته طيف ابتسامة ، وعضت على شفتها فصدف عنها يمد يده مع المادين ويشترك في ضجيجهم .

كان الجياع يتزاحمون على البوابة ، وطانيوس في المقدمة يزيح المناكب عنه ويتمسك بالقضبان الحديدية مناديا :

— يا بك ! يا بك !

فتردد عشرات الافواه :

— يا بك ! يا بك ! يا سعادة البك !

ولم يكن في الجنينة الا الكلب ينبح على البوابة ويكشر عن انيابه ... وحانت التفاتة من امرأة الى طام فسألته :

— اين الطحين ؟

واقبل اليه جار لها :

— اين البك ؟

وتحلق حوله آخرون :

— اين الطحين ؟

— اين ابراهيم بك فاخر ؟

-- من قال لك انه يوزع الطحين ؟

-- أتضحك علينا !

فرفع طام راسه صوب زينة ، فشقت الحلقة وهتفت :

-- البك وزع على الذين جاؤوا قبلنا ثم امر باغلاق البوابة .

فتعالت الاصوات :

-- ونحن !

-- أليس لنا حصة ؟

-- انا احق من الجميع . بيتنا مرهون عنده بخمسين ورقة !

-- وانا اشترى مني القوتات بكيس قمح نصفه زؤان وتراب .

-- طرد امي من بيتنا فماتت على الطريق .

-- واختي ماتت تحت شباكه هنا ، ولم يعطها رغيفا !

-- اراد ابي ان يسترحمه فدفعه واوقعه عشر درجات !

واشتد لغطهم ، يسرد كل واحد حكايته . واندفع طانيوس يصيح :

-- هذا القصر من اموالنا !

فصاحت زينة :

-- هذا القصر من دمائنا !

وترددت الهتافات من بعدها . فاطل ابراهيم بك على الشرفة .

-- هذا هو !

-- هذا هو البك !

-- نريد طحيناً !

-- نريد ان نأكل !

-- أنزل الى هنا !

-- يا بك !

-- يا سعادة البك !

-- يا لص !

فزمجر من فوقهم مهدداً بجمع كفه :

-- ابتعدوا من هنا !

-- يا لص ! يا مجرم !

-- يا مجرم !

-- يا آكل اموال اليتامى والارامل !

وعشرات الايدي ممدودة اليه مع عشرات الاشداق المزبدة .

-- ابتعدوا يا كلاب !

-- انت الكلب !

-- ماذا يقول عنا ؟ نحن كلاب !

-- انت الكلب !

-- انت الكلب !

وهجموا على البوابة هائجين ، تدخل الايدي خلال القضبان كبيرة وصغيرة ، ضخمة وهزيلة ، مجموعة ومنفرجة ، وتلتف السواعد عارية وكاسية ومشقوقة الاكمام ، والمناكب تضرب

المناكب ، والاصوات تشق الجو خليطاً منكراً من التحدير والتهديد والتحريض والشتم والصراخ . واذا زوجة البك قد اقبلت ومعها الخادمة تتأبط بضعة ارغفة ، والبستاني وراءهما . واقتربت الست ، وعلى وجهها اضطراب تحاول تمويهه بابتسامة . فهدأ الغليان فجأة ، وتحولوا ينظرون بعضهم الى بعض ، وارتفعت بعض اصوات :

ـــ انا ، يا ست !

ـــ اعطني رغيفاً !

ـــ لهذا الولد ، يا ست !

فطوفت زينة حواليها عينين جازعتين ووثبت فمدت يدها اقصى ما تستطيع فتناولت الرغيف الاول وقذفت به في وجه الغنية زاعقة :

ـــ خذي في سحنتك !

فاردف طانيوس :

ـــ نريد لكل واحد كيس طحين !

وعاد الغليان اشد مما كان .

ـــ نريد طحيناً !

ـــ اين اكياس الطحين ؟

ـــ افتحوا لنا !

وانهالت الشتائم من جديد وزعقت زينة مرة اخرى :

ـــ اخلعوا البوابة !

فتراجعت الست مذعورة . ثم تقدمت بابتسامة عريضة ، تسترضيهم بشتى انواع الوعود ، فتضيع اقوالها في الهواء وتبتلعها الجلبة ، وهي تحجم وتقدم ، وتلوح بذراعيها ، وتنظر الى الجمع المجنون المترامي على البوابة ايديا وعيونا وشعورا . حتى خانتها شجاعتها فاستنجدت ودعت زوجها ، فسبقه البستاني الى البوابة شاهراً معوله ، فاذا رأس قد اطل من فوق السور ، وانقض طانيوس فالقاه ومعوله ارضاً . والجمع يموج موجته الاخيرة جزراً ، فمداً هويا واحدا ، فانخلعت البوابة بصرير فخبط على المارضتين ، وتدفق السيل الهائل ، وتوزع وثباً على السلم وانسلالا في الاقبية ، ويميناً وشمالا وراء الدجاجات الثمينة النافرة والمعاول والرفوش المنتظرة على الارض... من تسلح منهم تسلح ، ومن لم يتسلح فبيديه واسنانه استيلاء وتحطيما ونزعا ، وقفزاً فوق الاثاث وقلباً له على الادراج وطرحا من النوافذ ، خلال قرقعة الخزائن التي تُلبط ، والمرى التي تُتكسر ، والصناديق التي تُبقر ، والاسرة التي تخلع ، والصحون والقدور والاواني التي تتناتشها الايدي وتتداعسها الاقدام شظايا ، والفرش واللحف طياً ونشرا وتمزيقاً ، والطنافس تهشيما ، والاثواب نهباً والمآكل التهاما ودفما في الجيوب وتعبئة في الصرر وحملا بالاكياس ، والسمن والزيت والخمر كفأ على البلاط ووطأ . . . وزينة تنفر من حجرة الى حجرة ، وخلفها طام يتأثرها بين خليط البشر والحطام ويميل معها كيفما مالت . حتى لم يبق الا المطبخ فولجته فرأت ابراهيم

بك منبوش الشعر مجنوناً ، يصد السالبين بالشتم وبما استطاعت يداه ورجلاه ، وهم يزيحونه من طريقهم ويمسكونه حيناً ويسدون فمه حيناً . فهجمت عليه ودفعته الى بيت الخلاء ومدت بفمها ودمدمت في وجهه :

ــ العصابة البيضاء !

واستدارت ، فاخذت عيناها صفيحة غاز فابتدرتها بذراعيها وصبتها على الباب واشعلت عود كبريت ، فاندلعت النار . فخرجت وهي تهتف :

ــ حريق ! حريق ! اهربوا ! حريق ! اسرعوا بالخروج !

وقصدت الى حيث غادرت طانيوس ، والاصوات تتردد من خلفها : « حريق ! حريق ! » ولكنها لم تلقه . فمالت الى الغرفة المجاورة فلم يكن فيها ، فالى الثالثة فالى الرابعة فلم تجد له اثراً . فشرعت تدور ملهوفة وتنادي ، وطام ينادي معها :

ــ طانيوس ! طانيوس ! عمي طانيوس ! عمي طانيوس ! طانيوس ! ...

... بين المتأخرين في لم الاسلاب ، والمتحدرين على السلم ، والمتسللين من الابواب ، والقافزين من النوافذ ...

ــ لعله في القبو يا اختي ؟

فاخذت بيد طام ونزلا الى الاقبية ، فلم يرياه . فرجعا الى فوق . فاذا الدخان قد تعبق في الدار ، ولاحت خلال غيومه السوداء بعض

اشباح تتحرك . فتركت اخاها واقتحمت الظلمة الخانقة وهي لا تنفك عن الصراخ : « طانيوس ! طانيوس ! » فحك بها شبح ، وصدمها آخر بشيء كبير حمله ، وخيل اليها ان هنالك شخصاً ثالثاً في الزاوية فاقتربت فاذا هو مقعد قائم . وحارت من اي جهة تروح وطام يدعوها :

— زينة ! زينة ! ارجعي !

والسنة النار تندلع من الجانبين ، يدوي القصيف في اذنيها ، وتشوي الحرارة وجهها ، ويعمي الدخان بصرها ويسد انفاسها . فاندفعت يميناً فصدمتها النار ، فاندفعت شمالا . . .

— اختي ! اختي !

فلم تجبه ، فاقتحم اللهيب ، فعثر ووقع على وجهه .

— زينة ! اختي زينة !

وشق الظلام بالقرب منه لسان عظيم بلسانين ، شدقان من النار ينقضان عليه ! فانفتحت عيناه تقابلانها بمثل النار وارهب ! فلم يشعر الا ويدان تحتملانه من الارض الى الباب الى السلم . وكر الاخوان الى الحديقة فظهر البيت فالعراء ، عضيان في السماء مسرعين ، ثم يتوقفان بعيداً ينظران الى الشعلة الجبارة الصاعدة حتى السماء .

١٢

كانون الثاني السنة ١٩١٨ .

انقطع الثلج فجأة ، وأبت السماء ان تكمل نسج الثوب الابيض الطاهر لهضاب « الطفيلة » واوديتها ، وسطوح بيوتها الواطئة المتناثرة على السفح . وهبت الرياح باردة مولولة ، تطرد الغيوم في الجلد ، فتتراكض متدافعة متراكبة كالقطيع المذعور . وتعالى صراخ النساء والاطفال في ذلك الليل الدامس ، وامتلأت طرق القرية الضيقة الوحلة بالناس ، يتنادون تحت الزمهرير ثم يتفرقون كتلا وافرادا ، يتلمسون مهربا او يستخفون اتقاء الثأر الفظيع . ذلك ان خبراً انتشر بسرعة البرق بان الاتراك يزحفون من عمان لاسترداد الطفيلة ، ولما يمض على احتلال الثوار اياها الا بعض اسبوع . وكان الاهالي قد هتفوا للعلم العربي واطمأنوا الى انه سيخفق فوق رؤوسهم الى الابد ، فاذا هم يشاهدون الثوار يخلون مواقعهم مولين ، تاركين القرية ومن فيها الى الاعداء يذبحون الابرياء ويعتدون على الحرمات ، كما فعلوا في كل مكان داسته اقدامهم .

انقضى الليل الا اقله والهلع لا يغمض لاحد جفناً . وكانت القوة العربية قد انسحبت في هذه الاثناء الى المرتفعات وعسكرت في

مأمن . وراح سامي ينظر الى الطفيلة خلال الظلام ، متحسراً على مصير ابنائها وعلى الجهود التي بذلت لاخذها ! ويتمثل قائده قبل ايام يشرب القهوة على شرفة الحاكم التركي المستسلم ، ويكاد يسمع الهتاف يشق الفضاء بحياة الحرية .

وبينما هو في وقفته تلك ، اذ لمح جماعة يتقدمون مسرعين ، واذا هم وفد من الطفيلة ، اكثر من مئة شخص ، فيهم الشيخ والشاب والمرأة يحملون العصي وبنادق الصيد والرفوش ، قد جاؤوا يلتمسون من القائد الدفاع عن قريتهم ويعلنون استعدادهم لتقديم كل مساعدة. ولم تكن الطفيلة موقعاً خطيراً يحرص العرب على استبقائه ، فمال القائد عنهم وأصر على تركها الى الاعداء . فارتمى الشيوخ بين يديه يذرفون الدموع ، وضج الشبان غضباً ، فشقت الصفوف امرأة ورفعت ذراعيها صائحة :

ــ نحن لا نفهم بالخرائط الحربية ! نحن لنا ارزاق واولاد نريد ان نحميهم . (والتفتت الى اصحابها) : اذا كان الجنود لا يحاربون معنا فنحن النساء نحارب ، ولا ندع الاتراك يرجعون الى الطفيلة الا على جثثنا !

فعلت كلمات هذه المرأة في القائد ما لم تفعله حجج الشيوخ ولا خطب الشبان المتحمسين ، فظل ناظراً اليها دقيقة طويلة . ثم خفض رأسه مفكراً . وساد الصمت ، ينتظرون ما يكون جوابه . فرفع عينيه ، فاذا عينا المرأة ما تزالان تتحديانه ، فقال :

ـــ اذهبوا واجمعوا لي كل قادر فيكم على حمل السلاح .

١٤٨

١٣

... ومع بهق الصباح استل القائد سيفه ، وتحركت قطع الجيش ، وبقي قسم منه حيث هو ، يشرف على الاتراك يتقدمون في الوادي ، تحميهم المدافع من خلفهم وتقذف قنابلها المعولة في الفضاء . ثم طلع من فم الوادي ضباب ، واخذ يدنو متقلباً ، متكاثفاً ، متهاديا كحيوان بدين جبار ، مسخ هائل في الحيوانات له مئة رأس ولا رأس ، والف قائمة ولا قائمة ، وجسم يتمطى على رأي العين ، ويغمر الوادي فالسفوح فالآكام ، ويجتاحها صاعداً متمدداً الى غير حد . والرصاص يلعلع مخترقا الضباب بشرارات ضئيلة كأنها النجوم لولا انها لا تستقر . ولغط المعركة ، بين صهيل الخيل وهتاف الجنود وقرقعة السلاح ، يتعالى ويهدر في الاذان هديره الاصم ، كأن الاصابع تتداولها دون انقطاع . ثم راح الضباب يجر خلفه ذنباً طويلا رقيقاً ، ثم انفصل الذنب وبقي وحده معلقاً فوق الوادي . ثم اخذته الرياح فدارت به دورة فاذا هو يتلاشى ، وينجلي الميدان ناراً عن اليمين ونارا عن اليسار ، وشراذم بينهما تتنادى ثم تتكتل وتتقدم . وقد ساعدها الضوء العائد على تنظيم صفوفها والاهتداء

الى طريقها ، وفتح ما بين البنادق واهدافها ، فتدار كت الطلقات تتخاطب متقاطعة وتتجاوب من صوب الى صوب. وقنابل تنصب من فوق واخرى تسمو من تحت ، والكتلة العظيمة ما تفتأ تدب الى الامام وتموج عرض الوادي . وتساقطت السماء بالبرد . ثم امسكت واعقبته بنتف من الثلج تتلاعب مع الهواء ، يحط بعضها على التلال ، ويتابع البعض الآخر تهاديه ، متهاويا بغنج ساخر فوق الملحمة الصاخبة .

وكان الامر قد صدر الى سامي وشفيق ان يشغلا الاعداء من الوراء . فانطلقا في خمسين فارساً ولفا الوادي . ثم افترقا فذهب الواحد يميناً والآخر يساراً . وما هي الا ان ازّ الرصاص جهة شفيق ، فهب سامي يتفقده فرآه على حصانه يصوب بندقيته الى الوادي . ثم وثب الحصان غائباً به خلف صخرة ، واطل على الاثر ينهب الارض انقضاضاً ، والبندقية ترقص لا يتمكن شفيق من اثباتها على كتفه . واذا هو يقفز قفزة واحدة ويسقط على الحضيض ، ويظل الفرس راكضاً بضع خطوات ثم يجمد مائلا بعنقه . فاندفع سامي في اقرب طريق معلقاً بصره بمكان الحادث ، يحبو اتقاء عيون الاعداء ونارهم . ثم حانت منه التفاتة فرأى الحصان يتداعى فجأة ويتدحرج كصخر يتقاذفه السيل ... وتضاعفت الطلقات التركية وقربت ، وشفيق لا يقوم ولا يُسمع نأمة. فخفق قلب سامي بعنف واستوى على قدميه ومضى يستقبل الرصاص بوجهه ويتطلع كالمجنون.

من هنا ومن هنا :

ــ شفيق !

وانحنى يحتضنه . فأن الجريح وثنى عنقه ببطء . فالتفت سامي فرأى الدم يتدفق من صدره ويصبغ الثلج متائلنا بلونه القاني .

ــ كنت اخاف ان اموت قبل ان اراك ... اما الان .

وغامت عيناه . فتناوله سامي بذراعيه وحمله ، فصرخ صرخة موجعة ، ثم كررها واردف :

ــ اتركني ! اتركني هنا !

وتجمع الجنود يريدون رفع الجريح الى مطية من مطاياهم . ولكن سامي كان قد مضى به ، يشده الى ظهره المحدودب ، ويرفع ذقنه بين الخطوة والخطوة يناديه فلا يرد عليه ، والرصاص ما يفتأ يترامى ناطحاً الصخور وحافراً التراب ، والجنود يحمون ضابطيهما ويتراجعون .

ــ سامي ! سامي !

قالها بصوت ضعيف وتراخى ، وتدلت احدى رجليه تخف الارض . ثم وقعت الثانية ، فحاول سامي ان يرفعه فلم يقدر . وانطرح الجريح يغمض اجفانه ويفتحها ثم تختلج شفتاه :

ــ غلبوني ... ولكنهم لن يغلبونا ... أليس كذلك ؟

وتغضن وجهه بعذابه الفظيع ، وحاول ان يرفع كفه الى صدره ليوقف الدم المتدفق فترامت عاجزة . فاكب سامي يسد الجرح

والدم يتشعب بين اصابعه لزجا حاراً . ونادى الجنود ان يعاونوه على حمل شفيق، ولم يكد حتى قصفت قنبلة ارتجت لها الارض وسد السماء حجاب كثيف من التراب والاشلاء والحجارة فصاح :

— الى الوراء !

فتراجعوا مذعورين ، وبقي وحده . فرفع الجريح الى صديقه عينين فيهما رجاء هائل ! فسرت في بدن سامي قشعريرة ولمح امامه مثل البرق الاسود ... وجلبة الاتراك تدنو ، والهواء يحمل اليه وقع اقدامهم يتعاظم شيئاً فشيئاً ، حتى خيل اليه انهم يمرون عليه ويطأون في قلبه ... كانت كفه اليمنى تمتد برفق الى جنبه الايسر وتقبض المسدس البارد ! ثم تنفرج اصابعه وترتد متقلصة مشلولة وعيناه لا تفارقان العينين المنتظرتين ، المتألقتين بشعاع من غير هذه الدنيا . وكأن شفيق شعر بحركة سامي واراد ان يتثبت منها فلوى برأسه صوب تلك اليد الرهيبة الرحيمة ، وارتعشت شفتاه للمرة الاخيرة :

— العهد !

وقبل ان يكمل كانت الرصاصة قد انطلقت ، فاختلج لها قليلا . ثم هدأ ... تطفو على وجهه في الموت اجمل ابتسامات الحياة .

١٤

بعد مقتل شفيق تملك سامي شعور ليس هو الحزن بهدوئه الثقيل ، ولا اللوعة باظافرها الجارحة ، كلا ، ولا هو اليأس . شعور غريب ، قوي وضعيف في آن واحد . قوي حتى ليحس سامي مثل العاصفة تثور حواليه وتلفه وتدفعه لملاقاة الموت ، فيندفع فاذا الموت ينحني امامه مغلوبا بين المغلوبين ، فيدوس عليه بحوافر جواده ويجوز من فوقه... من معركة الى معركة ، من نصر الى نصر... وهو محمول في هذه العاصفة الهوجاء ذرة من ذراتها الجامحة المجنونة الطائرة في الجو . حتى اذا عقبت سكينة النصر ضوضاء المعركة ، حط سامي كما تحط الذرة ما تبالي في اي مكان ... وحينئذ يهبط قلبه وينصرف الى التفكير في الموت والحياة وفي ماضيه ومستقبله ... ويفكر بشفيق ، ويتذكر وجهه في تلك الساعة ، ويتذكر الكلمة الرهيبة المغلفة بالابتسامة المستألة « العهد ! » ويدوي في قلبه رجع الرصاصة التي اعطى بها الموت من اعطاه بالامس الحياة ...

*

كان الاتراك قد انهزموا في جميع الميادين ، ووصل العرب الى ضواحي « درعا » حيث تجمعت قواتهم من مختلف الانحاء استعداداً

للوثوب الى دمشق . وكثر لديهم الاسرى فحاروا ما يفعلون بهم ، ففرقوهم على القرى المجاورة يعاونون الاهالي في اعمالهم الزراعية ، فتحولت المنطقة الى معتقل لا حد له . وخفض الانكسار اعناق الاتراك ، فذلوا بعد جبروت وبانت عليهم المسكنة .

كان سامي مستلقياً في تلك الساعة تحت شجرة وارفة الظل ، يخشخش هواء الخريف بين اوراقها المصفرة وينثرها حواليه ، فينظر الى هذه الاوراق المتساقطة فيخيل اليه انها صفحات من كتاب قرأه الزمان وملّه ، فهو يتناول باصابعه القاسية الصفحة بعد الصفحة ويذريها في الفضاء ... وكامل ، بالقرب منه ، تتألق لحيته الشقراء سروراً ، وتتراقص عيناه الصغيرتان على الاشياء ، يتحدث على عادته عن الدولة العربية الجديدة حديثه المملوء بالحماسة والفخر . وسامي يصغي خلال الجلبة المترامية اليه من المعسكر القريب .

ـــ ان عهد معاوية سيعود . اكاد لا اصدق ، يا سامي ، اننا بعد اسبوع نكون في عاصمة بني امية . بعد اسبوع يتحقق حلمنا الاكبر ! ... ليت شفيق عاش ليتمتع برؤية دمشق الظافرة ! اتذكر ؟ اتذكر كلماته : عندما ندخل دمشق ساطلب الى القائد ان يعينني حامل العلم . »

وحملت النسائم رائحة زكية من بعيد ، ففتح لها سامي صدره ملء الرئتين ، واغمض اجفانه يسوح في جو من الاماني المبهمات ، احلى ما فيه وفيها انه لا يدرك له حدوداً ولا يعرف لها اسماً .

151

وسكت كامل قليلا ثم قال :

-- سنذهب معاً الى ساقية المسك . لي فيها مثل ما لك . لقد وعدت ظام بمهرة وعقال مقصب وعباءة من حرير، وسأفي بوعدي . وانت لك زينة .

قال سامي الى محدثه ، واحس شعاعا يضيء في قلبه لاسم من يحب . وطفا هذا الشعاع ابتسامة على شفتيه فعاد ينظر الى السماء . واخذت صفحات حياته تكر امامه ... زاوية صغيرة ، هنا بين ضلوعه ، قد تستوعب الصحراء والدنيا وامجادها ، وتبقى مع ذلك مستوحشة ... وشيء صغير قد يحطم كل ظلم على وجه الارض ، ويغيّب الظالمين في اعماقها ، ويظل مع ذلك متململا غير راض ... ساقية المسك ، وبيت كسار ، ومغارة الحورية ، ووجه زينة ... « الثورة ! الثورة ! لو تعلمين يا زينة ما اجملها ! ما اعظمها ! ما اروعها ! » ... لو تعلم ما اتفهها الان ! ما اتفهها ! كالماء بلا خبز ... كالخبز بلا ماء .

وكامل يتنقل في ثرثرته . واذا نسمة اخرى تهب على الشجرة ، فترتعش ورقاتها كأنها تحاول التمسك بامها مغالبة القدر . وتنفصل ورقة كبيرة عن اخواتها وتمايل بين الاغصان متهاوية فوق سامي ببطء ... تروح وتجيء ، وتتقلب وتترجح ، ثم تحط فجأة على جبينه . فمد اليها كفه وضغطها ، فسمع لها تكسرا موجعاً . واستمر يفركها حتى طحنها ففتح اصابعه واذراها في الفضاء ... ثم تلمس

ورقة اخرى بالقرب منه وهم بان يتلهى بها كما تلهى بالسابقة ، فاذا هدير في الجو فرفع عينيه . وهتف كامل :

— طيارة ! طيارة !

وتهيأ للقيام ، فامسك به سامي واشار عليه بالاختباء ، وقد علم انها من طيارات الاعداء . ثم اطلت طيارة ثانية ، فثالثة ، وجعلت تحوم فتتجمع وتتفرق وتدنو من الارض وتلقي قنابلها على العرب . ولكنهم كانوا قد احتاطوا لمثل هذه الغارة ، فلم تصب القنابل منهم احدا . وعادت الطيارات ادراجها صوب درعا . فمشى سامي الى المعسكر ولحق به كامل . وما كادا يصلان حتى رأيا عشرات من القرويين يقبلون نحو المعسكر يملأون الفضاء صراخا طالبين النجدة . وقالوا ان الاسرى ، الذين فرقهم العرب في القرى ، قد لموا شعثهم وانقضوا على الاهالي يحرقون البيوت ويتلفون الغلال وينكلون بمن تقع عليه ايديهم ، لا يرحمون عاجزا ولا يشفقون على طفل .

١٥

غلت الدماء في الضباط والجنود واصدر القواد امرهم لاول مرة بافناء الاسرى . فاندفع الفرسان من كل صوب ، واتجه سامي الى « المزيريب » وقد خلف فيها العرب نحوا من مئتي اسير ، في شرذمة

بطاشة من رجاله . وكان دخان الحرائق يتصاعد من القرية وينعقد في الجو ، وطلقات متقطعة بعيدة تشوش سكينة ذلك العصر ، ومواكب الهاربين تترى بين عجوز مهرولة ، وام تركض برضيعها وابن ينجو بابيه الشيخ ، يحتمون بالادغال ، وينفرون الى الحقول . وقد سرى الخوف الى المواشي ، فانطلقت الابقار والخرفان تقفز تائهة في العراء ، وتمزق اجسادها بين الصخور ، او تدق أعناقها في المهاوي .

على أن الهاربين تشجعوا لما رأوا العرب آنسين اليهم ، فرجع اكثرهم الى القرية يدلونهم على جثث الابرياء وقد انطرحت مفروسة بالحراب ، او مشوهة دقاً بالحجارة . وحانت من سامي التفاتة الى شجرة فرأى امرأة قد أوثقوا يديها ورجليها وعلقوها من شعرها ، واخرى على الحضيض قطعوا ثدييها ، وثالثة عارية فصلوا رأسها عن جسدها وركزوا في بطنها عوداً . فصعد قلبه الى حلقه وهمز مطيته وانطلق ورجاله ينهبون الارض ويقلقون السماء بارعادهم . وكان شبان القرية ما يزالون يقاومون مستميتين في الدفاع عن بيوتهم وارزاقهم ، فما وقع بصرهم عليهم حتى هبوا الى لقائهم . وركض صوب سامي شبحان صغيران ، اخت تجر اخا لها دون السادسة يتفجر الدم من صدره وهو يصرخ : « امي ! امي ! » فثنى جواده اليهما ، فذعر الصبي وصرخ صرخته الاخيرة ووقع ميتاً . فقال سامي للفتاة مشيراً اليه :

— من فعل به هذا ؟

— ضابط تركي !

ودارت كالمجنونة تبحث . وتناثر الجبناء يتلمسون مفراً ، ووقف الآخرون مبغوتين رافعين ايديهم في الهواء . فاستعرضهم يسألها عن الجاني ، وهي تصعّد فيهم بصرها وتنتقل من الواحد الى الاخر . ونادت :

— هذا هو !

فمد التركي بفكه الاسفل اليها ، فالى سامي ...

— انت هنا ايضاً ؟ !

وجمد سامي هنيهة يرمي رئيس التحقيق السابق في الديوان العرفي بنظرة يتحدر معها من بين اجفانه احتقار دونه الدوس بالاقدام ، ثم وثب الى الارض ومشى الى رشدي بك ، فلمعت عينا الاسير وتحركت كفه تتلمس شيئاً الى جنبه ، وهجم هجمة واحدة . ولكن سامي كان قد انتضى خنجره واهوى عليه به فاغمده في قلبه حتى النصل ، فتهادى الوحش في هرير عظيم وخبط على الارض جثة بلا روح . وتناول سامي مسدسه فسوى الاتراك صفاً واحداً واشار على رجاله فصوبوا البنادق وحصدوهم جميعاً . وابى الا ان يرجع الى رشدي بك فافرغ رصاصات مسدسه الست في رأسه ، ورفع قدمه والقمها ذلك الفك .

وكان جنوده قد انبثوا في الانحاء يتصيدون الفارين ، فعلا فرسه وانطلق في أثرهم . حتى اقترب من المعسكر فاذا جلبة قوية ، فجمع

153

شرذمته وثار بهم ثورة ، فاذا المعركة حامية بين العرب واكثر من ستة آلاف من الاعداء يتقدمون من الجنوب صفاً عريضاً يغطي السهل : الفرسان في الطليعة وعن الجانبين ، والمدفعية في الوسط ، وفي المؤخرة خط طويل من المشاة . وكان المساء قد بدأ يرش غبشته على الآكام والوهاد . فادرك العرب ان هؤلاء الزاحفين من بقايا الجيوش المنهزمة من فلسطين ، فسلطوا عليهم المدافع . ولكن اهالي القرى التي ذاقت من الاتراك الامرين لم يستطيعوا صبراً ، وهاج بهم حب الانتقام ، فاندفعوا صوب الاعداء غير منتظرين امراً حربياً . فلما رأى القواد ذلك لم يجدوا بداً من الهجوم بالسلاح الابيض ، ونظر سامي حواليه وصاح بالفرسان :

ــ الى الامام !

ولكز جواده ، فعلت حمحمة الخيل واهازيج العرب وهو يردد :

ــ الى الامام !

والسيف في كفه يلمع على الشفق ، وهو ماضٍ يستقبل الرصاص بصدره :

ــ الى الامام ! الى الامام !

والابطال يقعون عن جانبيه من هنا ومن هنا وهو يفتح عينيه متحديا الموت :

ــ الى الامام ! الى الامام !

. . . .

154

الحصاد

مع سفر الطيور الغريبة اسرابا سوداء في السماء ، ووثب اظلالها المضطربة فوق الجبال والاودية ، كانت الجيوش التركية تجلي عن البلاد وتغادرها الى غير رجعة . وقد دب الذعر في القواد والجنود فتفككت الروابط واختلطت الاوامر بالنواهي ، فاختل النظام وسادت الفوضى ، وعلت الضوضاء في الثكنات . يترك العسكر وظائفهم واسلحتهم وكل مايملكون وينجون هاربين من كل صوب . يتكدسون في القطر المولولة المسرعة نحو الشمال ، ويخرجون شراذم متجنبين المدن والقرى ، ويتيهون على وجوههم شاردين في البراري . والناس يطلون على السطوح ويشرفون على رؤوس الجبال يشيعون مع هذه الفلول المتوارية اشباح الظلم والجهل التي ساورتهم قرونا ، يبكون من الفرح ويتعانقون ، ويتنادون بالبشرى ويهزجون . غابت الوجوه الغليظة من الدواوين ، واستراحت الطرق من الجزمات الثقيلة ، وامنت العذارى في غدواتهن من البيوت وروحاتهن ، وولى الجوع بمواكبه الكالحة الصفراء ، واشتاقت الارض الى سنابل القمح والازهار بعد الجيف وركائز المشانق ...

ونشم الهواء بالحرية .

*

وكانت دمشق اكثر البلدان ابتهاجا بالنصر . قد وافاها يومها في ميعاده ، فانحنى يمسح بانامله السحرية اجفانها المثقلة بمئات السنين، فاستفاقت تحطم قيودها وسلاسلها ، وتنفض غبار الاجيال المتراكم عليها ، وانبعثت تحت شمس الشرق تشمخ بقاسيونها الى السماء ، وتزين الارض بغوطتها الخضراء ، وتطيب الارجاء .

كانت جموع الناس تموج عرض الشوارع والساحات ، وتكتظ على السطوح والنوافذ ، شيباً وشباناً ونساء واطفالا ، في ثيابهم المزركشة الفضفاضة واكمامهم الملوحة في الفضاء . يهتفون ملء الصدور ، افواهاً كالابواق ، وجباهاً عالية ناصعة ، وعيوناً متألقة . يعتلي الشبان مناكب الحشد، راقصين بالسيوف والخناجر، متنقلين بين الوف الرؤوس ، فتتعانق لمعات الاسلحة وشراراتها فوق درز الطرابيش الحمراء ، والعمائم الخضراء والبيضاء والصفراء ، والشعور المبعثرة مع الهواء . وتتجاوب الاناشيد وتختلط الانفاس في زحمة الفرحة الكبرى ، ويصعد كل ذلك في الجو فيملأه ويرجه ، حتى ليخيل الى الرائي ان هذه الكتلة المتلاصقة ، المتهادية ، المترامية الى كل منفذ ، الزاحفة الى غير حد ، بحر هائج قد ضاع فيه الافراد كما تضيع القطرات ، فهو مخلوق من الاساطير له جسم واحد جبار وروح واحد هدار . هو الشعب العظيم قد اقبل من كل صوب وفج الى عرس الحرية وعيد الاستقلال .

وكانت زينة في تلك الاثناء واقفة على الشرفة من بيت الوراق

156

تصغي الى كامل افندي يقص عليها وعلى طام اخبار الثورة واحاديث الانتصارات التي احرزها سامي ، من الصحراء التي ليس لها اسم ... الى وادي ابي اللسان حيث كان اللقاء به وبشفيق ... الى العقبة حيث كانت قيلولة الاحلام ... الى الطفيلة الرهيبة المدماة بظفر القدر القاسي ... الى المزيريب حيث فتكة الانتقام الكبير ... فالى ...

— ان صوته ، يا زينة ، ما يزال يرن في اذني . وما ازال ارى وجهه في تلك الساعة ... وتلك الكف تمتد الى صدره وتخرج الوديعة مضرجة بدمائه لترتفع وتسلمها الي ... وشفتيه يتمتم بهما اسمك ويحاول ان يزودني اليك بالكلمة الاخيرة ...

وزينة تنصت ولا تقول شيئاً ... وقد علت في الشارع جلبة ، وتراجع الناس الى الارصفة متدافعين ، واقبل من بعيد وقع حوافر واهازيج . ثم انعقدت سحابة من الغبار وجملت تدنو وتتعاظم ، والوقع يتدارك والاهازيج تملأ الفضاء . ولاحت الكوفيات الحريرية والعقالات المقصبة والعباءات المنتفخة ، وكر الفرسان على خيولهم فجن الناس سروراً وزهواً يلوحون لهم بالايدي ، ويرشقونهم بالبسة الرؤوس ، ويهجمون الى اعناق المطايا ، وقد اطلت الصبايا من اخدارهن ومزقت النساء براقعهن ، وانعطفن على النوافذ والشرفات ينثرن على الجيش الازهار والعطور ، ويمددن اذرعتهن مع الزغاريد الى غير ما حدود . وزينة ، وسط هذا المشهد الرائع ، جامدة تنظر

عيناها وكأنهما لا تريان ، وتصغي اذناها وكأنهما لا تسمعان . ثم خيل اليها ان موجة عظيمة قد جاءت من اقصى الشارع تتقلب فوق هذا الحشد الزاخر ، وتقترب متعالية في مشيها حتى تطغو على الشرفة حيث هي واقفة ، تداعب قدميها ، وتتسلل بين رجليها وتغمرها حتى عنقها فتحاول التنفس فلا تستطيعه الا بجهد ... ثم تحس كأن قلبها يصعد ، يصعد ، يصعد ، واذا هو قد هاج بين اضلاعها بحراً تتدفق امواجه وتتلاطم بامواج البحر الآخر ، فتغمض اجفانها وتستسلم الى هذا المرج متهادية ، تجيء بها موجة وموجة تروح ، ساعة طويلة من الزمان الذي ليس يعرف الساعات .

ثم كأن الغمر هبط فجأة وهبط قلبها معه ، فاستفاقت على اخيها يعالج كفها المطبقة على ذخيرة عود الصليب ويسأل :

— اختي ، اختي ! ما هذه ؟

فخفضت رأسها الى كفها وظلت تنظر الى ما فيها . ثم اغرورقت عيناها فلم تعد ترى... ومالت الى اخيها وقالت وقد انفرجت اصابعها في الهواء :

— لا شيء ! ...

تمت

157

تقديم

ان اشخاص هـذه الرواية وحوادثهـا هي من خلق المؤلف ، ولا تمت بصلة قريبة او بعيدة الى اشخاص او حوادث معينة في مكان ما.
على ان وقائع الثورة العربية واخبـار الديوان العرفي في عاليه ، هي وقائع واخبـار تاريخية ، في جملتها ، استقاها المؤلف من عدة مصادر ، بين مذكرات و كتب تاريخ ونبـذات في الصحف ، وعلى الاخص من « اعمدة الحكمة السبعة » للورنس .
امـا الاتراك الذين يعنيهم المؤلـف فهم اتراك السلطنة العثمانية المتفسخة التي اقام على انقاضها الغازي مصطفى كمال دولة حديثة جديرة بكل اعجاب .

158

انتهى طبع هذا الكتاب

في ١٧ اذار سنة ١٩٣٩

في «دار المكشوف»، بيروت

من منشورات « دار المكشوف »

الصبي الاعرج (نفد)	توفيق يوسف عواد
عشر قصص (نفد)	خليل تقي الدين
قميص الصوف	توفيق يوسف عواد
عمر افندي	لطفي حيدر
كان ما كان	ميخائيل نعيمه
ليلة القدر	احمد مكي
العراق بين انقلابين	عبد الفتاح ابو النصر اليافي
ارجوحة القمر (شعر)	صلاح لبكي
على المنبر (الجزء الاول)	الدكتور نقولا فياض
الاشتراكية العملية	ابراهيم حداد
خطيئة الشيخ	رشاد المغربي
الباب المرصود	عمر فاخوري
افاعي الفردوس (شعر)	الياس ابو شبكه
وهل يخفى القمر ؟	رئيف خوري
يوميات ميشال سرور	ميشال اسمر

DEI SVB NVMINE VIGET

Restored through a grant from

The Cartwright Foundation

VETVS & NOVVM TESTAMENTVM

DEI·SVB·NVMINE·VIGET

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY